المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك عبد العزيز

من مذكرات

ڤلهاردوان

فتح القسطنطينية

ترجمها عن الفرنسية القديمة وعلق عليها

دكتور حسن حبشي

الطبعة الأولى — ذو القعده ١٤٠٣ هـ — الناشر المجلس العلمي

موضوع المذكرات

اعتلى البابا إنوسنت الثالث العرش البابوى سنة ١١٩٨م ، وكان الغرب لم يلعق بعد جراحه الدامية منذ هزيمة الصليبيين أمام صلاح الدين الأيوبى وماأدت اليه وقعة حطين من ضربة قاتلة للبابا إربان الثالث الذى أزعجه النبأ فما لبث أن مات ، فخلفه البابا جريجورى الثامن الذى لم تطل أيامه أكثر من شهرين ، لكنه دأب خلال هذين الشهرين على الدعوة الحارة لحرب صليبية جديدة يشنها الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى(٦) . وأصدر من أجل ذلك مرسومه البابوى الذى اقترح فيه على الدول الأوربية أن يهادن بعضها البعض الآخر مدة سبع سنوات تكرّس خلالها هذه الدول جهودها لغسل عار حطين .

كان البابا إنوسنت شديد التلهف لضرب المسلمين فدشّنَ بابويته بالدعوة لحرب صليبية كانت صيحة التجمع فيها ذلك النداء المحبب إلى نفوس جمهور المسيحيين الأوربيين وهو « بيت المقدس » الذى من أجله – كما قالوا – كانت الحرب الصليبية الأولى ، ثم كانت الصليبية الثانية بسبب الخوف عليه – كما ادعوا – ثم كانت الثالثة من أجل دَفْع ماعُرِف بالخطر الصلاحى .

وكان لكلمة « القدس » رنينها السحرى عندهم .

ويلاحظ أن إنوسنت الثالث – فى سبيل تحريك أوربا – نهج سَمْتَ إربان الثانى منذ مائة سنة من قبل ، فقد أراد كلاهما أن تكون الحرب بابوية خالصة حيث ركّزا على إثارة الشعوب المسيحية الأوربية .

وإذا كان البابا إربان الثانى قد تجاوز الأباطرة والملوك والأمراء وتناساهم عامداً(٧) ، فإن إنوسنت الثالث الذى كان رجلا ألْمَعِيًّا متفقها فى اللاهوت المسيحى كان يدرك أن

---

(٦) ان نص هذا الخطاب لايزال محفوظا فى المجموعة المسماة : Historia de expeditione Frederici imperatoris, pp. 6 – 10 -

(٧) Cf. F. R. Ryan: A History of the expedition to Jerusalem, Introduction

حاجته الملحة فى حشد حملة لتحقيق دعوته الصليبية يتطلب أن يسود الهدوء جبهة الملوك والحكام ، ومن ثم كاتبهم مكاتبة المولى للتابع ، والسيد للمسود ، وصاحب اليد العليا على من دونه ، ذلك لأنه كان يرى أن البابوية هى السلطة العليا فى العالم وأن بقية الحكام : أباطرة وملوكا وحكاماً دونها ، ويستمدون منها قوتهم فى الحكم[٨] .

واستعمل فى الوقت ذاته - وبصورة واضحة - الأساقفة والديريين وكبار رجال الدين فى تحريك الشعوب ، كما اهتم بضمان وقوف المدن التجارية الكبرى كجنوة والبندقية وبيزة إلى جانبه وفى خدمة دعواه ، فبعث إلى كل واحدة واحداً من كرادلته مِمَّنْ كان يَعُدُّهم بمنزلة نفسه ، ومعنى هذا أنه فى الوقت الذى كان يرفض فيه الاعتراف بمكانة العلمانيين الكبار من رجال السياسة فى ذلك العصر لم يكن يستطيع أن يتجاهل ضرورة مساهمتهم « المالية » فى الحرب الصليبية الرابعة ، وكتب إلى الامبراطور البيزنطى ألكسيوس انجيلوس الثالث كتابا يلومه فيه على تراخيه فى مد يد المعونة من أجل تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين[٩] ، ويتّهمه بأنّه قصّر فى ذلك بما لايتفق ومنزلته كحاكم مسيحى ، وخاطبه بلهجة تنضح بالاستعلاء : الأمر الذى ربما كان له أثره فى نفوس كبار رجال الحملة الرابعة - بعد قليل - وربما كان مشجعاً لهم على توجيه ضربتهم إلى بيزنطة وليس للقوة الاسلامية فى مصر أو الشام كما كان مفروضا ومفهوما عند الشعب المسيحى .

* * *

أما فى فرنسا وإنجلترا فلم تكن مهمة الرسول البابوى مُيَسَّرةً لما كان بين مليكيها فيليب أوجستوس وريتشارد قلب الأسد من نزاع يتمنى فيه كل منهما للآخر الهزيمة ، وكان البابا يسعى لعقد السلم بينهما ، فإن لم يتمكن من ذلك فلا أقل من هدنة بين الملكين مدتها خمس سنوات ، وفشل إنوسنت فى تحقيق الصلح الدائم ، ولكن نجح نائبه

---

(٨) انظر على سبيل المثال :
A. Luchaire: Innocent III, la Question d' Orient; S. T. Stratton: A Century of Controversy on the Fourth Crusade.

(٩) الواقع انه كانت هناك مراسلات بين إنوسنت الثالث وبين الكسيوس انجيلوس للاتحاد ، أما رغبة الثانى فكانت « لكى نحاول نحن الاثنين الحد من زيادة قوة خصمنا الامبراطور الغربى » كما قال الكسيوس . أما انوسنت فكان يسعى للارجاع كنيسة بيزنطة الى حضن الكنيسة الام : كنيسة روما « وراح يهدد الامبراطور انه ان لم يستجب لذلك فانه سيمد يد العون الى اسرة اسحق ليرجع اليه العرش البيزنطى ، انظر : Vasiliev: History of the Byzantine Empire, Vol. II, P. 451.

بطرس الأمالفى فى حمل الملكين فى يناير ١١٩٩ فى عقد هدنة لتلك المدة وبدى وكأن كلّا منهما قد اطمأن إلى منافسه فى ظل الرعاية البابوية .

وإذا كانت الوساطة البابوية قد نجحت فى تهدئة ما بين العاهلين الغربيين الأوربيين فإن نجاحها كان مبتوراً ، يدل على ذلك أن الحملة تأخرت عن الموعد الذى حدَّده البابا لخروجها وهو مارس ١١٩٩ حتى انقضى العام ، مماحمل البابا على أن يبعث برسائل إلى رؤساء الأساقفة وكبار رجال الدين وإلى بطرك بيت المقدس يفسّر لهم سرّ هذا التأجيل ، ويبدو أن الجانب المالى هو الذى كان يشل حركة حشد الجيوش المسيحية . نستدل على هذا من رسالة بابوية يلحّ فيها خليفة بطرس والجالس على كرسى كنيسة روما على رؤساء الأساقفة أن يجْبوا مبالغ حدّدها لهم قَدَّرَها بـ ٥ر٢٪ من دخول[١٠] رجال الدين تمويل الجيش الصليبى المزمع إنفاذه إلى فلسطين ، كما أن البابا أعلن أنه هو وكرادلته وكوادره الكهنوتية سوف يدفعون « العشر من دخولهم فى السنة التالية » حتى يمكن حشد قوة صليبية تكون على مستوى الهدف ، ومكافئة لقوة الدولة الاسلامية التى لابد وأن تأبى على الغرب المسيحى انتزاع بيت المقدس من يديها ، ويلاحظ أن هذه هى أول ضريبة مالية رسمية فى تاريخ الكنيسة ولايزحزحها مايعرف بضريبة « العشر الصلاحى »[١١] .

بل إنّ البابا زاد على ذلك بأن أعلن أن من حق الكنيسة الاستيلاء على أراضى الهراطقة ، بل وأن تنتزع من الملك المتقاعس عن نصرة الصليب أرضه ومملكته وتُعطيها لملك كاثوليكى غيره تملؤ قلبه الحماسة الدينية ، ولكن يعوزه السند المالى .

والحق أن البابا أنُوسِنْت الثالث كان قادراً على أن يصرّح جهرا بما كان يسعى إليه من سبقوه ، ولكن يخشون الافصاح عنه ، حتى ولو كان ذلك من أجل شراء المحاربين والسلاح[١٢] ، ونعرف أنه بعد أقل من ثلث قرن استغل الفرسان التيوتون هذا الأمر فى تقوية قلعتهم المعروفة باسم مونتفرات أو « القرين » الواقعة إلى الشمال الغربى من عكا حيث اتخذوها مركزا لغاراتهم العدوانية ضد المسلمين[١٣] .

---

(١٠) J. Strayer: The Political Crusades of the Thirteenth Century, p. 347.

(١١) F. A. Cazel: The tax of 1186 in aid of the Holy land (in) Speculum, 1955, p. 38 fl.

(١٢) CF. Pissard: la guerre Sainte, pp. 38 – 39 ويلاحظ ان هذه الخطة قد احتذيت بعد قليل وصارت مثلا يتبع ، وانحرف بعضهم بها عن الناحية الدينية الى اهداف شخصية ، انظر E. Jordan: les origines de la domination angevine en Italie, pp. 537 – 538.

(١٣) Grousset: Histoire des Croisades et le rayaume de Jerusalem, t. III, p. 228.

وليس من شك فى أن رجال الدين فى أوربا خافوا من هذه الضريبة المالية ، مما حمل البابا على أن يعلن لهم أنها « مؤقتة » وأن ليس عند البابوية النية أبدا فى أن تصبح لهذه الضريبة صفة الاستمرارية(١٤) .

على أن ذلك التصريح – رغم صدوره من البابا – لم يبدّد خوف رجال الدين ، لأن عدم رغبتهم فى دفع شيء من أموالهم – حتى ولو كان قدرا تافها – كان أقوى مماتذرع به البابا الذى راح يصرح بأنّ هذه الضريبة إنما هى من أجل الصالح المسيحى ، بل لقد عدّها بعضهم – حسبما وصفها أحدهم – بأنها « ذريعة ابتزاز » «argumentosa extorsio» . بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك حين هاجموا البابا من أجل هذه الضريبة على الرغم من أن بعض هؤلاء المهاجمين كانوا من رجال المنظمات الدينية التى تتبع البابوية مباشرة ويفترض فيها أنها أول من يسعى لصالح الحجاج المسيحيين ، ولكن هذه المنظمات الدينية الحربية كانت قد أصبحت مؤسسات تجارية إلى جانب سَمْتِها الدينى ، إذ كانت تقوم بممارسات تجارية لبعض الأمراء والملوك نتبين ذلك من دراسة(١٥) حديثة صدرت سنة ١٩٧٣ توضح ماكانوا يقومون به من « عمليات مالية » يقدرون فيها أرباحهم، ومن ثم فلا نعجب إذا رأيناهم يتحركون بما يترجم عن عدم رضائهم عن هذه الضريبة التى هى من أجل أغراض دينية يزعمون أنهم قد كرسوا جهدهم وحياتهم من أجلها ، ونستدل من وثائق العصر التى وصلت إلينا على أن هنرى الثانى ملك انجلترا أرسل قدراً كبيراً من المال إلى الفرسان الداوية والاسبتارية لسدّ احتياجات الأحرام المسيحية فى فلسطين وللصرف منها حين يزور هذه الأحرام حين ينعقد الصلح بينه وبين فرنسا ، ونسمع فى سنة ١١٩٩ أن أسقف طبرية بعث إلى البابا يشكو إليه الداوية فى رفضهم إعطاءه مبلغاً يدينهم به قدره ألف وثلاث مائة قطعة ذهب ، وتأزّمت الأمور بين الطرفين تأزما أدى به لان يتدخل بنفسه لفض النزاع فلم ينجح ، وكان فشله دليلا على أن الجانبين يؤثران المال على إطاعة أمره .

* * *

---

(١٤) على الرغم من هذا الوعد الذى قطعه البابا على البابوية بعدم فرض مثل هذه الضريبة مستقبلا الا انه وجد نفسه مضطرا لفرض مثلها مرة أخرى سنة ١٢١٥ ، راجع :
H. E. Mayer the Crusades (Eng. Tanslation by J. Callin gham,) p. 185.

(١٥) Forey (A.J.): The Templars in the Coroana de Aragon.

أما المانيا فكانت تجتاز فترة صراع داخلى مرير بين المطالبين بالعرش هناك ، وكان هناك منافسان قويان هما فيليب دى سوابيا وأوتو الرابع ، يرى كل منهما نفسه أحق بأن يكون صاحب الأمر ، وكانا متساويين فى النفوذ والقوة ، ومن ثم فليس لنا أن نتوقع أن تجد دعوة البابا من هذين المتنافسين أو من أحدهماترحيبا .

هذا جانب من المناخ الذى قامت فيه الدعوة للحرب الصليبية بعيداً عن مستوى العامة ، ونستدل منه على جانب هام من دعائم الحركات السياسية والحربية فى ذلك الوقت .

* * *

وإلى جانب هذا فقد كانت هناك الإمبراطورية البيزنطية التى وإن كانت مسيحية إلا أنها كانت فى نظر الغرب الأوربى – لاسيما البابوية – نشازاً فى اللّحن المسيحى . بل وخروجا عن السمت الرومانى الذى تراه روما هو السمت الصحيح .

ثم إنه من ناحية أخرى كان الغرب الكاثوليكى يحسّ بمرارة شديدة ضد الشرق المسيحى الأرثوذكسى ممثلًا فى بيزنطة التى عدّها خصماً أنزلها والمسلمين منزلة واحدة على السواء ، وإن حملته الظروف على محاولة إخفاء هذا الإحساس ، وكانت بيزنطة من ناحيتها الأخرى لاتكتم مودّة للغرب المسيحى ، بل لقد أفصحت عن ذلك جليا فى أكثر من مرة كانت ابرزها حين ثار المجتمع البيزنطى ضد اللاتين قبل أقل من عشرين سنة من قيام الحرب الصليبية الرابعة حيث اشتعلت القسطنطينية بثورة عارمة دامية ضد اللاتين الذين ترسبت الكراهية منهم فى النفوس ، وانفجر مرجل الغضب فى حركة مايو ١١٨٢ وما جرى فيها من فتك بالعنصر الأوربى الغربى الذى توغّل فى البلاد اقتصاديا وسياسيا ، والواقع أن المجتمع البيزنطى كان يمر بفترة تحول اجتماعى هو الذى مهد لاسحق الثانى أنجيلوس فى تولى عرش الامبراطورية التى كانت تعانى متاعب داخلية تمثلت فى بيع الوظائف الصغيرة والكبيرة لمن يكثر البذل فيها لأصحاب السلطة ، هذا الى جانب الابتزاز الذى يعانيه الشعب من جباة الضرائب الذين أرهقوا الرعية بما ضجّت منه ماليا . ويحدّد المؤرخون الضغط الاجتماعى والاقتصادى بفترة زمنية تمتد من سنة ١١٨٥ حتى ١٢٠٤م .

كما أن قيام البلغار بتكوين مايعرف بالدولة البلغارية الثانية كان بتراً لأقسام غالية من جسد الامبراطورية البيزنطية ، حتى إن الدولة فى عجزها عن مقاومتهم عمدت إلى تمكين

الأمر للمجريين أو على الأقل لفريق كبير منهم حين تزوج الامبراطور اسحق سنة ١١٨٥م من الأميرة مرجريت المجرية ، على أن هذا العمل لم يكن علاجا شافيا ولاحسماً للموقف بمايحفظ للامبراطورية هيبتها مماأدخلها فى دوامة صراع فى البلقان أدّى إلى ضعف قبضتها هناك ، مما كان له أثره فى أطماع الغرب اللاتينى فى هذه المنطقة .

ثم ظهرت المطامع الألمانية لبيت هوهنشتاوْفن الذى سيساهم أحد أفراده بعد قليل – وهو فيليب دى سوابيا – بدور خطير فعال ، بل ربما كان له الدور الرئيسى فى تحويل وجهة الحملة الصليبية الرابعة إلى بيزنطة ذاتها .

كانت الامبراطورية البيزنطية أصيبت بصفعة قوية حين استولى ريتشارد قلب الأسد على جزيرة قبرص التى كانت تابعة لها ، ثم تلقت الجزيرة فرسان المعبد ليتسلمها جى دى لوزينان سنة ١١٩٢ وينشىء فيها دولة فى بيته .

* * *

ولقد آل العرش الامبراطورى البيزنطى قَسْراً واغتصابا فى سنة ١١٩٥ ولمدة ثمانية أعوام إلى ألكسيوس الثالث أنجيلوس الذى كان أسداً على أخيه إسحق الثانى ولكنه كان نعامة على الألمان حين سلّم لهم بما طلبوه ، دفعا لخطرهم ، ففرض ماعرف فى تاريخ هذه الفترة « بالضريبة الألمانية » . لكنها كانت علاجاً ظاهرياً لداء استحكم فى الدولة .

وكانت البندقية – وهى خصم لبيزنطة تقف على بُعْدٍ ترقب تطوّر الأحداث لتوجهها إلى مصلحتها الذاتية ، وكانت بارعة فى ذلك براعة جعلت بيزنطة والبابوية تنظران إليها نظرة خوف وشك ، وكانت فى الوقت ذاته تحاول اغتنام كل فرصة لنهش قطعة من جسد هذه الامبراطورية الواهية ، حتى إنها عدت وقوف ألكسيوس الرابع فى وجه تدخلها فى بلاده عملًا عدوانياً ضدّها ، ولكنه كان فى نظرها عملًا مشروعاً ، والحق هو القوة فى معيار السياسة ، ولقد بَيَّن ذلك فلهاردوان وهو يظن أنه يدافع عن اللاتين والبنادقة ويندّد بما فعله أهل القسطنطينية من دفعهم إياه[١٦]

من هذا كله نستدل على أن أطرافاً مختلفة قد يكون بين بعضها والبعض الآخر تنافر ولكنهم كانوا جميعا يسعون إلى هدف مشترك ذلك هو الاستيلاء على بيزنطة على أى

---

(١٦) انظر فيما بعد هذه المذكرات فقرة رقم ٢٢٠ .

صورة . ومن هنا كان تحويل مسار الحرب الصليبية الرابعة الى بيزنطة وليس إلى بيت المقدس أو مصر .

* * *

فى هذه الأجواء التى كانت تسود العالم المسيحى الغربى والشرقى على السواء بدأت الدعوة للحرب الصليبية الرابعة ، ووجدت داعيتها فى فولك دى نىّ الذى كان خطيبا مفوّها وكان يملك القدرة على جذب الناس لاسيما العامة إليه بلسانه الفصيح وعباراته المؤثرة وهيئته الجميلة التى كانت تختلف اختلافاً كبيرا عن هيئة الكثيرين من الوعاظ ، ولقد ضرب كما يقولون على الوتر الحساس الذى كان ظاهرة القرن الثانى عشر الميلادى فى الغرب وهو « الفقر » وأن للفقراء ملكوت السموات ، فلاعجب إذا وجد إقبالاً كبيرا من العامة حتى إن « فلهاردوان » يَنْعَتُه « بالتقى الطوبانى الصالح » .

والواقع أن فولك كان شديد التحمّس لتجميع القوى المسيحية ضد الاسلام والمسلمين ، ولانقول ضد البيزنطيين ، لأننا لانعثر على شىء فى أقواله يشير إلى هذه الناحية ، بل إن هدفه الأول كان تحريك الشعور الدينى فى المسيحيين عامة ، حتى يوجهه الوجهة التى يحدّدها البابا نفسه ، وقد أخذ يذرع كل مكان فى أوربا يستطيع الوصول إليه منذ نوفمبر سنة ١١٩٨ وليس من شك فى أنه نجح فى جمع القلوب حوله حتى ليزعم البعض أن مائتى ألف حملوا الصليب استجابة له ، هذا إلى جانب إنه استطاع أن يجمع من المال الشىء الكثير مما جادت به النفوس عن طيب خاطر ، ويصف معاصره روبرت كلارى(١٧) بأنّ « ماجمعه هذا القس فولك كان ثروة ضخمة يحملها إلى الأرض المقدسة فيما وراء البحار » ، حتى أن المؤرخ « إرنول » الصليبى يقول إن الرهبان البيض جاءوا إلى بلاد فلسطين بجزء من المال الذى جمعه فولك ليرمموا به أسوار عكا وبيروت وصور ، ثم وَجَدَ أعظم نصر له فى تحقيق فكرته حين عقد مجمع فى قلعة « إكرى Ecry » التابعة لثيبوت كونت شمبانيا . وقد حضر هذا الاجتماع حشد كثيف من الكونتات والبارونات والفرسان فى شمال فرنسا ومنهم جودفرى دى فلهاردوان وذلك فى نوفمبر ١١٩٩ .

لم يكن جودفرى فلهاردوان صاحب هذه المذكرات إذ ذاك كونتا ولا بارونا ولكنه كان من عِلْيَةِالقوم ووجوههم كما كان « مارشال » شمبانيا مما يدرجه فى عداد أصحاب الرأى إذ ذاك .

---

(١٧) راجع كلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى ، فقرة رقم ١ .

وكان أول من حمل الصليب ثيبوت كونت شمبانيا Thibaut de Champagne وتلاه ابن عمه وابن خالته فى الوقت ذاته لويس كونت بلوا وشارترز Louis of Blois and Chartres الذى كان من أثرى أغنياء فرنسا ، ولقد أوقف ثيبوت فى لحظته هذه معظم أملاكه وما أخرجه من مال للصرف على الحرب الصليبية المزمع القيام بها ، حتى قيل إنه لما مات خلف « خمسين الف قطعة ذهبية للصليبيين ولمن تؤول إليه من بعده قيادتهم ورياستهم »[١٨] .

ويورد كل من كلارى وفلهاردوان قوائم بأسماء بعض الذين اشتركوا فى حمل الصليب ، ولهذه الأسماء دلالتها ، ففلهاردوان يورد فى الغالب أسماء كبارهم ، على حين أن كلارى يصرّح فى أكثر من موضع بأنه أورد أسماء « فقرائهم » ومن مجموع هذه الأسماء نستطيع أن نقدّر عدد الذين اشتركوا فى الحملة ، ذلك لأن الأمير أو النبيل أو اللورد أو الوجيه منهم كان يتبعه مابين أربعين وخمسين محاربا يتكفل بإعاشتهم فى حربهم .

على أن قيادة ثيبوت لم تدم طويلا إذ مالبث أن مات قبل أن تخرج الحملة فكان موته فَأْل سوء عليها ، وإن كان الصليبيون قد اختاروا ستة من السفراء لتدبير أمر السفر بحرا ، فآثروا البندقية على ماسواها من مدن إيطاليا التجارية ليكون إبحارهم منها إلى الشرق ، أو كما يقولون الى « الأرض الواقعة وراء البحر » وبلغ الرسل البندقية فى فبراير سنة ١٢٠١م حيث التقوا بدوجها هنرى داندولو Henrico Dandolo الشيخ الهرم الكفيف والألمعىّ الفطن والذى كان يجمع فى بردتَيْه بين السياسى الماكر الداهية والحكيم المقّدر لرجله موضعها والاقتصادى البارع ، والمتفانى فى خدمة مصالح البندقية والذى لم يقعده كبر سنه عن أن يوظّف هذه النواحى كلها فى اشتراكه فى الحملة ، بل كان فى الواقع هو المسيّر لها ، ويقول مؤرخ بيزنطة العالم الروسى فازيليف « كان للحملة الصليبية رئيسان أحدهما إنوسنت الثالث الذى يمثل القيادة الروحية والراغب فى صدق فى أخذ الأرض المقدسة من أيدى المسلمين ، وأما ثانيهما فهو هنرى داندولو الذى يمثل الناحية الدنيوية وفى مقدمتها المصالح التجارية »[١٩] .

* * *

---

(١٨) راجع كلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ترجمة حسن حبشى ، فقرة رقم ٢ .

(١٩) Vasiliev: History of the Byantine Empire, Vol. II, p. 453.

وكانت مفاوضات الاتفاق الأولى بين الطرفين البندقى والصليبى أوردها بالتفصيل فلهاردوان فى هذه المذكرات ، والذى يعنينا منها أن الاتفاق كان اتفاقا تجاريا بحتا من وجهة نظر البندقية التى قررت (مع سفراء الفرنجة الستة) أن تكون جزيرة نيكولا دى ليدو المجاورة للبندقية مركز تجمعات الصليبيين المحاربين ، كما أبدت استعدادها – لأمر فى نفسها – أن تسهم فى الحملة بعدد معين من السفن الحربية قَدَّرته بخمسين سفينة مشحونة بالمقاتلين البنادقة تتولى هى الصرف عليهم دون انْ تُحَمِّل الفرنجة الصليبيين شيئا من ذلك على أن يكون لها نصف مايفتحه المحاربون .

ثم كتبوا للبابا فأيّدهم فى مشروعهم الصليبى ولكنه لم يكن متحمسا لاشتراك البندقية التحمس المفروض ، على أنه كتب إلى رجال الدين فى كل من انجلترا وفرنسا والمانيا ليحملوا أهل كل ناحية على الاشتراك – بصورة أو بأخرى – فى هذه الحملة .

ويقرر المؤرخ سير رانسمان ان الأمر الذى اتفق عليه الصليبيون هو أن يتجهوا إلى مصر لقهرها إذ هى الطريق الى بيت المقدس(٢٠) .

ولما مات ثيبوت – وكان موته سنة ١٢٠١ – شرع الصليبيون يفتشون عن قائد جديد لهم فعقدوا من أجل ذلك مؤتمرا فى سواسون فاقترح فلهاردوان أن توكل القيادة إلى المركيز بونيفاس دى مونتفرات ، الذى وصفه بأنه « من أشجع الرجال وأحقهم بالثقة ومن أعظم الأحياء ممن أجمع الناس على تقديرهم »(٢١) وربما كان أقرب إلى الحق لو أنه قال فى تزكيته إنه كان من بيت له صلات قوية بالحركة الصليبية قبل هذه المرة ، فأبوه قد مات فى فلسطين بارونا هناك منذ زمن ، كما أن أخاه وليم دى مونتفرات كان قد تزوج من « سيبيلا » ملكة بيت المقدس ، وأن ابنها هو الملك الطفل بلدوين الخامس .

وتطول قائمة أفراد أسرته الذين كانوا على صلة بالشرق وبالصليبية .

* * *

على أن الذى لم يذكره « فلهاردوان » هو أن بونيفاس هذا كان ذا صلة طيبة قوية بفيليب دى سوابيا . وكان الصليبيون عامة يعرفون مبلغ الكراهية التى يكنها الملك

---

(٢٠) Runciman: Hist. of the Crusades, Vol. III, p. 113 et note I, d'apres Gesta Innocentei. III.

(٢١) انظر فيما بعد مذكرات فلهاردوان فقرة رقم ٣٩ .

الألمانى فيليب دى سوابيا للبابا إنوسنت الثالث لوقوف الأخير إلى جانب الاسرة التى كانت تتطلع لحكم ألمانيا وهى أسرة اوتو دى برنسويك ، كما كان الجميع يعرفون أن فيليب لايمكن أن تفوته فرصة للانتقام من هذا البابا إنوسنتْ الثالث ، ومن ثم فإنه يعرف أنه إذا قال إن المركيز بونيفاس هو من المقربين إلى فيليب ساور الشك السامعين فى نواياهُ .

لذلك أخفى فلهاردوان عن قَصْدٍ هذه الصلة التى يمكننا على ضوئها أن نقول إن تغيير مسار الحملة الرابعة كان بتدبير أيضا من جانب ألمانيا نكاية فى البابا .

على أن فلهاردوان كان هو وكبار الصليبيين أمثاله من الضالعين مع البندقية ومع المركيز بونيفاس ومع فيليب دى سوابيا ، وكانوا يعدون سواهم من المشاركين بأرواحهم فى الحملة جماعة من السذّج ، والحق أنهم لم يكونوا يزيدون عن ذلك والدليل على هذا أن روبرت كلارى صاحب المذكرات الاخرى فى فتح القسطنطينية يشير إلى أن المركيز دى مونتفرات سأل الكونتات حين جاء إلى مجمعهم عما دفعهم إلى دعوته ، وأبدى أنه لايعرف من الأمر شيئا .

ولم يعلّق كلارى باستنكار هذا التساؤل من جانب المركيز ، وكان عدم تعليقه دليلاً على سذاجة العسكر الصليبى الذى كان وقوداً لهذه الحرب وأمثالها .

لقد كان مافعله كبار الصليبيين فصلاً من رواية أحكم وضْعَ فصولها وترتيبها الكونتات والمركيز ودوج البندقية وفيليب دى سوابيا ، فجازت الخديعة على « فقراء » الجيش الصليبى الذى لم يكن يعرف مايجرى خلف الكواليس والأستار ، وإنما يحكم بما تطالعه عيناه وينطق بما يريد زعماؤه أن ينطق به .

* * *

على أن هناك طائفة كبيرة من المحاربين الصليبيين لم تكن مع المؤيدين لمساهمة البندقية فى الحملة وكان أول هؤلاء جماعات البرجنديين وأهل بروفانس المشاركين فى الجيش ، وساورتهم الشكوك كذلك فى صدق نوايا البندقية التى تدفعها للمشاركة فى الحملة بجهدها الحربى وثُقْلِها المالى ، فاعتزل هؤلاء المتشككون بقية إخوانهم فى السلاح ولكنهّم دبرّوا أمر خروجهم من ميناءٍ آخر غير جزيرة سنت نيكولا فأبحروا من مرسيليا ، وقد ادّى ذلك الى عدم استطاعة الصليبيين الوفاء بالمال المتفق على دفعه للبندقية التى رفضت أن تخرج الحملة إلّا بعد استيفاء المبلغ كاملًا غير منقوص ، وأظهرت منتهى الشدة فى

معاملة من كان عندها من الصليبيين ، وآلت على لسان دوجها ألّا تأذن لهم بالخروج إلّا بعد دفع المال ، وربما كان كلارى أصرح من فلهاردوان فى هذه الناحية .

وكان دوج البندقية بارعا كل البراعة فى تمثيل دورٍ رتّبه فانزعج له الجيش انزعاجاً كبيراً ، حتى إذا بلغ الكرب بالصليبيين غايته ، وظلوا على ذلك بضعة أيام عاد الدوج يكلمهم بلسان عذب غير الذى كلمهم به من قبل ووعدهم بالسفر رغم النقص البيِّن فى القدر من المال الذى اتفقوا عليه معه ، ويحاول فلهاردوان أن يصوّر لنا صاحبه هنرى داندولو بمظهر الحمل الوديع والمسيحى المخلص فيقول واصفا هذه اللحظة : « لقد خفقت قلوب الحاضرين فرنسيين كانوا أو بنادقة بالحنان ، وانهالت الدموع غزيرة من المآقى عطفا على هذا الرجل الصالح ، ذى الهمة البعيدة المرمى ، الذى كان أولى بمن كان فى مثل عمره أن يبقى فلا يخرج للحرب لأنه كان كهلًا مسناً - ولكنه كان رجلًا كبير القلب »

هكذا كانت خديعة داندولو للصليبيين .

وهكذا كانت مؤامرته مع كبارهم .

وهكذا حاول فلهاردوان أن يوجه التاريخ وجهة اتفق عليها هو والدوج وكبار الصليبيين وأصحاب المطامع .

* * *

وعادت البندقية على لسان دوجها فعرضت أن يساهم الصليبيون معها - قبل خروجهم إلى الشرق - فى استردادها زارا ZARA التى كانت تابعة لها ثم آلتْ إلى ملك المجر ، وكان معنى هذا أنه إذا تحقق هذا الطلب للبندقية فبأنها تكون قد نجحت فى أن تبرز وتكون قد استأجرت الصليبيين لمصالحها الذاتية ، ويكون قد تم لها ماأرادت وجعلت منهم كف قطّ .

وقد أدّى هذا الموقف إلى حدوث شرخ فى جدار هيكل اللاتين وترتب على ذلك نزاع داخلى ظهر فى فريق المنشقين الذين أخذوا يتزايدون يوما بعد يوم والذين يكثر فلهاردوان من الاشارة اليهم ويتهمهم بأنهم كانوا يريدون تمزيق وحدة الجيش الصليبى .

على أية حال اتجه الصليبيون الوجهة التى أرادتها البندقية وأبحروا إلى زارا ، وهنا جاءتهم دعوة صريحة من ألكسيوس بن اسحق انجيلوس لمناصرته ضد عمه ألكسيوس الثالث الذى اغتصب العرش من أخيه إسحق ، وكان الشاب الكسيوس هذا قد هرب من سجنه الذى زجّه فيه عمُّه بالقسطنطينية .

لكن كيف تسنّى للشاب الكسيوس بن اسحق أنجيلوس الفرار من سجنه ؟

يذهب المؤرخ البيزنطى نيكتاس خونياتس إلى أن الكسيوس الثالث المغتصب كان قد خرج سنة ١٢٠١ فى حملة ضد أحد قواده الثائرين فاستصحب معه ابن أخيه الذى استطاع أن يدبر أمر هروبه مع جماعة من الكارهين لعمه ، اذ اتفقوا مع سفينة بيزية كانت راسية فى بحر مرمرة على نقله ، وحلقوا شعر رأسه على النمط الأوربى ، كما دثروه بملابس أوربية غربية فأخفى ذلك صورته البيزنطية ولم يعد أحد يعرف فيه ألكسيوس بن اسحق ، ثم أبحرت السفينة ، ومضى الشاب بعدئذ إلى بلاط فيليب دى سوابيا زوج أخته إيرين البيزنطية .

وحينذاك دبر فيليب أمر خروج الكسيوس الشاب لمقابلة الصليبيين فذهب إليهم ألكسيوس وسألهم أن يعاونوه فى إرجاعه إلى عرش القسطنطينية .

من هذا يرجح عندنا أن هذه الدعوة كانت خطة مرسومة ومدروسة ، وكانت إحدى بنود مؤامرة دبّرت تدبيراً لوحظ فيه أن تطابق زمنيا وجود الصليبيين فى زارا بعد فراغهم منها حيث كان عليهم بعد ذلك الاتجاه إلى فلسطين .

على أية حال استجاب الصليبيون أو بمعنى أدق زعماء الفرنجة والبنادقة لهذه الدعوة واتجهوا إلى القسطنطينية .

إن اصابع الاتهام فى تغيير وجهة الحملة تشير إلى البنادقة أولًا وإلى زعماء الحملة الفرنسيين من بعدهم .

على انه منذ قرن وربع قرن من الزمان ، بدأ العالم الفرنسى والمؤرخ الكبير ماس لاترى Mas Latrie توجيه التهم إلى البندقية بأنها هى التى دبّرت تغيير وجهة الحملة الصليبية الرابعة ، وبذلك رماها صراحة بتهمة خيانة المسيحيين ، وبنى ماس[٢٢] لاترى اتهامه هذا بأن البندقية كانت قد عقدت معاهدة تجارية مع السلطان الأيوبى فى مصر لحظة مغادرة الصليبيين البندقية إلى الشرق ، وادعى ماس لاتْرى أن شروط هذه الاتفاقية كان تحويل الحملة إلى بيزنطة وليس الى مصر ، والمعروف عن ماس لاترى انه كان من مدرسة دى شارتر التى لا تعتمد فى كتابة التاريخ الّا على الوثائق وحدها تستنطقها الأحداث لتصل إلى النتائج الصادقة .

واعتمد المؤرخ الفرنسى فى ذلك على المؤرخ القبرصى إرنول الذى كتب هذا الاتهام فى الربع الأول من القرن الثالث عشر دون أن تكون لديه هذه الاتفاقية المزعومة . فقد

---

(٢٢) Mas Latrie (L) Histoire de l'Isle de Chypre, t. I, p. 162 et seq.

عالج هذا الموضوع كثير من الكتاب منذ ذلك القرن وظهر فى العربية[٢٣] منذ حوالى نصف قرن ما يدحض زعم إرنول .

أما الذين يتهمون البندقية بأنها صاحبة اليد العليا فى تحويل مسار الحملة فحجتهم فى ذلك أن البنادقة كانوا ينظرون بعين غير راضية الى تزايد النفوذ الجنوى فى القسطنطينية فى الآونة الأخيرة فأرادوا الانتقام من بيزنطة ، ولقد أخذ بهذا الرأى أيضا المؤرخ المعاصر عالم البيزنطيات الأستاذ ستيفن رنسمان[٢٤] فى كتابه الضخم الموثق عن الحروب الصليبية ، ولقد ظهر بين كبار المؤرخين - فى الربع الأخير من القرن الماضى - من يوجه الاتهام فى تغيير مسار الحملة إلى فيليب دى سوابيا والمركيز دى مونتفرات . ومن هؤلاء العالم الفرنسى والمؤرخ الصليبى الكبير الكونت ريان Riant ، صاحب البحوث العميقة فى هذه الحروب وفى الآثار والحصون الصليبية ببلاد الشام ، فقد نشر بحثين[٢٥] مطولين سنة ١٨٧٥ يبيّن فيهما أن النزاع بين إنوسنت الثالث وبين فيليب دى سوابيا هو السبب الحقيقى ، وأن الملك فيليب دى هوهنشتاوفن هو الذى رسم الخطة وأحكمها ليفسد على البابا حركته التى كان يبغى من ورائها مجداً عظيما بقضائه على مصر وبانتزاعه بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وينتهى الكونت ريان فى هذا البحث إلى أن فيليب استطاع بوسائل شتّى وبدراسة نفسية لبونيفاس دى مونتفرات أن يجعل منه كف قط فى تحقيق هذه الغاية ، وحين يتحدث الكونت ريان عن مثل هذا الموضوع فإنه يتحدث فيه حديث الخبير ، كما أنه يعتمد على الوثائق الأصلية من الرسائل البابوية والملوكية وغيرها ، ويبدو إصرار الكونت على آرائه فى معاودته تأكيد ماذهب إليه فى بحث آخر نشره سنة ١٨٧٨ فى نفس المجلة .

* * *

(٢٣) محمد عبد الله عنان : دراسات فى مصر الاسلامية وانظر فى هذا الموضوع : A. Frolow: Recherches sur la deviation de la IV e croisade vers Constantinople 1955; H Gregoire: The Question of the Diversion of the Fourth Crusade (Byzantion, 1940); J. Folda: The Fourth Crusade, Some Reconsiderations, 1967; C.M. Brand: Byzantium confronts the West, 1180 – 1204 (1968).

(٢٤) S. Runciman: History of the Cusades, Vol. III, p. 113.

(٢٥) نشر العالم الكونت ريان بحثين فى Revue des Questions Historiques احدهما فى المجلد السابع عشر (ص ٣٢١ - ٣٧٤) والثانى فى المجلد الثامن عشر (ص ٥ - ٧٦) فى هذا الموضوع بالذات .

أما اتهام الزعماء الفرنجة بأنهم ضالعون فى هذا التوجيه ، فإن القارىء لأحداث هذه الحرب وهذه الفترة بالذات يتبين له أن هؤلاء الزعماء – وفى مقدمتهم فلهاردوان – كانوا يسعون لمصالح شخصية ، يظهر ذلك فى أن بونيفاس – صديق فيليب دى سوابيا بل وعميله – يظهر فجأة على مسرح الأحداث بعد أن لم يكن أحد يتوقع ظهوره ، كما أن فلهاردوان يزكّيه تزكية عجيبة ويطيل فى الثناء عليه حتى إنه ليقف فى الصليبيين خطيبا يبين لهم ماعليه المركيز من صفات كريمة ويصفهُ بأنه « من أشجع الرجال وأحقهم بالثقة وأنه لمن أعظم الأحياء ممن أجْمَعَ الناس على تقديرهم »[٢٦] .

لقد قال فلهاردوان ذلك وهو يعلم أن فى الصليبيين من هم أحرص من المركيز على الصالح المسيحى بعامة والصليبى بخاصة ، وعلى رأس هؤلاء لويس كونت بلوا ، ولكن يفسّر هذه التزكية ماأصابه فلهاردوان بعد فتح القسطنطينية من كسب شخصى تَمَثَّل فى أن أصبح بعد فتح القسطنطينية « مارشال رومانيا » وأصبح يمتلك أرضا اقطاعية كبيرة فى اليونان يكون له الحكم فيها ، وماكان ذلك ليَتَأتّى له لو أن الحملة وجهت إلى مصر أو إلى فلسطين ، فلو كان قد حدث ذلك لبقى هو وغيره بعد نجاح الحملة مغمورين .

* * *

ومنذ ربع قرن كتب لوبيتز – وهو العالم باقتصاديات العصور الوسطى الغربية – بحثه الذى يتهم فيه صراحة كلاً من البنادقة وبعض كبار الفرنسيين الاقطاعيين بتغيير مسار الحملة ، ثم يضيف لوبيتز إليهم البابا انوسنت فيقول : « إن هؤلاء الثلاثة خططوا للحرب الصليبية الرابعة كحملة ضد الامبراطورية البيزنطية » ، ويؤكد أن هذا التبديل فى المسار لم يكن ابن ساعته .

ولكن هل كان ذلك حقا ؟

وهل يستقيم ذلك مع حنق البابا على الصليبيين حينما بلغته الأخبار بمحاربتهم المسيحيين فى زارا وحنقه عليهم حين رد الدوج المندوب البابوى : الكردينال بطرس دى كابوا الأمالفى وجابهه بأنه لا يقبله فى صفوف الحملة إلّا واعظاً لا مندوبا ؟

ثم هل يمكن أن نتهم البابا باضطلاعه مع البنادقة وكبار الفرنسيين بتوجيه الحملة ضد بيزنطة وهو الذى بعث إلى الصليبيين بعدئذ برسوله بطرس لوتشيديو ينهاهم نهيا صريحا عن مهاجمة أى بلد مسيحى ؟ .

---

(٢٦) انظر فيما بعد المذكرات ، فقرة ٣٩ .

ثم أليس إنوسنت الثالث هذا نفسه هو الذى ردّ بكتاب على الامبراطور ألكسيوس الرابع يطمئنه فيه أنه لن يقبل مايفكر فيه كل من فيليب دى سوابيا وألكسيوس الشاب من مهاجمة القسطنطينية ؟

ثم هل يعقل من ز جل أصدر قرار الحرمان ضد الصليبيين لمهاجمتهم المسيحيين – أيا كان مذهبهم – أن يُتَّهَمَ بأنه دبّر الحرب الصليبية الرابعة لتكون حملة حربية ضد الامبراطورية البيزنطية وليس ضد المسلمين ؟

هذه وأمثالها نقاط تبرز للناظر فى هذه الحرب ، ورغم مرور زمن طويل ورغم معالجتها على مجال كبير منذ أخريات القرن الماضى إلّا أن هذه الاسئلة سوف تبقى حائرة دون أن نهتدى إلى جواب بات لها ، ومن لنا بجهيزة فى هذا المقام لتقطع قول كل خطيب ومتسائل ؟ ومن لنا بمؤرخ جُهَنِىّ يكون عندهُ الخبر اليقين ؟

* * *

ونعود إلى ألكسيوس الشاب الهارب من سجن عمه مغتصب عرش بيزنطة فنقول ان عروضه كانت من الناحية المالية والحربية عروضاً تتحلَّب لها أفواه الفريق الآخر .

ألم يعرض عليهم – كما جاء على لسان رسل فيليب الألمانى – أن يُعيد الامبراطورية البيزنطية إلى حظيرة روما إن هم ردوه إلى عرشه المغتصب ؟ وان يمدّهم بمائتى الف قطعة فضية ؟ وأن يصاحبهم شخصيا – إن شاءوا – فى حملة ضد المسلمين ؟ أو يمدّهم بعشرة آلاف جندى بيزنطى وبخمس مائة فارس تكون نفقتهم عليه طيلة حياته ؟ وأن يقيم هؤلاء الفرسان فى القدس لحمايته والدفاع عنه ؟

إن تقدم رسل فيليب دى سوابيا – نيابة عن مولاهم الامبراطور – بهذه العروض السخية – يكشف القناع عن أن فيليب كان وراء الحملة منذ هذه اللحظة على الأقل ، وهذا ماكرهه منه بعض الصليبيين الذين يصفهم فلهاردوان بالمنشقين ، لكن يبدو أنه لم يكن لهؤلاء المنشقين نفوذ كبير ، فقد قبل البنادقة وبقية أمراء الفرنجة هذه العروض ، فلم يبق أمام هؤلاء المنشقين المستضعفين إلّا أن يفر الكثيرون منهم على سفن تجارية كانت راسية هناك ، بل أن بعضهم أمثال سيمون دى مونتفرات وانجريْد دى بوفيز اتفقوا مع ملك المجر على أن يأذن لهم بعبور أرضه فى أمان للذهاب إلى إيطاليا .

* * *

ويكاتب البابا فاتحو زارا « الملعونون » من قبله يسترضونه ، فيرضى عن الفرنسيين بعد تمنّع ، ويشجب قرار الحرمان عن الفرنسيين أولا ثم عن البنادقة ودوجهم بعدئذ ، وإنْ حذّرهم رسله ونوابه من معاودة سفك دم مسيحى أيا كان هذا المسيحى : بلداً ومذهباً .

منذ هذه اللحظة يظهر فى بؤرة الأحداث بونيفاس دى مونتفرات كقائد عام للحملة يوجهها كيفما شاء ظاهريا وإنْ كان البنادقة هم الذين يحركونه بما يرضيهم ويرضيه ويرضى مولاه فيليب دى سوابيا ، ويرضى فوق ذلك كله كبار اللاتين ، ومن ثم تزحف الحملة على القسطنطينية ، وليس هنا مجال لتفصيل أحداثها فقد كفانا إياها مشاهد العيان لها وهو فلهاردوان ، فأدرجها فى كتابه هذا ، ولكن نكتفى بالاشارة إلى هروب الامبراطور الكسيوس الثالث مع ابنته « أنا » إلى إحدى مدن تراقيا فى بلاد اليونان وإطلاق سراح الامبراطور المخلوع إسحق أنجيلوس ومن ثم أعادة الذين أطلقوه الى عرشه ، وحينذاك جاء وفد من الصليبيين قوامة اثنان من البنادقة ومثلهما من اللاتين أحدهما فلهاردوان ، حيث فاوضوا اسحق فيما كان قد أبرمه معهم ابنهُ الكسيوس الشاب ، فلم يمانع الأب فى الموافقة على كل ماكان من ولده الذى دخل العاصمة فى حراسة قوية مشاركا لأبيه فى الحكم وسنعرفه منذ هذه اللحظة باسم الامبراطور الكسيوس الرابع وهو لقب لم ينعم به طويلا اذ كان تتويجه امبراطوراً مشاركا أول اغسطس ١٢٠٣م .

وعجز الكسيوس الرابع وأبوه عن الوفاء بما تعهدا به للصليبيين ، ولم يمد لهما فيليب هوهنشتاوفن دى سوابيا يد المعونة مع أنه هو الذى أنْفَذَ رسله من قبل تحمل إلى المحاربين الصليبيين هذه الشروط السخية ، فهل كان ذلك غدراً منه بألكسيوس الرابع أخى زوجته ؟

الأرجح عندنا أن فيليب دى سوابيا لم يقصد شيئاً من ذلك إذْ كان هدفه الأكبر الذى كتمه حتى الآن وكتمه معه فلهار دوان هو أن ينزل الضربات القاتلة ببيزنطة انتقاماً منها لأخيه هنرى السادس الذى كان يطمع فى تكوين مملكة تكون القسطنطينية جزءاً منها ، ومن ثم كان تهديده لإمبراطورها ألكسيوس الثالث الذى اشترى السلم بدفع مبلغ كبير من المال لهنرى السادس ، كما فرض على شعبه ضريبة عرفت « بالضريبة الألمانية » ورأى فيليب هوهنشتاوفن أنه بذلك يكون قد حقق انتقامين احدهما من البابا إنوسنت لتطاوله من قبل على بيته وتدخُّله الذى لامبرر له فى الصراع حول العرش الألمانى ، وثانيهما من بيزنطة وموقفها من أخيه .

أدت أحداث التدخل الأجنبى المسّلح فى الدولة الى اضطراب خطير داخل القسطنطينية ، ثم جاوزتها الاضطرابات إلى بقية أنحاء الأمبراطورية وشبت الفتنة الأهلية مسعورة فأطاحت بألكسيوس الرابع إذ غَضِبَ منه الأهالى لخيانته المصلحة الوطنية ، وأجّج حقدهم عليه رجال الدين البيزنطيون ، وكان من مظاهر هذا الغضب الوطنى قيام اليونان بنهب الأحياء التى كان اللاتين يتواجدون فيها منذ زمن بعيد .

ووجد الصليبيون والبنادقة فى ماحدث ذريعة تبرر استعمالهم القوة ، فتظاهروا بأخذ الثأر لالكسيوس الرابع الذى قُتِل وفتحوا القسطنطينية .

ولقد فتحوها هذه المرة لحسابهم الخاص وذلك يوم ١٣ ابريل سنة ١٢٠٤ وأزالوا الأسرة الحاكمة ، وأقاموا لهم دولة عرفت بالمملكة اللاتينية . كان أول حاكم لها هو الامبراطور (بلدوين دى فلاندرز) الذى وزّع التركة البيزنطية – بإيحاء من البنادقة – بعد أن اعتبرها أرضا إقطاعية ، أقطع بعضا منها لكبار الفرنجة أمثال أخيه هنرى وبطرس دى براسيو ولويس دى بلوا وستيفن دى بيرش ، وكانت إقطاعاتهم كلها فى آسيا الصغرى ، أما فى القسم الأوربى من المملكة فأَقْطَع كلا من رينيه دى تريت وهيج دى سنت بول جزءًا من بلاد اليونان .

* * *

باحتلال الفرنجة والبنادقة للقسطنطينية عام ١٢٠٤م بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ هذه البقعة فى العصر الوسيط ، كان طابعها هو ظهور العنصر اللاتينى كقوة فعالة محركة فى كل من آسيا الصغرى والبلقان .

هكذا تم احتلال روما الجديدة ، وجلس الفاتحون على مائدة كانت جُثَّةُ بيزنطة فيها هى طعامهم الشهّى ، وكان صاحب اليد العليا القوية بينهم البندقية ، وكان الفرنجة فيها أضيع من الأيتام على مائدة الدوج .

ورأت البندقية أن مهمة بونيفاس دى مونتفرات قد انتهت ولم يعد له مكان فى هذا الوضع السياسى الجديد ، فاختار المؤتمرون – بإيحاء منها – للعرش الأمبراطورى اللاتينى فى القسطنطينية أميراً دون صاحبهم بونيفاس قوة وشكيمة واستبداداً بالأمر ، ذلك هو بلدوين كونت فلاندرز ، وتم ذلك فى مستهل مايو ١٢٠٤م حيث تَوَّجُوهُ فى كنيسة سنت صوفيا كأول إمبراطور للمملكة اللاتينية الجديدة فى القسطنطينية .

وكان التتويج مزيجا من المراسيم اللاتينية والبيزنطية فألبسوه الحذاء القرمزى ، ووضعوا النسور المحلاة بالجواهر على عباءته الامبراطورية ، وأُمْضِىَ مرسوم التتويج وملاحقه بالحبر

الأحمر ، وأصبح للملك اللاتينى بلدوين وحده - حسب اتفاقية سابقة فى مارس من تلك السنة - القصران الامبراطوريان ورُبع القسطنطينية .

أما مابقى بعد ذلك فقسم بين الصليبيين والبنادقة الذين قطعوا جميعا يمين الولاء للامبراطور وإنْ لم يقطعه له الدوج هنرى داندولو ، وكان ذلك يحمل معنى معينا لايخفى على أحد .

والواقع أنَّ الامبراطور بلدوين لم يكن له من رسوم منصبه وصلاحياته سوى الناحية المظهرية فقط ، اذ كَفُّوا يَدَه عن توزيع الاقطاعيات التى جازوت الخمسمائة ، فكان أشْبَه بسكرتير للمملكة او كاتب محفوظات تتجمع القرارات كلها عنده دون ان يكونَ له من الأمر شىء .

ومع تفاهة وضع الامبراطور - أيًا كان هذا الامبراطور - فى هذا التنظيم الجديد الاّ أنّ ذلك لم يمنع بونيفاس دى مونتفرات من أن يحسد الامبراطور بلدوين دى فلاندرز ، فقد كان يظن ويطمع ان يسوق له البنادقة واللاتين التاج الامبراطورى ، ومن ثَمَّ نشب صراع مكتوم مالبث ان ظهر للعيان حين أَلَحَّ بونيفاس أن تكون سالونيكا من نصيبه ، هادفا من وراء ذلك أن يجد سنداً له من أخى زوجته ملك المجر إنْ تأزمت الأمور ، فلما أنكر بلدوين على بونيفاس طلبه عمد الأخير إلى اثارة اغريق ادريانوبوليس وحمله على المطالبة بان يكون تاج الامبراطورية لأحد ولدى زوجته مرجريت المجرية من زوجها السابق الامبراطور اسحق البيزنطى ، فكان هذا إيذاناً بتفرّق الكلمة واشعال حرب داخلية تداركها دوج البندقية والبارونات بأن دعوا بونيفاس وبلدوين إلى سياسة ضبط النفس ووضع الامر فى أيديهم للتحكيم ، فقضى مجلسهم إذ ذاك بمنح بونيفاس ماأراده وهو ولاية سالونيكا ، وقيل إن البنادقة وافقوا على ذلك حين وعدهم بونيفاس أن يبيعهم كريت التى كانت موضع نزاع بينهم وبين الجنويّة .

ثم كان التقسيم الثانى للامبراطورية البيزنطية حسب اتفاقية اكتوبر ١٢٠٤ التى يمكن أن يقال إنها اقامت الاقطاع الأوربى داخل الامبراطورية كنظام معترف به ، أصبح فيه اليونان مواطنين من الدرجة الثانية بل فى منزلة الرقيق ، وهو أمر لم يكن يخطر لهم أبدا على بال ، ومالبث الفلاحون البيزنطيون أن تحوّلوا فى ظل الادارة اللاتينية الجديدة إلى متمردين عليها .

ومن جهة أخرى نجد أن البنادقة اعتبروا أنفسهم ملاكاً للبلاد التى دخلوها عنوة ، فراحوا يطبقون الأحكام السارية فى بلادهم بصورة واضحة ، يتمثل هذا أن حاكمهم

الجديد فى الامبراطورية اللاتينية الجديد مارينو زينو الذى اصبح له الأمر فى الشرق بعد موت هنرى داندولو فى مايو ١٢٠٥ لَقَّبَ نفسه بلقب بودستا «Podesta» ، وأحاط نفسه بما يحيط به دوج البندقية نفسه فى البندقية من مجلس ومستشارين ، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوما يحرّم فيه على البنادقة أن يبيعوا شيئا من أملاكهم إلاّ لبندقى ، وهو أمر ازعج أُولِي الأمر فى البندقية ذاتها مخافة ان يستبد زينو بالأمر فيستقل عنها : الأمر الذى انكره زينو على نفسه وأيَّدَ إنكاره فى خطاب بعث به إلى رينيه ابن هنرى دوندولو فى البندقية ، وقد أدى ذلك الى أن تجاهد البندقية فى تأكيد سلطانها وأخذ اليمين على ولاتها فى اليونان بالطاعة التامة لها دون غيرها ، ولقد أورد المؤرخ وولف Wolff فى البحث الذى كتبه فى المجموعة التاريخية التى نشرت منذ أقل من ثلث قرن ورفعت تقديرا لذكر المؤرخ هنرى جريجوار ، أقول إنَّ وولف اورد وثيقة تتضمن صورة اليمين المقطوعة .

أما من الناحية العقائدية فكان لابد أن يرافق النظام الجديد إحْلالُ الكنيسة الرومانية محّل الشرقية ، وقد سارع إنوسنت الثالث فى سنة ١٢٠٥ فأناط إلى بطرك القسطنطينية اللاتينى الجديد (وهو بندقى) مهمة مسح الملك بالزيت ، وكانت هذه السياسة من إنوسنت الثالث اعترافاً صريحا وجديدا بأن بطركية القسطنطينية فى العهد اللاتينى تلى روما ، وعدّها خامس بطركية مسيحية .

ولقد عمد الفرنجة إلى الضغط على رجال الكهنوت البيزنطى والأبرشيات البيزنطية ، ولكنهم اصطدموا بالبنادقة الذين أرادوا ان يجعلوا الوظائف الكهنوتية بندقية فى طابعها وأن يحتكروها لأنفسهم احتكارهم للتجارة ، وقد أدّى ذلك إلى نزاع كان البنادقة أحد طرفيه ، وكان اللاتين وبابا روما طرفه الثانى ، وغَنىٌّ عن البيان أن مثل هذا النزاع فى دولة جديدة لم يكن يبشر أبداً بإمكانية استمرارها فى الوجود أو على الأقل ببقائها قوية ، ولقد أفاض فى وصف هذه الأجواء الجديدة التى لم تعرفها بيزنطة قبل الاحتلال اللاتينى الأستاذ المؤرخ وولف فى بحثه عن « السياسة فى بطركية القسطنطينية اللاتينية » الذى صدر سنة ١٩٥١ .

ولقد قضت اتفاقية مارس ١٢٠٤ بين البنادقة والفرنجة أن توزع أملاك الكنائس البيزنطية بين المنتصرين ، واعتبرتها مثل بقية أراضى الامبراطورية السابقة ، وبعد عام من هذه الاتفاقية اتفق الامبراطور والبارونات على تعويض الكنائس عن أملاكها المفقودة بقدر واحد الى خمسة عشر جزءاً من الاملاك الواقعة خارج أسوار القسطنطينية ، وتكونت لجنة قسمت الاملاك كلها الى خمسة عشر قسما ، يضاف الى ذلك انّه تقرر

أن تستمر المؤسسات العلمانية اللاتينية فى دفع الاعشار التى اعتادت دفع مثلها فى الغرب ، ولكن استثنى من ذلك البنادقة .

ولقد واجهت المملكة اللاتينية خطرا كان للمملكة ذاتها يد فى زيادته ألا وهو خطر الدولة البلغارية الولاشية التى دفعتها سياسة اللاتين ازاءها الى الارتماء فى أحضان اليونانيين ، هذا فى الوقت الذى لم يكن فيه لدى اللاتين قوة بشرية كافية لمواجهة التكتلات العِرْقِّية والسياسية لاسيما وأنهم واجهوا أيضا الكومان الذين طبعوا على القتال والحرب ، وأَلِفوا صعوبة الحياة وتقبلوها فى يسر بل وفى مرح أحياناً ، ويتضح لنا من مطالعة مذكرات فلهاردوان التى نُقَدّم ترجمتها العربية اليوم هنا ان الولاشيين والبلغار والكومان كانوا المصدر الأول لمتاعب الفرنجة فى أخريات مراحل حروبهم الأولى واستقرارهم فى بلاد بيزنطة ، وكان اعداء اللاتين الحربيون يعرفون من الأحراج والغابات والطرق الجبلية الوعرة مايساعدهم على إنزال الضربات الفادحة بالفرنجة على وجه الخصوص .

ويستدل من خطاب كتبه جوهانيتزا ملك البلغار والولاشيين إلى البابا إنوسنت الثالث يشكو إليه فيه من الفرنجة مر الشكوى ، ويسأله أن يكاتبهم لينهاهم عن التعرض لمملكته وبلاده وإلا نالهم على يده مالا يلومون فيه إلا أنفسهم ، فلم يزدجروا ولم يرعووا عن غيهم ، وخدعتهم نفوسهم فدلّوا على حماقة إذ عملوا على إفساد مابينهم وبين جيرانهم الولاشيين .

لقد راهن الفرنجة على الحصان الخاسر حين رفضوا يد الموادعة التى مدَّها لهم الولاشيون ، ومالوا الى الأرمن الذين كانوا وبالاً عليهم ، ولقد غَرَّرَ بالفرنجة حتى تنكبوا عن الطريق السوى ماحصلوا عليه فى بداية الامر من انتصارات لابد أن تحدث فى مثل هذه الظروف ، لكن مالبث يمُنْ الطالع أن فارقهم وقلبت لهم الايام ظهرا المِجَن بعد عام واحد من تلك الانتصارات ، وأقلقهم الكومان بغاراتهم يشنونها عليهم ثم استدرجوا هم والولاشيون الامبراطور بلدوين ولويس دى بلوا فأسروا الأول وقتلوا الثانى ، فعهد اللاتين بالوصاية على العرش الى هنرى أخى بلدوين .

ثم كان موت بلدوين – أو قَتْله فى الأسر – ضربةً اليمةً لهيبة القوة اللاتينية فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، وبثَّ ذلك الذعْرَ فى نفوس اللاتين ففرّ الكثيرون منهم وغادروا البلاد وانكفأوا إلى أوطانهم ، كما يقرر ذلك فلهاردوان وهو شاهد عيان لهذه الأحداث ، كما أن جوهانيزا – ملك ولاشيا – الذى كانت علاقاته بالبابا إنوسنت الثالث طيبة – رفض طلب البابا فى إطلاق سراح الامبراطور اللاتينى .

كان اللاتين قصار النظر لم ينظروا الى ماهو أبعد من أرنبة أنوفهم ، وفاتهم ان هذه العناصر يمكن أن تكون مصدر قوة للبيزنطيين المقهورين الذين وان غلبوا على أمرهم إلاّ أنهم لم يتخلوا عن نزعتهم الوطنية ، وقد تجلى ذلك فى أنهم ماكادوا يُهْزَمون وتقع عاصمتهم فى ايدى الصليبيين حتى ظهر بينهم رجال حملوا راية الجهاد القومى ضد الدخلاء الاوربيين فاستولى أحدهم من بيت كومنين فى ابريل ١٢٠٤ على طرابيزون ، متخذا إياها قاعدة لانطلاق الوطنيين البيزنطيين غربا على طول ساحل البحر الأسود ، واستولوا على بعض المدن لاسيما « سينوب » التى كانت ملكا لبلدوين حسب اتفاقية التقيم اللاتينية الفرنسية . كذلك قام بالجهاد تيودور لاسكاريس الذى يرسم له فلهاردوان صورة قاتمة وهى صورة ماكان لنا أن نتوقع غيرها من رجل محتل ازاء رجل مدافع عن بلاده وأرض أبائه وأجداده ، بل ان البيزنطيين أرادوا تتويجه امبراطورا عليهم فأبى ذلك ، ورأى أن مكانه هو ساحة القتال فمضى إلى نيقية ، واستودع أهْلَها كلاًّ من زوجته « أنّا » وبناته الثلاث ثم نصب معسكره فى بروسة وأقام علاقات طيبة مع السلاجقة أمْلَتْها عليه ظروفه التى يمر بها ، فلما كانت سنة ١٢٠٨ ، عَيَّنَ بطركاً يونانيا أرثوذكسيا خلع عليه لقب « باسليوس » الامبراطورى واتخذ لاسكاريس من نيقية عاصمة لامبراطوريته وان كانت امبراطورية صغيرة المساحة جدا .

* * *

أما الشخصية الثالثة البيزنطية فكانت ميخائيل دوكاس أنجيلوس كومنين الذى شجب علاقاته مع بونيفاس دى مونتفرات فى ابيروس من بلاد اليونان وتزوج بابنة حاكمها ، وكانت هذه الحركات إرهاصاً لحركة التحرير الكبرى التى آتت أُكُلَها بعد خمسين عاماً من الاحتلال اللاتينى الثقيل للبلاد .

لم يكن الطريق أمام االلاتين منذ البداية مفروشا بالورود فقد صادفوا – كما رأينا – مقاومة شديدة من الأهالى البيزنطيين ، وحرباً عنيفة من البلغاريين والولاشيين والكومان . ولعل نهاية الامبراطور هنرى كانت مؤشر سوء لهذه المملكة التى وَجدت فى الوصىّ هنرى اخى بلدوين مايشد من عزمها .

ولقد تزوج هنرى من Agnes ابنة بونيفاس دى مونتفرات ، وتلا ذلك عقد مجلس بين العاهلين اللاتينيين لتصفية ماقد يكون بين الجانبين من منازعات ، ونجح هذا

الاجتماع حيث تقرر أن تكون سالونيكا « إقطاعا » لبونيفاس الذى اعلن « تبعيته » لهنرى ، فهدأت الاضطرابات بين الدخلاء وزاد من هدوئها موت جوهانيتزا مصدوراً .

وكان موت ملك ولاشيا مدعاة لاضطرابات داخلية بين المتنازعين على العرش خصوصا لصغر سن جون آزن بن جوهانيزا الذى فر الى روسيا ، وقد استغل هنرى هذا النزاع فحالف أحد القائمين به وزوجه من ابنةٍ له غير شرعية ، كما تدخّل هنرى إلى جانب داود كومنين ضد تيودور لاسكاريس ، ومات فى هذه الاثناء بونيفاس الذى أثار موته مشكلة وراثة سالونيكا التى كانت من حق ولده « ديمتريوس » وإن نازعه آخرون تزعّمهم الوصىّ « بياندريت » الذى رآى ان يسوق حكم سالونيكا الى المركيز وليم الرابع دى مونتفرات ابن بونيفاس من زوجةٍ سابقة له وكان اذ ذاك فى ايطاليا ولكنه كان عازفاً عن ذلك ، « قانعا بزوج من الثيران ومحراث فى مونتفرات ، مؤثرا ذلك على تاج امبراطور فى الخارج » ، فأضعف ذلك جدا من عزيمة الحزب المؤيد له المعارض لهنرى الذى دخل البلاد وتوج ديمتريوس الطفل ملكاً وعفى عن الوصى واعاده للوصاية ، ولكن ذلك لم يطفىء كراهية الكارهين لهنرى الذى خلع ولاية « اخايا » اليونانية أو « أكايا » ومنصب « السنكالية » على ابن اخى فلهاردوان .

وانصرف هنرى لمنازلة اليونان الثائرين وظهر على قاداتهم فى مستهل ١٢١٢ ، ثم جَندَّ أسراه الاغريق وصفّى مسألة جون ازمين هادىء النفس قرير العين ، ونجح الى حد كبير فى استمالة البيزنطيين إليه اذ ولاهم بعض المناصب العليا ، كما انه وقف إلى جانبهم ضد محاولات الكاردينال بلاجيوس فى اغلاق الكنائس الشرقية بالقسطنطينية ثم مات فى يونيو ١٢١٦ ليجلس على العرش بعد عامٍ زوج اخته بطرس دى كورتيناى الذى توّجه البابا هونوريوس الثالث فى كنيسة روما ، وهنا اقطع المركيز وليم دى مونتفرات سالونيكا ، لكن لم يقدر لدى كوتيناى العودة إذ وقع فى أسر تيودور البيزنطى صاحب ابيروس وهو فى طريق عودته من روما ومات فى الأسر .

ومرت المملكة اللاتينية فى الشرق بأزمات عصيبة انتهت بان تقلصت حدودها التى كانت عليها سنة ١٢٠٤ حتى اقتصرت على القسطنطينية وحدها ، ثم أصبحت مطمعا للطعامين من القوى الحربية والعِرْقية المجاورة لها ، هذا بالاضافة إلى مأأصابها من فقر مالى فرض عليها أن تَمُدّ يدها للاستدانة من فرنسا التى كان على عرشها اذ ذاك لويس

التاسع سنة ١٢٤٩ المعروف بتعصبه الصليبى حتى ادرجته الكنيسة الرومانية فى عداد القديسين . وقد انتهى الأمر أخيرا باسترداد اليونان لبلادهم وطردهم اللاتين منها لتعود البلاد لأصحابها الشرعيين .

* * *

حسن حبشى

الحملة الصليبية الرابعة
والاستيلاء على القسطنطينية

(١)
الدعوة للحرب الصليبية

١ – لتعلم أنه بعد ألف ومائة وثمان[١] وتسعين سنة من مولد سيدنا عيسى المسيح ، وفى زمن انوسنت[٢] بابا روما وفيليب ملك[٣] فرنسا وريتشارد ملك انجلترا ظهر فى فرنسا رجل تقىّ صالح اسمه فولك[٤] دى نيى الذى كان من قرية « نى » الصغيرة الواقعة بين باريس ولاجنى سيرمارن ، وكان هو واعِظَها وقسيسها .

وقد شرع هذا المدعو فولك فى الدعوة لاعلاء كلمة الرب فى كافة أرجاء جزيرة[٥] فرنسا وفيما حولها من الولايات الأخرى .

٢ – ويجب أن تعلم أن قد ظهر على يدى هذا الرجل الصالح كثير من الأمور الباهرة ، وذاعت شهرته حتى بلغت مسامع انوسنت بابا روما ، الذى بعث بكتاب الى

---

(١) فى نسخة مز « سبع » لكن الصواب هو ماأثبتناه ، راجع المقدمة العربية لهذه الترجمة .

(٢) هو البابا انوسنت الثالث الذى اعتلى كرسى البابوية فى روما سنة ١١٩٨م (٥٩٤هـ) ، وكان كثير التدخل فى شئون الممالك والدول الأوربية مماجره الى منازعات حفل بها تاريخ العصر ، ولم يكن بينه وبين فيليب دى سوابيا دى هوهنشتاوفن امبراطور المانيا الأ كل ماأساء العلاقات بين هاتين القوتين القويتين الكبيرتين حينذاك ، مما حمل بعض المؤرخين على القول بأن تحويل وجهة الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية – وهى البلد المسيحى فى عصر الحروب الصليبية – بدلا من مصر والشام كان بتدبير من فيليب نكاية فى انوسنت ، ويستطيع القارىء لهذه المذكرات التى نقدمها فى ثوبها العربى أن يتبين فى جلاء مايكاد يرجح هذا الرأى رغم محاولة فلهاردوان اخفاءه .

(٣) هو فيليب اغسطس ملك فرنسا (١١٨٠ – ١٢٢٣م) ابن لويس السابع . وأما ملك انجلترا فهو ريتشارد المعروف بقلب الاسد ، وكان الملكان فى حرب مستمرة ضد بعضهما البعض وذلك منذ أن عاد ريتشارد من اسره سنة ١١٩٤ .

(٤) كان فولك دى نى قسيسا وواعظا وقد عهد اليه البابا انوسنت فى نوفمبر ١١٩٨ بالدعوة للحرب الصليبية بين الشعوب الاوربية ، وقد بدأ هذا الدعوة فى النواحى المحيطة بباريس أولا ، وقد بالغ الناس فى مآثره ونسبوا اليه معجزات كانت من وهم العامة وتدبيج اصحاب الأغراض ، انظر فى ذلك : Gutsch: Fulk of Neuilly, a Twelfth Century Preacher (N.Y., 1928) وقد مات هذا الواعظ الداعية سنة ١٢٠٢م ، وانظر ايضا عنه :

E. H. Mc Neal: Fulk of Neuilly and the Tournament of Ecry. (Speculum 1953),

(٥) هى المعروفة باسم L'isle de France ويقصد بها ذلك الاقليم الواقع فى القسم الأوسط من شمال فرنسا الحالية وكان اذ ذاك مركز املاك التاج الفرنسى ، وفى وسطها تقع باريس العصور الوسطى ، انظر فى تطورها المقدمة التى كتبناها لكتاب جوانفيل : القديس لويس التاسع (مطبعة دار المعارف) .

هذا الرجل المستقيم وهو فى فرنسا ، آمرا اياه ان ينادى بين الناس باسمه ويدعوهم لحرب صليبية .

ثم بعث البابا - بعد قليل - أحد كرادلته وهو الأب المونسنيور بطرس[٦] دى كابوا الذى حمل هو ذاته الصليب مُبَشّراً بالنيابة عن البابا بالغفران والصفح كما ساشرحه حالا ، ألَا وهو :

« إنّ جميع الذين سيحملون الصليب ، ويظلون مدى سنة فى خدمة الرب فى الجيش ، ستُجَبُّ كل خطاياهم التى اقترفوها واعترفوا بها » .

ولما كان هذا الغفران عظيما ، فقد تحركت قلوب الناس ، وبادر الكثيرون منهم لحمل الصليب بسبب ضخامة الثواب ، وجلال الصفح .

(٢)
اسماء بعض من خرجوا للحرب

٣ - بعد عام[٧] من دعوة هذا الرجل الصالح فولك عقد اجتماع بقلعة « إكرى » فى شمبانيا ، وقضت رحمة الله بهذه المناسبة ان يشترك فى حمل الصليب « ثيبوت »[٨] كونت شمبانيا وبرى ، و « لويس »[٩] كونت بلوا وشارترز ، وأمثالهما ، وكان ذلك فى مستهل صيام البشارة .

---

(٦) كان بطرس دى كابوا من أهل امالفى وليس من أهل كابوا ، وتدخّل فيما بعد فى الشرق المسيحى فى النزاع القائم بين بوهيمند صاحب انطاكية وليو الارمنى سنة ١٢٠٦م (= ٦٠٣هـ) .

(٧) وكان ذلك فى نوفمبر ١١٩٩ (= محرم ٥٩٦هـ) ، وكانت هذه هى البذرة الأولى فى الانطلاق لتكوين الحملة الصليبية .

(٨) هو ثيبوت الثالث بن هنرى الأول كونت شمبانيا من ١١٩٧ حتى ١٢٠١م وكان من اثرى اثرياء شمال فرنسا الاقطاعيين ، صادق التحمس فى تدينه وميله للحروب الصليبية ، ولقد كان شريف النبعة من اسرة ارتبط تاريخها بالحروب الصليبية ، فأخوه هنرى اشترك فى الحملة الثالثة واصبح حاكما لبيت المقدس حتى مات سنة ١١٩٧ ، انظر فى تاريخ هذه الاسرة :

M. H. d'Arbois de Jubainville: Histoire des ducs et de Contes de champ agne

وراجع ايضا عن دوره فى تاريخ المنطقة الاسلامية : ابن شداد فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (الشرقيين) ص ٣٣٧ ، وكذلك Hill: History of Cyprus, Vol. II, pp. 36-38.

(٩) حمل لويس كونت دى بلوا وشارتر الصليب لأول مرة فى نوفمبر ١١٩٩ فى المؤتمر الذى عقد من أجل ذلك فى قلعة « اكرى » من املاك ثيبوت كونت شمبانيا ، واقتدى به فى حمل الصليب اثنان من كبار ابناء عمومته وأتباعهما هما جوفرى وستيفن دى بيرش اللذان سترد اعمالهما - من وجهة النظر الصليبية - فى هذه المذكرات ، ويلاحظ ان اثنين من اعضاء السفارة الستة الذين ذهبوا الى البندقية للاتفاق معها على نقل الصليبيين كانا من رجاله (انظر فيما بعد الفقرة ١٢ من هذه المذكرات) . وكان لويس دى بلوا من أكبر الاسرات الاقطاعية فى شمال فرنسا ، كما انه ابن عم =

ولتعلم أنّ كونت ثيبوت كان اذ ذاك فى ريعان شبابه ، لايتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، وكان « لويس » لايعدو السابعة والعشرين .. وكان هذان الكونتان من أبناء عمومة وخؤولة ملكى فرنسا وانجلترا .

٤ – وحمل الصليب مع هذين الكونتين اثنان من أكبر كونتات فرنسا وأقواهم هما « سيمون دى مونتفرات »[١٠] و « رينو دى مونت ميريل » ، وكانا كذلك نبيلين من أرفع النبلاء .

وتجاوبت كل نواحى البلاد بخبر الحملة حين حمل الصليب هذان الرجلان وأمثالهما من ذوى الصيت الذائع ومن أصحاب المجد الأثيل .

٥ – وحمل الصليب فى ارض « ثيبوت » كونت شمبانيا كل من :

جارنييه اسقف تروى
وجوتييه كونت بريين
وجوفرى دى جوانفيل صنجال شمبانيا واخوه روبرت ، وكذلك وولتر دى فينورى
وولتر دى مونت بليارد
واستاش دى كونفلان واخوه جى دى بلسييه
وهنرى دارزيلير
وأوجيه دى سانت شيرون
وفيلين نوى
وجوفرى[١١] فلهاردوان مارشال شمبانيا ، وابن اخيه جوفرى
ووليم دى نييّ
وولتر دى فوليجنى

= وابن خالة ثيبوت كونت شمبانيا ، ومعنى ذلك انه تربطهما صلة قرابة بكل من فيليب اوجستوس وريتشارد قلب الأسد ، فجدتهما – من ناحية الام – هى « اليانورة » الاكويتانية .

(١٠) كان سيمون دى مونتفرات Simon de Montferrat من نبلاء فرنسا ، وقد ساهم فيما بعد فى الحملات والغزوات اللاتينية فى اليونان بعد قيام المملكة اللاتينية التى هى جزء من هذه المذكرات ، ويلاحظ انه كان قلما يستعمل لقب « كنت » دى مونتفرات ، وقد قاد حملة صليبية ضد حركة الألبيجنسيين فى فرنسا سنة ١٢١٢م الذين تصفهم مراجع العصر بالهراطقة ونطلق عليهم Routiers وهو لقب خاص بهم . وقد ساعدت سيمون فى حروبه هذه زوجته أليس Alice دى مونيمورنس اذ جندت على حسابها كثيرا من المقاتلين ، ممامكنه من استرداد كل المنطقة الممتدة مابين الرون وتولوز ، وكانت اليس شديدة التحمس لمحاربة النصارى من غير الكاثوليك .

(١١) هو صاحب هذه المذكرات Jodefroi de Villehardouin ، وكان لايزال اذ ذاك مارشال شمبانيا .

ومناسس الجزرى
وماكِيرْ دى سانت مياهولد
وميللز دى بريانت
وجى دى شاف ، وابن اخيه كليربو
ورينو دى فوانو
وكثيرون غيرهم من أهل الاستقامة ممن لايتضمن هذا الكتاب أسماءهم .

* * *

٦ – وخرج مع كونت لويس من حملة الصليب كل من :
جوفيه دى شاتل ، وابنه هيرفيه
وجون دى فيرسان
واوليفر دى روشفورت
وهنرى دى مونتريل
وبابين دى اورليانز
وبطرس دى براشيو ، واخوه هيج
ووليم دى سان
وجون دى فريز
وولتر دى جوانفيل
وهيج دى كورمراى ، وأخوه جوفرى
وهرفيه دى بوفوار
وروبرت دى فروفيل واخوه بطرس
واورى الجزرى
وروبرت الكارتييه
وكثيرون غيرهم ممن لايتضمن هذا الكتاب أسماءهم

* * *

٧ – اما فى جزيرة فرنسا فقد حمل الصليب كل من :
نيفيلون اسقف سواسون ، وبصحبته كل من : ماتيودى مونتمورانسى ، وابن اخيه

جى القشتالى ، وشاتلان من أهل كوسى ، وابن عمه روبرت دى رونسوى ، وفيرى دى ايمر ، وأخوه جون .

وكذلك :

جوتييه سنت دنيس وأخوه هنرى

ووليم دى أونوى

وروبرت دى موفوازان

ودرو دى كريسونساك

وبرنارد دى موريل

وانجراند دى بوفيز ، وأخوه روبرت

وكثيرون غيرهم من الاتقياء الذين سكت هذا الكتاب عن ذكر أسمائهم .

* * *

٨ — وفى مستهل عيد الصوم الكبير التالى ، وفى اليوم الذى يعفّر الناس فيه أنفسهم برماد الموتى حمل الصليب فى مدينة بروجس كل من :

بلدوين كونت فلاندرز وهينولت ، وزوجته الكونتس ماريا أخت ثيبوت كونت شمبانيا .

واقتدى بهما كل من أخيه هنرى ، وابن عمه تييرى بن فيليب كونت فلاندرز .

ووليم محامى ثيبوت ، واخوه كونوت

وجون دى نىّ القشتالى من أهل بروجس

وريجنالد دى تريت وابنه ريجنالد

وماثيو دى والنكورت

وجيمس دى افيين

وبلدوين دى بوفوار

وهيج دى بوميتس

وجيرارد دى مانسيكورت

وأودّو دى هام

ووليم دى جوميجينيز

ودرو دى بورين

وروجر دى مارك
واستاش دى سوبرويك
وفرانسيس دى كويلمن
وولتر دى بوسى
ورينو دى مونس
وولتر دى تومب
وبرنارد دى سوميبرجين
كما حمل الصليب معهم زمرة كبيرة جدا من الفضلاء ممن يضيق عن اسمائهم هذا الكتاب .

* * *

٩ – ثم حمل الصليب بعد قليل كونت هيج دى سنت بول ، ومعه ابن اخيه بطرس دى امبين ، ونيكولا دى مالّى ، وانسورى كايو .
وجى دى هودان
واستاش دى كانتلو
وولتر دى نى ، واخوه بطرس
وكثيرون غيرهم ممن لأعرف اسماءهم .

* * *

١٠ – وحمل الصليب بعد ذلك مباشرة جوفرى دى بيرش واخوه ستيفن
وروتر دى مونت فورت
وايف دى لاجيل
وايمرى دى فيللدوا
وجوفرى دى بومنت
وكثيرون غيرهم ممن لأعرف اسماءهم .

(٣)

رسل الصليبيين الستة الى البندقية

١١ – عقد البارونات بعد ذلك مجمعا فى سواسون[١٢] ليقرروا متى يكون شروعهم فى الخروج ، ويحددوا الجهة التى يكون منها رحيلهم . ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم على مااجتمعوا من اجله ، إذ بدى لهم ان من حملوا الصليب قلة لايُعتدُّ بها ، ومن ثم فانهم اجتمعوا مرة أخرى – قبل شهرين من نهاية هذه السنة – وعقدوا مؤتمرا فى كومبين[١٣] حضره جميع من حملوا الصليب من الكونتات والبارونات . وتعددت الآراء التى طرحت للبحث والمناقشة وخالف بعضها بعضا ، إلا انهم اتفقوا فى النهاية على ان ينفذوا[١٤] رسلا من لدنهم يكونون احسن من عندهم ويزودوهم بكل الصلاحيات كمالو كانوا هم البارونات[١٥] أنفسهم لتقرير المسائل التى تحتاج الى رأى باتّ .

١٢ – اما عن هؤلاء الرسل فقد وقع اختيار ثيبوت كونت شمبانيا وبرى على اثنين ، واختار بلدوين كونت فلاندرز وهينولت اثنين ، واختار لويس كونت بلوا وشارتر اثنين .

اما رسولا ثيبوت فكانا جوفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا ، وميلز دى برابانت .

وأما رسولا كونت بلدوين فكانا كونون دى بيثون ، وألارد ماكبرو .

واما رسولا كونت لويْس فكانا جون دى فريز وولتر دى جودونفيل .

---

(١٢) سواسون مدينة فرنسية وهى مركز اسقفية كبرى .

(١٣) هذه مدينة فرنسية أخرى ، وفى هذا الاجتماع اختار كل من ثيبوت ولويس دى بلوا وبلدوين بارونين من باروناته ليؤلف ستتهم السفارة التى تنوب فى تدبير امر نقل المحاربين الصليبيين .

(١٤) يلاحظ هنا ان فلهاردوان يشير الى اختيار السفراء الستة والاتفاق على ارسالهم ، ولكنه لايبين الوجهة التى أراد كبار الصليبيين ان يتجه اليها هؤلاء السفراء : هل كانت البندقية دون غيرها ؟ أم البندقية وبقية المدن التجارية الايطالية مثل جنوة وبيزا وغيرهما ؟ وهذا تعمية من المؤلف ليبسى القارىء فى غمار الأحداث موقف السفراء المشبوه فى التوجه الى البندقية وحدها ولقد كان عدم تحديد المكان الذى يتجه اليه المبعوثون داعيا البعض للقول بأن البابا انوسنت هو الذى اقترح ان يذهبوا الى البندقية دون سواها ، وهو قول ينقضه شك قديم وريبة فى نفس البابا من البندقية مما يكاد يصل بها عنده الى حد اتهامها بالاتصال سرا بالمسلمين لمصالحها التجارية ، وسيفصح فلهاردوان – بعد قليل فى هذه المذكرات – ان اختيار البندقية كان من جانبه هو وزملائه الخمسة ، راجع فيما بعد فقرة ١٤ ممايؤكد ذلك ، ونستفيد من مطالعة كتاب : Longoan: Recherches sur la recit de Geoffroi de Villehardouin. ان فلهاردوان كان العامل الأول فى هذا التوجيه .

(١٥)الأصح أن يقال الكونتات ، وسيعود فلهاردوان الى استعمال اللفظ الصحيح حين يتكلم عن لويس دى بلوا وبلدوين كونت فلاندرز .

١٣ – ومنح هؤلاء الرسل الستة حق إبرام مايرون إبرامه من الامور الملقاة بين ايديهم لايراجَعون فيما ابرموا ولايسألون عما يفعلون واعطاهم جميع البارونات وثائق التصديق على ذلك ممهورة باختامهم حتى يستطيعوا تنفيذ اى اتفاقات لو اجراءات تعرض لهم فى جميع الموانى وحيثما ذهبوا .

١٤ – وهكذا سافر الرسل الستة – كما انبأتك – وراحوا يتشاورون الامر فيما بينهم مايصنعون وانتهوا الى أنهم يتوقعون أن يجدوا فى البندقية عددا من السفن أعظم بكثير مما قد يجدونه فى اى ميناء آخر . ومن ثم فانهم ظلوا مسافرين يوما بعد آخر حتى بلغوها فى الاسبوع الاول من الصيام الكبير[١٦] .

(٤)

وصول رسل الصليبيين الى البندقية ومطلبهم

١٥ – حين وصل الرسل الفرنسيون الى البندقية[١٧] رحّب بهم دوجها المسمى هنرى داندولو وكان رجلا صلب العود حاضر الذهن بالغ الحكمة ، واشترك فى الترحيب بهم معه من كان حاضرا من اعضاء مجلسه واكرموا وفادتهم اكراما كبيرا ، فلما شرع الرسل فى تسليم الدوج رسائل كبرائهم الذين اوفدوهم ، تعجب[١٨] الدوج فى نفسه من الامر الجليل الذى حمل هؤلاء السادة على المجىء الى البندقية بالذات .. ذلك لأن الرسائل التى معهم لم تكن غير خطابات اعتماد . ليس فيها اكثر من أنهم يمثلون ساداتهم الكونتات تمام التمثيل ، وان هؤلاء الكونتات يعتبرون هؤلاء الرسل الستة بمنزلة أنفسهم ، ومن ثم فانهم ملتزمون كل الالتزام بتنفيذ مايبرمونه ، كما لو كانوا هم الذين أبرموه .

---

(١٦) هذه الفقرة من مذكرات فلهاردوان تبين ان هؤلاء الرسل اتفقوا فيما بينهم منذ البداية على ان لايتجهوا الآ الى البندقية ، ويبرر فلهاردوان اختيار البندقية بالذات لأن بها من السفن اكثر مماعند غيرها مثل جنوة والبندقية ، وان هذا لما يحمل على الظن أنه كان هناك تواطؤ بينهم وبين البندقية ، وستكشف هذه المذكرات عن آخرين كانوا متواطئين معهم ولكن من وراء ستار .

(١٧) كان وصولهم الى البندقية فى فبراير ١٢٠١م (= جمادى الاول ٥٩٧هـ) .

(١٨) هنا يحاول فلهاردوان – ومنذ البداية – ان يظهر البندقية فى مظهر الذى لايعرف شيئا عن الوفادة ولا عن الدعوة للحرب الصليبية .

١٦ — ومن ثم فقد اجاب الدوج قائلا : « أيها السادة ، لقد اطلعت على مامعكم من الخطابات ، ونحن نعرف تماما ان ساداتكم الكونتات اعظم الناس جميعا باستثناء الملوك ، وهم يطلبون منا ان نثق بماتقولونه لنا ، وانهم منفذون كل ماتبرمونه معنا من الاتفاقات ، فهل لكم ان تتفضلوا فتفضون الينا الآن بماتريدون ؟ » .

١٧ — فأجابه الرسل[١٩] « ايها الدوج[٢٠] ، وددنا لو انك جمعت مجلسك حتى نفصح امامه عما يطلبه سادتنا منك ، وليكن ذلك غدا ان لم يكن ثم مانع لديك » .

فسألهم الدوج إمهاله حتى اليوم الرابع حيث يجمع مجلسه واذ ذاك يلقون اليه بمالديهم من خبر .

١٨ — اقام الرسل هناك حتى اليوم الرابع الذى حدده لهم الدوج ثم جاءوا الى القصر الذى كان تحفة فى الجمال وآية فى التأثيث ، وادخلهم القوم احدى قاعات القصر حيث كان الدوج ومستشاروه ، فأفضوا اليهم بما حملوه من رسالة اليهم قائلين : « ايها السادة العظام : لقد جئنا اليكم موفدين من قبل بارونات فرنسا العظام الذين حملوا الصليب لنصرة المسيح ، واعادة فتح بيت المقدس اذا شاء الرب ، ولمّا كانوا يؤمنون تمام الايمان ان ليس لأحد ماثل الذى لكم ولشعبكم من القوة العظيمة التى تستطيعون بها مساعدتهم ، فاننا نتوجه اليكم مستحلفينكم بالله ان تعطفوا وتشفقوا على الأرض المقدسة الواقعة فيما وراء البحر ، وتعملوا على محو العار الذى ألمّ بالمسيح ، وأن تحسنوا البذل ليكون لدى رجالنا ماأرادوا من سفن النقل وشوانى الحرب » .

١٩ — فقال لهم الدوج : « وكيف يكون البذل ؟ » ..

فأجابوه : « أشيروا علينا بماترون واقترحوا بمايكون فى قدرتنا الوفاء به » .

فقال الدوج : « الحق أقول لكم : إن الذى يريده منا ساداتكم لأمْرٌ عظيم ويبدو[٢١] انكم مقبلون على مشروع هام كبير فامهلونا ثمانية أيام من يومنا هذا نوافيكم بعدها

---

(١٩) لم يحدد الكاتب أى الرسل هو الذى تكلم نيابة عن زملائه ولكن الواقع انه كان فلهاردوان .

(٢٠) الدوج هو اللقب الرسمى لحاكم البندقية ، وكان اذ ذاك هنرى داندولو الذى كان آنذاك شيخا كفيفا طاعنا فى السن قد بلغ الخامسة والثمانين من عمره ، ولكنه كان جم النشاط دفاقاً بالحيوية واختير لهذا المنصب مدى الحياة ، ويقال ان بصره كف من شظية من زجاج اصيبت بها عيناه وقت ان كان فى سفارة بالقسطنطينية قبل ذلك بزمن ، ويقال أيضا بل ان البيزنطيين أصابوه فى نزاع .

(٢١) هنا تبدو مرة أخرى محاولة فلهاردوان اظهار الدوج بمظهر الشخص الذى لايدرى شيئا عن المشروع الصليبى الذى هم مقدمون عليه ، وهدف فلهاردوان من ذلك أن يرسم صورة مشرقة فى ذهن السامع والقارىء عن هنرى داندولو .

برأينا ، ولاتعجبوا من هذا الامد الذى تخالونه طويلا ، لأن الامر العظيم يتطلب التدبير المحكم » .

(٥)

شروط دوج البندقية

٢٠ – حين انتهى الأمد الذى ضربه الدوج عاد الرسل الى القصر ، وألقى الطرفان كثيرا من الخطب التى أعجز عن استعادتها الآن ، ولكن الدوج قال فى النهاية : « أيها السادة .. سنخبركم بالقرار الذى سنلتزمه اذا استطعنا ان نحمل مجلسنا الكبير وعامة البلد على الموافقة عليه .. كما انه يجب عليكم ان تتشاوروا فيما بينكم عما اذا كنتم قادرين على قبول هذا القرار والعمل به ، سنعد سفن حمولة لنقل أربعة الآف وخمسمائة حصان ، واخرى حربية لنقل تسعة الآف محارب ، الى جانب اربعة الاف وخمسمائة فارس وعشرين الفا من المشاة ، ولقد اتفقنا ان نوفر مؤونة تسعة اشهر للدواب والرجال .

هذا مااعتزمناه ..

على الا يقل ماتدفعونه لنا عن اربعة ماركات للحصان وماركين عن الرجل » .

٢١ – « وسنضطلع بالمحافظة على الاتفاقية التى نضعها الآن بين ايديكم لمدة عام يبدأ من يوم ابحارنا من ميناء البندقية ، وذلك خدمة للرب والنصرانية ، ومن ثم فان المبلغ الكلى لجميع المصروفات التى ذكرناها هو خمسة وثمانون الف قطعة فضية .

٢٢ – « وزيادة على هذا – وحبا فى الله – سنضيف[٢٢] الى الاسطول خمسين سفينة مسلحة على شرط ان يكون لنا مثل مالكم ممانستولى عليه فى البحر والبر طالما نحن مرافقون لكم . والآن عليكم ان تتشاوروا فيما بينكم ، لتروا اذا كنتم مستعدين لقبول كل شروطنا هذه وتنفيذها » .

٢٣ – حينذاك استأذن الرسل فى الانصراف قائلين انهم سيتدبرون الامر فيما بينهم ، على ان يحملوا ردهم اليهم فى الغد ، وظلوا تلك الليلة يتباحثون ويتشاورون حتى انتهوا الى الاجماع على قبول الشروط المقدمة اليهم .

فلما كان صباح الغد مثلوا امام الدوج وقالوا له :

---

(٢٢) لم تكن تكاليف هذه السفن داخلة فى مايدفعه الفرنجة بل تتولى البندقية تجهيزها وتموينها وشحنها بالرجال والعدد والآلات والخيل .

« أيها السيد المولى : نحن مستعدون لقبول هذا الاتفاق وإمضائه » .

واذ ذاك قال الدوج إنه سيتحدث فى هذا الموضوع مع رجال مجلسه وسيفضى إلى الرسل بما ينتهى إليه حديثه واياهم .

٢٤ – فلما كان صباح اليوم الثالث قام الدوج – وكان باسلا عاقلا – فجمع مجلسه الكبير المؤلف من اربعين رجلا من أحكم رجال بلده ، واستطاع بفضل حكمته والمعيته وذكائه ان يحملهم على قبول الاتفاق عن طواعيةٍ ، والتصديق عليه . وفعل هذا مع مئة ثم مع مئتين ثم مع الف ، حتى انتهى الامر بهم اخيرا الى ان تقبلوه جميعا وأجازوه .

وحينذاك جمع الدوج مايقرب من عشرة آلاف من مواطنيه فى وقت واحد فى كنيسة سنت مارك ، وهى اجمل كنائس البندقية على الاطلاق ، ودعاهم لسماع قداس عن الروح القدس ، ثم أمرهم ان يصلوا للرب عساه يلهمهم الرشد فيما يتعلق فى ماالتمسه السفراء منه وماحملوه اليه من الكتب .

ففعلوا ذلك عن طيب خاطر .

(٦)
عقد الاتفاق ورجوع المبعوثين

٢٥ – حين فرغ القوم من الاحتفال بالعشاء المقدس ومن القداس الكنسى ، بعث الدوج فى استدعاء السفراء الصليبيين طالبا اليهم ان يتفضلوا بسؤال البنادقة موافقتهم على الاتفاق المقترح ، فدخل الرسل الكنيسة فكانوا محط أنظار الجميع ، واتجهت اليهم الأبصار دهشة من اناس لم يروهم من قبل .

٢٦ – فأناب الرسل عن طيب خاطر ورضاء تام جوفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا فى ان يتكلم باسمهم فتكلم وقال : « ايها السادة ، لقد بعثنا اليكم بارونات فرنسا وهم ذروة الفرنسيين وارفعهم مكانة وأعظمهم تقديرا واشدهم بأسا وقوة ، وتميزوا عن النظراء وأربوا على الاكفاء ، وهم يستصرخون بكم ويسألونكم ان تنظروا بعين العطف الى القدس التى صارت الآن فى قبضة الترك ووثاقهم ، ويلتمسون منكم من اجل خاطر الرب ان تعينوهم فى مسح العار الذى لحق السيد المسيح ، وانهم من اجل هذه الغاية وتحقيق هذا الهدف قد اختاروكم – دون سواكم من الامم – ليقينهم الجازم بأنه لايتوفر لشعب مامثل ماتوفر لكم من قوة ضخمة فى كل البحار ، وكلفونا ان نجثوا عند اقدامكم ولانهض حتى تعلنوا عطفكم على الارض المقدسة الواقعة فيما وراء البحر » .

٢٧ - واذ ذاك ركع الرسل الستة وهم يذرفون الدموع السخينة عند اقدام هؤلاء الناس المجتمعين امامهم ، واستخرط الدوج وكل البنادقة الحاضرين فى البكاء ، مستعبرين حزنا وشفقة ، ورفعوا اكفهم الى السماء وصاحوا جميعا فى صوت واحد :

« لقد رضينا .. لقد رضينا » .

واذ ذاك تجاوبت أرجاء الافق بالهتاف ، وتعالى الصياح حتى كاد يصم الآذان ، وكأن الارض قد زلزلت زلزالها وتهاوت قطعا يصدم بعضها بعضا .

٢٨ - لقد كانت الجلبة بالغة والعاطفة فوارة ، وكنا على هيئة لم يشاهدها احد قط من قبل ، فلما هدأ كل شيء انتصب دوج البندقية على قدميه واعتلى منصة الخطابة بكل مافى برديته من فطنة وألمعية ، وخاطب قومه قائلا لهم :

« أيها السادة ، تدبروا الشرف العظيم الذى حباكم به الرب وخصكم به دون سائر الشعوب ، حين ألهم أعظم أمة فى العالم أن تترك الناس قاطبة الاكم وتؤثركم على غيركم لتشاركوهم فى عمل ليس ثمت مايشأوه خطرا أو يساويه مكانة ألا وهو استخلاص القدس وارضاء السيد المسيح » .

٢٩ - ولا أستطيع ان أعيد عليك الكلمات الطيبة السامية التى قالها الدوج بهذه المناسبة ، ولكن حسبى ان اذكر لك ان كل البنادقة انتهوا اخيرا الى وجوب تجهيز الاتفاقية واعدادها ليبرموها فى يومهم التالى ، وتم الامر على الصورة التى ذكروها .

وحينذاك اتفقوا على ان تتجه الحملة الى بابليون[٢٣] ، التى ان تمكن الصليبيون من هزيمة الترك فيها سهل عليهم امر المسلمين قاطبة فى أى مكان آخر وخلا لهم وجه البلاد ، واتفقوا على أن يبقى ذلك[٢٤] الامر سرا مكتوما فى هذا المجلس ، على أن يكتفوا بأن يقولوا لجمهور المحاربين الصليبيين انهم قاصدون « ماوراء البحر[٢٥] » لايزيدون على هذه العبارة شيئا .

---

(٢٣) « بابليون » هو الاصطلاح التاريخى فى العصور الوسطى عند كتاب الغرب ، يطلقونه حين يقصدون الكلام عن مصر ، أما « الترك » فهم المصريون المماليك .

(٢٤) أى تبقى فكرة التوجه بالحملة ضد مصر سراً .

(٢٥) هذه ترجمة لكلمة Outre-mer والمقصود بها فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة وان حورت فى هذه اللحظة من تاريخ العالم يومذاك لغرض فى نفس كبار رجال الحملة ودوج البندقية هنرى داندولو ، الذين شاءوا التعمية على جمهور الصليبيين فاستعملوا - طوال الرحلة - هذا اللفظ ، وأخذ كل فريق يفسره حسب فهمه إياه أو هواه . على أن بعض المؤرخين يفسر استعمال الصليبيين هذا اللفظ بأنهم كانوا يريدون - كما قال - « اخفاء هدفهم الحقيقى عن العدو ، ويمنعوا حدوث الشجار بين طبقات الصليبيين المحاربين » انظر : Mc Neal (E) & Wolff: The Fourth Lrusadep., 163.

٣٠ – وكنا اذ ذاك فى ايام الصوم الكبير[٢٦] فتم الامر على أنه إذا كان يوم الاحتفال بذكرى القديس يوحنا من السنة التالية اعنى فى شهر مارس[٢٧] من عام الف ومائتين واثنين من مولد عيسى المسيح يجتمع البارونات والحجاج الصليبيون قاطبة فى البندقية حيث تكون السفن هناك متأهبة لنقلهم .

٣١ – حين فرغ القوم من كتابة الوثائق وتوقيعها وخَتْمها جىء بها الى الدوج فى قصره الكبير حيث كان مجلساه : العام والخاص ملتئمين ، فلما ناول الدوج هذه الوثائق الى رسل الكونتات ركع على قدميه واستخرط فى البكاء وبللت الدموع وجهه ، ثم اقسم على الآثار والمخلفات المقدسة[٢٨] على احترام الشروط المبرمة بين الطرفين واقتدى به رجال مجلسيه وكان عددهم ستة واربعين رجلا[٢٩] .

ثم جاء دور الرسل فنهضوا وقطعوا على انفسهم الأيمان المغلظة ان يراعوا العهد وألاّ ينقضوه ، وان يحترموا قسمهم وعهودهم التى اخذوها على انفسهم ونيابة عن ساداتهم .

ولتعلم ان الشفقة البالغة اجرت فى هذه اللحظة الدموع الغزيرة ، ثم بادر الطرفان المعنيان بالامر بايفاد بعض الرسل الى البابا انوسنت فى روما ليحيز هذا الاتفاق ، فأجازه بنفس راضية مطمئنة[٣٠] .

---

(٢٦) أى فى شهر مارس سنة ١٢٠١م (= جمادى الثانى سنة ٥٩٧) .

(٢٧) هذا هو التاريخ الذى تحدد لاجتماع الصليبيين كلهم ، أما تاريخ الابحار فاتفقوا على أن يكون يوم ٢٩ يونيو سنة ١٢٠٢م (= ٢٧ شوال ٥٩٨هـ) .

(٢٨) دأبت نسخة شو على كتابة « الأناجيل المقدسة » كلما وردت عبارة « الآثار » أو « المخلفات المقدسة » ، وسنكتفى بهذه الملاحظة كلما تكررت فيما يلى من الصفحات اكتفاء بالاشارة اليها هنا .

(٢٩) فى نسخة مز (ستة وخمسين رجلا) والصواب هو الوارد أعلاه بالمتن ، ذلك لأن المجلس الكبير كان يتألف من أربعين شخصا ، أما مجلس الدوق الخاص أو الصغير فكان يتألف من ستة فقط .

(٣٠) بل لقد زاد على ذلك بان كتب الى كبار رجال الكنيسة فى انجلترا والمانيا وفرنسا يأمرهم بأن يحثوا الناس على المساهمة فى حمل الصليب هذه المرة ، والقى بتعليماته الى رجال الاكليروس فى انجلترا أن يتأكدوا من أن يكون القوم على استعداد للخروج فى الموعد الذى حدده « أولادنا الطوبانيون : كونت فلاندرز وشمبانيا وبلوا » .

أما رسالته الى رجال الدين فى فرنسا فقد اشارت إلى من أخذوا يتجهزون للحرب ، وذكر بصريح العبارة « البنادقة » .

أما رسالته الى رجال الدين فى المانيا فقد تضمنت مثل ذلك ولقيت استجابة منهم . يستدل على ذلك انه خرج من المانيا فى هذه الحملة كونراد اسقف هلبرشتات والاسقف الديرى مارتن البيرسى على رأس جماعتين ذهبتا الى البندقية حيث كانت التجمعات الحربية الصليبية .

٣٢ - حينذاك اقترض الرسل خمسة آلاف مارك فضى من اهل المدينة وقدموها الى الدوج ليشرع فى بناء السفن ، فلما فرغوا من ذلك استأذنوه فى الانصراف الى بلادهم فاذن لهم فساروا مخبين بضعة ايام حتى بلغوا « بياتشنزا » فى اقليم لمبارديا .

وحينذاك انفصل جودفرى[٣١] مارشال شمبانيا و « الاردماكرو » عمن سواهما ويمما وجهيهما شطر فرنسا ، على حين انطلق رفاقهم الى جنوة وبيزة ليقفوا على مدى المساعدة التى سوف يقدمها اهلوهما من اجل رحلة الحجاج إلى ماوراء البحر .

* * *

(٧)
الصليبيون يفتشون عن قائد للحملة

٣٣ - بينما[٣٢] كان جوفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا يعبر جبل « مونت سنيز » اذا به يلتقى صدفة « بجوتييه[٣٣] دى بريين » الذى كان فى طريقه الى أبوليا لاسترداد بعض[٣٤] الاراضى التى كانت تابعة من قبل لزوجته ابنة الملك تانكريد والتى كان قد تزوجها منذ مساهمته فى حمل الصليب ، وكان بصحبته كذلك طائفة اخرى من الصليبيين من بينهم « جوتييه[٣٥] دى مونت بليارد » و « استاش دى كونفلان »

---

(٣١) وهو مؤلف هذه المذكرات وأحد أعضاء السفارة الصليبية الفرنجية الستة .

(٣٢) وضعت نسخة «شو» لهذا الفصل تاريخا هو « مايو - سبتمبر ١٢٠١م » أى (شعبان - ذو الحجة ٥٩٧هـ) .

(٣٣) هو المعروف باسم وولتر الثالث كونت بريين « وهو أخو جون دى بريين ملك بيت المقدس ، وقد صحب جوتييه (أو وولتر) هذا فى رحلته هذه الى صقلية جماعة من وجوه الأمراء ، والواقع أن العسكر الذى كان مع وولتر كان معدا للسفر الى فلسطين لمحاربة المسلمين هناك ، وكانت صقلية تشغل اذ ذاك - من ناحية أخرى - بال انوسنت الثالث ، انظر : . S. Painter The Reign of King John, pp. 189 et seq

(٣٤) هذه الأراضى هى مقاطعة تارانتو ، وليتش ، وكان الرجال الذين معه قد نالوا بعض الامتيازات التى تمنح لحملة الصليب .

(٣٥)كان جوتييه دى مونت بليارد من أكبر المتحمسين للحروب الصليبية العاملين على مضايقة المسلمين بشتى الوسائل . لذلك نراه يقود طائفة من الصليبيين فى حملة فى دلتا النيل فى يونيو ١٢١١ وقد اختير فى بيت المقدس كحام من حماته ولقب « بالكونستابل » وهو لقب يمنح لكبير اتباع الملك فى العادة أو من يشرف على موظفى القصر ، وتكون له امتيازات حربية ، كما يطلق أيضا على من يتولى حراسة احدى القلاع أو الحصون الملكية وانظر فيما يتعلق عنه .La Monte (J): The Feudal Monarchy in Latin Kingdom of Jerusalem, p. 52 et seq هذا وقد تزوج جوتييه من برجنديا اللوزانيانية ابنة اموری مماجعل له يدا فى تصريف امور قبرص حتى اختير وصيا على اخى زوجته هيج الأول .

و « روبرت جوانفيل » وغيرهم من وجوه اهل شمبانيا البارزين الذين حملوا معه الصليب .

٣٤ – فلما أنبأهم جوفرى بما تم على يده هو ورفاقه الخمسة استبدت بهم الفرحة الغامرة بما انجزوه ، واثنوا الثناء الطيب على الاتفاق الذى أبرموه وقالوا له :

« نحن الآن ماضون فى طريقنا ، وحينما تأتى الى البندقية سوف تجدنا جميعا مستعدين للسفر » .

غير ان الامور جرت على غير ماظنوه وقدروه .

قَدَرٌ من الرب شاءه ولاراد لقضائه ، اذ لم يستطيعوا ابدا الانضمام الى الجيش . وكان هذا من افدح الخسائر التى مُنينا بها لانهم كانوا أهل بسالة وقوة ولكنهم تفرقوا ، وذهب كل لطيته ، وسلك طريقا غير الذى سلكه الآخر .

* * *

(٨)
موت الكونت ثيبوت ممول الحملة

٣٥ – تابع جوفرى فلهاردوان المارشال سفره بضعة ايام حتى بلغ « تروى » فى اقليم شمبانيا حيث وجد مولاه كونت ثيبوت قد أقعده المرض وأوصبه الداء ، حتى لقد أشرف على الموت . بيد أن حضور المارشال بعث فى الكونت الفرحة التى بلغت غايتها حين افضى اليه فلهاردوان بما انجزه الرسل ، وتمثلت هذه الفرحة حين قال الكونت إنه سيخرج على جواده للنزهة ، وهو أمر لم يفعله منذ أن أضنته العلة منذ وقت بعيد .

ومن ثم غادر فراش مرضه وركب جواده .

لكن وا أسفاه .. كم كانت النكبة فادحة اذ لم يركب بعد هذه المرة ابدا .

٣٦ – اشتدت العلة بالكونت ثيبوت شدة قاسية وتدهورت صحته تدهورا خطيرا حمله على كتابة وصيته الاخيرة وعَهْده ، ووزَّع الاموال التى كان يزمع أخذها معه إلى الحج للصرف منها على اتباعه واصحابه الذين كان اكثرهم من الصالحين الصادقين .

لم يكن هناك من يزه ثروة ، فأمر أن يقوم كل واحد ممن ناله سهم من اموال وصيته فيقسم اغلظ الأيمان – حين يتسلم نصيبه – على الآثار المقدسة ان ينضم الى الجيش فى البندقية وفاء بعهده هو ذاته . لكن لم يف الاكثرون بهذا العهد فباءوا بغضب الصالحين ولومهم الكبير .

كذلك أَمَرَ الكونت باستبقاء جزء من ثروته لترسل للجيش الصليبى للانفاق منها حسبما يقتضيه الصالح العام .

٣٧ – هكذا مات الكونت ثيبوت ميتة كريمة لم تصادفها الاّ قلة من الناس ، وكان حاضرا فى هذه اللحظة حشد كثيف جدا من ذوى قرباه وأفصاله[٣٦] ، ولست ارى داعيا لأن اتكلم هنا عن الحزن الذى عمّ الحاضرين فابكاهم جميعا ، ولكن حسبى ان أقول انه لم يَتَسَنَّ لأحد مأان يلقى مالقيه هذا الكونت من الاحترام الذى هو اهل له ، ولم يحظ رجل فى مثل عمره بماحظى به من حب تنافست فيه جماعته وغيرها من الجماعات الأخرى .

وقد دفن الكونت بجوار أبيه ، ووسد ثرى كنيسة سنت ستيفن فى « تروى » ، وخلّف وراءه زوجته الكونتس بلانش ابنة ملك نفارة وكانت سيدة جميلة الطلعة ، شديدة الصلاح ، أنجبت له طفلة ، وكانت على وشك أن تضع له ولدا[٣٧] .

* * *

---

(٣٦) الفصل هنا (بفتح الفاء والصاد) هو اللفظ العربى لكلمة Vassal الأقطاعية العربية ، وقد استعملها النويرى ، وكان أول من دل على هذا الاستعمال العربى المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة فى نشره العلمى لكتاب السلوك للمقريزى .

(٣٧) وقد وضعت الاميرة بعد موت زوجها ابنهما ثيبوت الرابع (١٢٠١ – ١٢٥٣) والذى أصبح ملكا من ١٢٣٤ حتى وفاته ، وقد ورث عن ابيه حبه للمشاركة فى الحروب الصليبية فنراه يسهم فى حملة من هذا النوع عرفت بحملة ١٢٣٩ ، التى دعا هو اليها وريتشارد بلانتا جينت Plantagenet ايرل كورنوول وكانت من أعجب الحملات اذ لم يلتق فيها مدبراها أبداً طيلة زمنها الذى استغرق حتى سنة ١٢٤١ ، وقد امضى الصليبيون معظم وقتهم فى سكون وسلام فى معسكراتهم فى عكا ويافا وعسقلان ولم يقوموا الاّ بمناوشتين ، راجع ذلك مفصلا فى : William of Tyre: Le livre d'Eracles وانظر المقريزى : السلوك وترجمته التى قام بها مسيو : E. Blochet فى مجلة الشرق اللاتينى Revue de l'orient latin, t. VI—XI وانظر ايضا من الدراسات الحديثة :

R. Yrousset: Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusalem, t. III, pp. 372 fol.

(٩)
الصليبيون يبحثون عن قائد آخر للحملة

٣٨ – بعد ان فرغ القوم من دفن الكونت مشى ماتيودى مونتمورنسى وسيمون دى مونت فورت ، وجوفرى جوانفيل صنجال شمبانيا ، وجوفرى المارشال الى « يود »[٣٨] دوق برجنديا وقالوا له :

« مولانا ، لقد مات ابن عمك الكونت ثيبوت ، وانك لتعلم تمام العلم اى داهية دهياء نزلت بالبلاد اذ مات ، ولهذا فإننا نتوسل إليك بحق الرب أن تحمل الصليب مكانه وتنقذ الأرض المقدسة كما كان يريد هو انقاذها ، وسنسلمك كل المال الذى تركه ، وسنقسم لك على الاناجيل المقدسة ونحمل الآخرين أيضا على ذلك بأن نصدق فى خدمتك ونبذل لك السمع والطاعة كما كنا سوف نفعل معه لو ظل حيا » .

ومع ذلك فقد كان الدوق راغبا عن هذا العرض . والرأى عندى انه احسن اذ رفض من البداية . فعهدنا الى جودفرى جوانفيل بأن يقدم نفس الطلب الى كونت[٣٩] دى بارلى دوك الذى كان هو الآخر من ابناء عمومة كونت ثيبوت ، لكنه رفض ايضا ماعرضوه عليه .

٣٩ – حين علم الحجاج وكل الذين ازمعوا المضى للحرب فى خدمة الرب بموت ثيبوت كونت شمبانيا اشتد بهم الاسى ، ومن ثم عقدوا اجتماعا فى مستهل الشهر فى « سواسون » ليقرروا مايجب عليهم اتخاذه ، وكان ممَّنْ حضر هذا الاجتماع لويس كونت بلوا وشارتر ، وبلدوين كونت فلاندرز وهينولت وجوفرى كونت بيرش ، وهيج كونت سنت بول ، وكثيرون غيرهم من ذوى المكانة البارزة والشهرة الخفاقة .

---

(٣٨) هو Eude أو Odo الثالث دوق برجنديا من ١١٩٢ حتى ١٢١٨م (= ٥٨٨ – ٦١٥هـ) وكان من المقربين للبابوية ، وعرف بضراوته ضد الابلبيجنسيين الذين رمتهم الكنيسة الرومانية بالهرطقة فحاربهم فى فرنسا ، على انه لاينبغى ان نفسر رفضه الحلول محل ثيبوت كونت شمبانيا على انه كاره للخروج أو معارض للحرب الصليبية ، بل يجب تفسيره على ضوء قصره اهتمامه على فرنسا وبرجنديا وليس لما وراء البحار .

(٣٩) أطلق لقب «Count de Bar-Le-Doc» فى اخريات القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر على أكثر من واحد ، أما المقصود فى المتن فهو ثيوبولد الذى شارك فى محاربة الألبيجنسية ومهاجمة معقلها فى تولوز بفرنسا سنة ١٢١٢م (= ٦٠٨/٦٠٩هـ) ويبدو لنا من مطالعة اخباره انه لم يكن ينظر بعين الرضا الى مساهمة البندقية فى أى حرب صليبية ، وهو فى ذلك مثل بقية قومه البرجنديين الذين ساهموا من قبل فى الحملة الصليبية الرابعة ولكنهم رفضوا ان يكون خروجهم من جزيرة سنت نيكولادى ليدو بالبندقية ، بل آثروا عليها غيرها من الموانى الفرنسية ، وفى هذه المذكرات اشارات متعددة لمواقفهم هذه .

وتحدث اليهم جودفرى[٤٠] فلهاردوان المرشال شارحا الموقف ، واخبرهم بماكان من امر العرض الذى قدم لكل من دوق برجنديا وكونت بارلى روك ، ورفضهما اياه ، ثم قال :

« ايها السادة .. اعيرونى سمعكم ودعونى أعرض عليكم خطة تكتب لكم النجاح ان رضيتم الأخذ بها : ان المركيز بونيفاس[٤١] دى مُونْتِفِرَّات من أشجع الرجال وأحقهم بالثقة ، وانه لمن اعظم الأحياء ممن أجمع الناس على تقديرهم ، فإذا بدى لكم ان تسألوه الحضور إلى مجلسنا هذا ومشاركتنا فى حمل الصليب ، وجعلتموه مكان كونت شمبانيا الراحل وعهدتم اليه بقيادة الجيش الصليبى العليا فإنى واثق أنه سوف يقبل عرضكم فى الحال ، ويلبى رجاءكم فى لحظته » .

٤٠ — واختلفت الآراء مابين مؤيد ومعارض لهذا الاقتراح ، وطال الجدل ، ولكنه انتهى أخيرا بأن وافق عليه المجتمعون كلهم : كبيرهم وصغيرهم ، ومن ثم كتبوا رسالة إليه[٤٢] ضمنوها مايرجونه منه ، واختاروا جماعة بعثوهم للتفتيش عنه ليُلْقُوا اليه بالكتاب حين يقابلونه .

---

(٤٠) هذا يفصح عن أن صاحبنا فلهاردوان كان هو المتحدث الرسمى للفرنجة فى هذا الموقف وفى كثير من المواقف السابقة واللاحقة ، ممايدل على أنه كان من أصحاب اليد العليا فى تقرير الأمور وسير الحملة ، ومن هنا يكون اتهامه بالاشتراك فى تغيير مسارها قائما على اساس كبير من الصحة .. انظر أيضا الحاشية التالية .

(٤١) سيرد ذكره كثيرا فى احداث هذه الحروب ، وقد أصبح ملكا على سالونيكا فى اعقاب الفتح اللاتينى للقسطنطينية ، وتشير اصابع الاتهام اليه فى أنه كان مدسوسا على الصليبيين ، وقد عالج هذا الموضوع الحساس المؤرخ فارال فاتّهم فلهاردوان بتوجيه التاريخ وجهة معينة بناء على تزكيته لبونيفاس هذا ، انظر : Faral: Geoffroy de Villehardouin: La question de sa Sinceirètè pp. 570 et seq.

والحق ان بونيفاس كان انتهازيا حين تزوج من مرجريت أو ماريا اخت ملك المجر ليشد ازره فى مطالبته بعد فتح الفرنجة للقسطنطينية بولاية سالونيكا التى تزعم اسرته من قبل انها ملك لها ، ولقد كانت مرجريت من قبله زوجة الامبراطور اسحق الثانى ولها منه ولدان اتخذهما بونيفاس ورقة يلعب بها فى استمالة اليونان اليه من ناحية ، وفى تهديد منافسه بلدوين الأول أول امبراطور للمملكة اللاتينية فى الشرق من ناحية أخرى . ولقد كان بونيفاس من اسرة ربطت نفسها بالحروب الصليبية فأبوه « وليم العجوز » اشترك فى الحملة الثانية التى قامت عقب سقوط الرها فى يد عماد الدين زنكى ، ثم انه كان ممن وقع فى اسر صلاح الدين الأيوبى فى وقعة حطين ١١٨٧ ، كما أن أخاه الأكبر وليم لونجوارد قد تزوج من « سيبيل » ابنة أمورى ملك بيت المقدس وصاحب العلاقات العدوانية مع الخلافة الفاطمية فى مصر ، واتصلت اسرته ارتباطا زواجيا بالبيت البيزنطى المالك فقد تزوج اخوه « رينيه دى مونتفرات » من « ماريا » ابنة الامبراطور مانويل كومنين سنة ١١٨٣م .

(٤٢) أى الى المركيز بونيفاس دى مونتفرات .

٤١ – وجاء المركيز فى اليوم الذى عينوه له ، مجتازا اقليم شمبانيا وجزيرة فرنسا حيث رحب به كثير من اهل البلاد ولاقوه احسن لقاء ، لاسيما ابن عمه ملك[٤٣] فرنسا واحاطه والناس جميعا بكل مظاهر التشريف .

* * *

(١٠)
بونيفاس يرأس الصليبين وموت كونت بيرش

٤٢ – جاء المركيز الى سواسون حيث كان انعقاد المؤتمر الذى ضم طائفة كبيرة من الكونتات والبارونات وغيرهم من الصليبيين الذين التأم شملهم جميعا هناك ، فلما سمعوا بمقدم بونيفاس هبوا للقائه واحسنوا استقباله ، ثم عقد المؤتمر جلسته فى الصباح فى حديقة فسيحة ملحقة بدير عذراء سواسون ، وتقدم كل من حضر الاجتماع الى المركيز متوسلين اليه ان يقبل عرضهم ، والَحُّو عليه إلحاحا حارا أن يحمل الصليب من أجل خاطر الرب ، وأن يقبل قيادة الجيش العامة مكان ثيبوت كونت شمبانيا الراحل ، وجعلوا له التصرّف فى أمواله والحكم على رجاله ، ثم ركعوا امامه على ركبهم يذرفون الدموع ، فركع هو ايضا مثلهم أمامهم ، وقال إنه يقبل عن رضا وطيب خاطر ماسألوه إياه .

٤٣ – هكذا استجاب المركيز لرجاء الصليبيين وتوسلاتهم ، وأخذ قيادة الجيش العليا فى يديه ، وسرعان ماقام اسقف سواسون وفى صحبته فولك التقى الورع واثنان من الاخوان السستريين البيض كان المركيز قد استصحبهما معه من بلده . وساروا به الى كنيسة نوتردام حيث علقوا الصليب بذارعه .

وبهذا انتهى المؤتمر .

٤٤ – فلما كان اليوم التالى سأل المركيز البارونات ان يأذنوا له بالعودة الى أملاكه ليرتبها ويعد امورها ، ثم نصحههم جميعا ان يعملوا مثله فينظمون أمورهم ، ويرتبون أحوالهم لانه سوف يلتقى بهم فى البندقية .

---

(٤٣) ربما كان لهذه القرابة اثر فيمااعلنه البابا انوسنت الثالث بنفسه من موافقة فيليب اوجستوس على هذا الاختيار ، ومن ثم لايكون هناك موضع لتساؤل بعض المؤرخين عن السبب الذى حمل الملك الفرنسى على تأييد اختياره .

٤٥ – غادر المركيز سواسون ليحضر قداسا فى « شيتو » جرت العادة على عقده كل سنة فى مثل هذا الوقت ويعرف بيوم[٤٤] الصليب المقدس ، فصادف هناك جمعا غفيرا من رؤساء الاديرة والبارونات وغيرهم من اهالى برجنديا ، كما وجد فولك دى نى الذى جاء لدعوة الناس لحمل الصليب[٤٥] .

٤٦ – ولقد حمل الصليب فى هذه اللحظة كثيرون كان بينهم « يود » الشمبانى ، وأخوه وليم ، وريتشارد دى دامبيير وأخوه يود ، وجى دى بيزم وأخوه إدموند ، وجى دى كونفلان ، وكثيرون غيرهم من صلحاء برجنديا الذين لم اورد اسماءهم فى هذا الكتاب .

ثم جاء من بعدهم أسقف أوتون ، وكونت جين دى فوريز ، وهيج دى بيرجى وابنه وسَميُّه هيج ، وهيج دى كوليمى .

أما فى الجنوب حيث إقليم بروفنس فقد حمل الصليب أيضا بطرس برومونت وكثيرون غيره ممن لاأعرف أسماءهم .

٤٧ – هكذا كان الناس جميعا فى كل البلاد يسارعون للانضمام لمسيرة الحج .. لكن وا أسفاه !! .

أى خطب جسيم ادخرته لنا الأيام وَدَهَتْنَا به فى عيد الصوم التالى قبل الموعد المضروب لسفرنا ! لقد داهم المرض الكونت جوفرى دى بيرش والزمه فراشه ، ومات بعد ان ترك وصيته التى ضمنها تعاليمه بأن تؤول امواله الى اخيه ايتين ، وان يتولى مكانه قيادة رجاله من بعده ، وأذعن الحجاج لهذا التغيير اذ كانت هذه مشيئة الرب .

٤٨ – وكان موته حقا خسارة فادحة ، لانه كان رجلا جليل القدر باذخ الترف ، وكان أيضا نسيج وحده وقريع دهره ، قل ان تفتح العين على نظير له .

ولقد حزن عليه كل اهل بلده حزنا بالغا .

* * *

---

(٤٤) وذلك يوم ١٤ سبتمبر .

(٤٥) يسكت فلهاردوان بعد ذلك عن الاشارة الى ماكان من المركيز بونيفاس دى مونتفرات ، ولعله سكت عامدا حتى لايثير فى التاريخ الشك فى موقفه ، على ان الذى لم يذكره فلهاردوان هو ان المركيز – بعد فراغه من حضور قداس « شيتو » – مضى الى ألمانيا ليحضر عيد الميلاد (ديسمبر ١٢٠٤) فى بلاط الملك الألمانى فيليب هوهنشتاوفن دى سوابيا .

(١١)
وصول بعض المحاربين الى البندقية وتخلف البعض الآخر

٤٩ – بعد انقضاء عيد الفصح وعند اقتراب عيد[٤٦] لبس البياض شرع كل حاج من الحجاج فى مغادرة بلده .

ويجب أن تعلم ان اهلهم وصحابهم ذرفوا فى وداعهم الدموع الغزيرة ، حنانا منهم استشعروه نحوهم ورحمة لهم ، فسافروا ميممين شطر الجنوب سالكين ارض برجنديا . وعبروا جبال الألب ومونت سينيس ، ثم دخلوا لمبارديا ، واخذوا يتجمعون طائفة بعد طائفة فى البندقية حيث استقروا فى جزيرة سنت نيكولادى ليدو .

٥٠ – وحدث فى الوقت ذاته أن أبحر أسطول كبير حمل طائفة ضخمة من خيرة المسلحين من أهل فلاندرز التى خرجت منها هذه السفن سائرة حول الساحل ، وكان ممن خرجو فى هذه الحملة المقدمون الحربيون جون دى نيل ، وكستلان دى بروجس وتييرى بن فيليب كونت فلاندرز ، ونيكولا دى ميللّى .

ولقد وعد هؤلاء الكونت بلدوين[٤٧] وأقسموا أمامه على الآثار المقدسة أن يسيروا عبر مضيق جبل طارق ، وان ينضموا إلى الكونت والمحاربين الصليبيين المتجمعين فى البندقية حيث يمضون الى اى مكان يخبرونهم بأن الكونت قد ذهب اليه .

وعلى هذا الأساس قام كونت بلدوين واخوه هنرى بمدّهم ببعض سفنهم الخاصة المحملة بالقماش والطعام وغير ذلك ممايحتاجونه من الميرة .

---

(٤٦) يوافق هذا العيد سابع أحد تالٍ لعيد الفصح المعروف عند بعض الأمم الشرقية باسم شم النسيم ، وكان هذا العيد تخليدا لذكرى شهداء الكنيسة الأوائل حيث كان المؤمنون الجدد فى الكنيسة القديمة أيام صراعها ضد الوثنية يدخلون الكنيسة متدثرين بثياب بيضاء واستمر ذلك معمولاً به على وجه الخصوص فى اسكتلندا . أما التاريخ الذى يشير إليه المؤلف أعلاه فهو يونيو ١٢٠٢ (رمضان ٥٩٨هـ) .

(٤٧) هو الذى سيصبح فيما بعد أول إمبراطور للمملكة اللاتينية ، وسيرد الكلام عنه كثيرا فى ثنايا هذه المذكرات ، وقد قتل أسيرا عند البلغار ، ثم مالبث أن أصبح شخصية وأسطورة تحاك حولها الخرافات . انظر فى ذلك وفى تاريخ هذه الفترة :

Wolff: Baldwin of Flanders, First Latin Emperor, His life, Death and Resurrection, 1172-1225.

ويلاحظ انه كان ممن انضموا إلى ريتشارد قلب الأسد فى نزاعه مع ملك فرنسا فيليب اوجستوس ، كما أنه كان ممن بادروا للانخراط فى الحملة الصليبية الرابعة ، ولقد تزوج من الأميرة مارى اميرة شمبانيا .

٥١ – لقد كان هذا الأسطول جميلا فى هيئته ، كاملا فى إعداده ، وكان بلدوين كونت فلاندرز وأتْباعه الصليبيون يعتمدون عليه اعتمادا كبيرا ، لانه حمل على ظهره اكثر الطائفة الممتازة من أحسن عسكرهم ، غير أن المسئولين عنه وعن جميع من فيه حنثوا فى يمينهم التى قطعوها على أنفسهم لمولاهم الكونت ، وذلك لأن شأنهم كان شأن الكثيرين من أمثالهم الذين استبد الخوف بنفوسهم جزعا من اخطار المشروع الكبيرة التى لقيها المحاربون فى البندقية .

٥٢ – وحذا حذوهم اسقف اوتون الذى لم يف بعهده معنا ، مثله فى ذلك مثل كل من جينيز كونت فوريز ، وبطرس برومونت وكثيرين غيرهما ، ممن لامهم الناس أعنف اللوم وأقساه على مسلكهم الشائن الذى سلكوه ، فلم يبلغوا من الناحية التى مضوا اليها الاّ التافه .

وكان من بين أهل جزيرة فرنسا الذين نقضوا عهدهم معنا برنارد دى موريل ، وهيج دى شومونت ، وهنرى دارين ، وجين دى فيلليه ، وجوتييه دى سنت دنيس وأخوه هيج ومعهم ثلة كبيرة ، تجنبوا كلهم المجىء إلى البندقية خوفا من الأخطار التى جالت بأذهانهم ، وأبحروا من ميناء مرسيليا بدلا من البندقية ، ولقد احتقرهم الناس وسلقوهم بألسنة حدادٍ ، لائمين مقرعين ، ولقد لقوا فيما بعد جزاء مسلكهم المشين ، فنزل بهم شر مستطير .

(١٢)
الحجاج الذين ذهبوا الى البندقية وغيرهم يذهبون الى ابوليا[٤٨]

٥٣ – والآن فأنى سوف أدع الكلام جانبا عن هؤلاء الرجال لأفضى إليك ببعض خبر أولئك الحجاج الذين كان الجانب الأكبر منهم قد وصل الى البندقية .

٥٤ – كان الكونت بلدوين دى فلاندرز موجودا فى البندقية هو وكثيرون غيره ، حين بلغهم نبؤ طائفة كبيرة من أتباعهم سلكوا مسالك متشعبة وخرجوا من موان أخرى ، فأزعجهم هذا النبأ أيما إزعاج وبلبل خواطرهم ، لانه يَحُول بين الصليبيين وبين الوفاء بالاتفاق الذى أبرموه مع البندقية ، والعهد الذى قطعوه على انفسهم معها ، ويجعلهم غير قادرين على دفع المال الواجب عليهم دفعه لها .

(٤٨) تقع أبوليا فى الجنوب الشرقى من إيطاليا .

لذلك راح المركيز يستعرض الوضع مع رجاله ويتشاور معهم فيما يفعلونه ، فاتفقوا على أن يرسلوا جماعة من الرسل الكرام لمقابلة هؤلاء الحجاج ولويس[٤٩] كونت بلوا وشارتر الذى لم يكن قد وصل إلى البندقية حتى هذه اللحظة ، عسى أن يتمكن هؤلاء الرسل من استمالة قلوبهم ، وإثارة الشفقة بها على الأرض المقدسة الواقعة وراء البحر ، وليبينوا لهم أيضا أنه ليس ثم طريق أجدى وأنفع سوى طريق البندقية يخرجون منها لطيتهم .

٥٥ – ولقد اختير لهذه السفارة كونت هيج[٥٠] دى سنت بول وجودفرى مارشال شمبانيا ، فركبا الخيل متجهين ناحية الشمال ، وظلا سائرين حتى بلغا مدينة « بافيا » من اقليم « لمبارديا » حث وجدا الكونت لويس فى طائفة كبيرة جدا من فرسانه الأشاوس وغيرهم من رجالاته ذوى الشرف الصاعد والمجد الباسق بين الناس ، واستطاعا بالالحاح والتشجيع والرجاء الحار أن يستميلا الى جانبهما العدد الكبير منهم ، ويحملاهم على التوجه إلى البندقية ، بعد أن كانوا قد رتبوا أمورهم على أن يخرجوا من موان أخرى غيرها ويسلكوا طرقا سواها .

٥٦ – ومع ذلك فإن كثيراً من ذوى المكانة والأهمية خرجوا من « بلاسنتيا » واتجهوا الى ابوليا من مسالك أخرى ، وكان من بينهم « فيللين دى نيللى » الذى كان معدودا من احسن فرسان الدنيا ، وهنرى دى ارزيلير ورينو دى دامبيير ، وهنرى دى لونشامب ، وجيل دى تراسيفيينر الذى كان تابعا إقطاعيا لبولدوين كونت فلاندرز وهينولت الذى منحه من جيبه الخاص خمس مائة قطعة ذهبية ليرافقه فى خروجه ،

---

(٤٩) هو لويس الأول بن تيوبولد الخامس كونت بلوا Blois من سنة ١١٩١ حتى ١٢٠٥ ثم دوق نيقيه من ١٢٠٤ – ١٢٠٥ ، ولما اخذ فولك دى نى فى الدعوة للحرب قام لويس كونت بلوا من جهته بتحريض أمراء شمال فرنسا ومعارفه من الأمراء بالانضمام للحملة ، كما كان أحد ثلاثة من الفرنجة الذين اختاروا المبعوثين الستة الى البندقية للاتفاق معها على السفن لنقل المحاربين ، وكان فلهاردوان أحد هؤلاء السفراء ، وكانت تربط لويس بالأسرة الفرنسية المالكة رابطة الدم ، وإن البابا إنوسنت الثالث ليكتب فى رسالة إلى رجال الدين فى أوربا ليكون من لديهم من المحاربين على اهبة المغادرة « فى الوقت الذى حدده للخروج أولادنا الأحباء كونتات فلاندرز وشمبانيا وبلوا » يعنى بذلك ثيبوت وبلدوين ولويس . وهذا يفسر لنا إشارة فلهاردوان فى المتن أعلاه إلى لويس كونت بلوا ومايرجوه الفرنجة الضالعون مع البندقية من نجاحه فى التغلب على المعارضين .

(٥٠) هو هيج كونت دى ST. Pol الذى سيؤول إليه حكم منطقة ديموتيكا بعد تقسيم الامبراطورية البيزنطية وقيام المملكة اللاتينية ويصبح حاكما لهذه المنطقة (١٢٠٤ – ١٢٠٥) وقد ترك لنا خطابا وجهه من القسطنطينية إلى هنرى دوق بارابانت وكونت لوفان Louvin يصف فيه الأسطول الصليبى فى اكتوبر ١٢٠٢م ، وهذا الخطاب وثيقة تاريخية هامة تضاف لمادة الكتابة عن هذه الحملة .

وذهب معهم طائفة كبيرة من الفرسان والسرجندية ممن لم يتضمن هذا الكتاب اسماءهم .

٥٧ – ومن ثم تناقص عدد أولئك الذين أزمعوا الخروج عن طريق البندقية بصورة واضحة ، وترتب على هذا النقص البيّن وقوع أحداث خطيرة أحاقت بالجيش ، كما ستعلم ذلك بعد قليل .

(١٣)
نقص المال المتفق على دفعه للبندقية

٥٨ – مضى الكونت لويس وغيره من البارونات إلى البندقية حيث استقبلهم إخوانهم أجمل استقبال وفرحوا بهم فرحا عظيما ، ثم نزلوا جزيرة سنت نيكولا الى جوار اخوانهم الصليبيين الذين سبقوهم إليها ، والحق أنه كان جيشا رائعا فى منظره ، عظيما فى كثرة من به من الرجال الصادقين ، ولم يتسن لأحد مأن وقعت عيناه على مايماثله حسنا ويجاوزه قدرا ، وأقام البنادقة من أجْلهم سوقا حافلا بكل مايرغبون فيه ويشتهونه وماقد يلزمهم هم وخيولهم .

٥٩ – كما أن الأسطول الذى أعد لهم كان بديع المنظر كامل التجهيز ، لم يتهيأ لأحد فى بلاد النصرانية أن طالع نظيره أو رأى مايفوقه ، إذ كانت هناك الشوانى والاغربة الكثيرة وسفن النقل ، ممايستطيع أن يستوعب ثلاثة أمثال الصليبيين الذين كانوا موجودين إذ ذاك ..

٦٠ – لكن واحسرتاه !! .

لقد كانت الطامة الكبرى والخسارة العظمى تتمثل فى أن الآخرين الذين كان عليهم الحضور إلى البندقية آثروا عليها غيرها من الموانى فابحروا منها ، فلو أنهم جاءوا الى هنا لعظم شأن المسيحية ولضربت المذلة على أرض الأتراك ، والحق كل الحق أن البنادقة وفوا بعهودهم غاية الوفاء ونفذوا ماالتزموا به ، وجاوزوا ذلك كله كثيراً ، وأصبحوا على أهبة الاستعداد لنقل الحجاج ، وحينذاك استدعوا الكونتات والبارونات وطلبوا إليهم الوفاء بالتزاماتهم والبّر بيمينهم وعهدهم ، وذلك بدفع المال المتفق عليه بينهم وبينهم .

٦١ – أخذ القوم يجمعون من كل فرد ماهو مفروض عليه ، ولكن ظهر أن هناك طائفة كبيرة من الجند قالت إنها لاتملك مايفى بأجر نقلها ، ومن ثم شرع البارونات

يأخذون من كل واحد من بينهم هم أنفسهم مايستطيعون أخذه منه من المال ، ودفع كل واحد مااستطاعه ، فلما فرغوا من ذلك كله كان كل المبلغ الذى جمعوه لم يَرْقَ إلى نصف القدر المقرر دفعه للبندقية .

٦٢ – حينذاك انتحى البارونات بعضهم مع بعض جانبا وراحوا يتشاورون فيما بينهم فيما جرى فقالوا : « لقد أوفى البنادقة وفاء تاما بشروط اتفاقهم معنا ، وجاوزوا حدّ الكرم إزاءنا ، ولكن لايوجد منا العدد الكافى لتدبير المال اللازم لجميع نفقات رحلتنا والوفاء باتفاقنا معهم ، وهذه جَريرة أولئك الذين سافروا من موان أخرى غير ميناء البندقية ، فنستحلفكم من أجل خاطر الرب أن يساهم كل واحد منا بدفع قدر من ماله الخاص حتى نفى باتفاقنا ، وانه لخير لكل منا أن يدفع كل ماتملكه يداه من أن نخسر كل مادفعناه من قبل ، ويَرْمينا الناس بأننا لم نحافظ على عهدنا . واعلموا إنه إذا لم تقم الحملة كان فى ذلك فساد خطتنا لتخليص الأرض الواقعة وراء البحر » .

٦٣ – على ان هذا الاقتراح قوبل بعاصفة من الاستنكار من معظم البارونات وغيرهم ، وقال المتذمرون : « لقد دفعنا للبنادقة أجر نقلنا ، فإذا أخذونا إلى هناك فنعم مافعلوا ، أما إن أبوا علينا ذلك فلا مناص لنا من ان نتدبر الامر ونلتمس طريقا آخر للسفر » .

لقد قالوا هذه القالة لأنهم كانوا يريدون تشتيت شمل الجيش وضياعه بددا وأن تعود كل جماعة إلى بلدها .

٦٤ – أما الطائفة الاخرى فقالت لهم :

« انه لأهون علينا ان نعطى كل مانملك ونذهب مع الجيش لادانق معنا من أن يتبدد شمل الجيش ولايحقق غايته ، لأننا نؤمن إيمانا لايعتريه الشك أن الرب سوف يعوضنا متى يرى ذلك » .

٦٥ – ثم أخذ كونت فلاندرز فى دفع كل ماكان معه ومااستطاع اقتراضه ، وفعل مثله كونت لويس ، وجاراهما كل من مركيز دى مونتفرات وكونت هيج دى سنت بول ومن لف لفهم وكان من حزبهم .

وكنت ترى إذ ذاك اطباقا وأوانى من الذهب الخالص والفضة محمولة إلى قصر الدوج وفاء بالمبلغ المطلوب . ومع ذلك فإنه بعد أن أسهم كل واحد بنصيبه كان لايزال هناك نقص عن المبلغ المطلوب يقدر بأربعة وثلاثين الف مارك فضى ، وحينذاك فرح الذين أمسكوا عن الدفع وأبوا ان يسهموا بأى مبلغ من عندهم ، وذهبت بهم الظنون مذهبا

أيقنوا معه بأن الجيش مقضى عليه بالفشل الذريع وستذهب ريحه بددا ولاتقوم له قائمة ، ولكن الرب الذى يبعث بالأمل وسط اليأس الذريع لم يشأ أن يحدث ماأراده القوم وتمنوه من فشل لنا .

(١٤)
الصليبيون يستمهلون البندقية ويعدونها بمساعدتها فى فتح زارا

٦٦ – ثم جمع الدوج قومه وخطب فيهم قائلا لهم : « ايها السادة : ليس فى مقدور هؤلاء الناس أن ينقدونا أكثر ممانقدونا إياه حتى لم يبق معهم من المال شىء ، ومانَفْعُنا باتفاق لايستطيعون إنجازه وإن كان من حقنا أن نستبقى المال الذى دفعوه ، ولكن هذا الحق لن تجيزه الدنيا بأجمعها ولن تقرنا عليه ، وسنكون مرمى لسهام النقد المر والتقريع الشديد : نحن وبلدنا ، فهيا بنا لأن نقدم لهم شروطا جديدة » .

« انكم لتعرفون ان ملك المجر[٥١] قد سلب منا مدينتنا (زارا) فى إقليم (سلافونيكا) وهى من امنع الاماكن فى الدنيا وأقواها ، ونحن لن نستطيع ابدا استردادها بجميع مالدينا من الجند الاّ اذا مد لنا هؤلاء الفرنسيون يد المساعدة ، فهيا بنا نسألهم معاونتنا فى استردادنا اياها ، لقاء ان نسمح لهم بتأجيل دفع الاربعة والثلاثين الف مارك فضى المدينين لنا بها ، حتى يأذن الرب لقواتنا المشتركة فى الحصول على هذا المبلغ بعد الفتح » .

---

(٥١) وهو بيلا الثانى Bella II الذى تولى عرش المجر سنة ١١٧٣ بمساعدة اليونان له ، وكان من اصحاب الشخصية القوية حتى لقد خطب وده كثير من ملوك أوربا وكبار رجالاتها . وحدث إبان الحرب الصليبية الثالثة ووقت أن قامت اوربا بفرض مايعرف « بالعشر الصلاحى » وهى الضريبة التى فرضتها لتكوين جيش صليبى اوربى لمحاربة صلاح الدين ، اقول فى هذه الأثناء كتب فى سنة ١١٨٩ هنرى الثانى بلانتاجينيت ملك انجلترا (١١٥٤ – ١١٨٩) إلى الامبراطور فردريك بربروسة وإلى إسحق أنجلوس إمبراطور بيزنطة وإلى بيلا الثانى ملك المجر يعلن إليهم عزمه على الخروج إلى بيت المقدس وإنقاذ مملكتها ، ويسأل هؤلاء الملوك الثلاثة أن يأذنوا له بالسفر عبر ممالكهم ، ثم جاءه سفير الامبراطور الالمانى الكردينال كونراد رئيس أساقفة مينز يسأله أن يأذن لفردريك بربروسة بالسير فى بلاده فأذن لهم وأرسل سفراءه لتحية الصليبيين حين بلغوا مدينة برسْبُوْرج كما استقبل هو وزوجته الامبراطور فردريك . اما علاقته ببيزنطة التى أدت الى حادثة زارا فيما بعد فقد كانت علاقات طيبة حتى إن الامبراطور مانويل كومنين فكر فى سنة ١١٦٧ فى ان يجعله ولى عهده رغبة منه فى أن يضم المجر إليه ، وقد استطاع « بيلا » باتصاله الطيب ببيزنطة ان يرتقى الى عرش المجر سنة ١١٧٣ .

٦٧ - وقدم هذا الاقتراح الى البارونات فقبلوه ، ولم تنكره الاّ تلك الجماعة الرافضة التى كانت تتمنى انحلال جيشنا وتفكيك شمل وحدته .

ومع ذلك فقد قبل اخيرا هذا الاقتراح وصودق عليه فصار ميثاقا .

(١٥)
اشتراك الدوج وبعض البنادقة فى الحملة الصليبية

٦٨ - وفى يوم من ايام الآحاد التالية لهذا الاتفاق اجتمعت طائفة كبيرة من الناس فى كنيسة سان ماركو(٥٢) ، وكان الاجتماع عظيما رائعا حضره كل فرد فى دولة البندقية ، وشاركهم اياه معظم البارونات والحجاج الصليبيون ، وقبل أن يؤدى القوم الصلاة ويتناولوا القربان اعتلى هنرى داندولو منصة التلاوة وخاطب الحشد المجتمع قائلا لهم :

« أيها السادة ، لقد ارتبطتم بأحسن أناس فى العالم وأشجعهم ، وشاركتموهم أعظم مشروع شهدته الدنيا . والآن - وأنا ذلك الشيخ العجوز الفانى الذى هو أحوج مايكون إلى الراحة - أدرك تمام الادراك أنه ليس هناك من هو أولى منى - وأنا حاكمكم - من أن اقودكم وأوجهكم بنفسى ، فإذا رضيتم أن أحمل الصليب لحراستكم وتوجيهكم ، وأن يبقى ابنى مكانى يدبر شئون البلد فى غيابى فإننى سوف أصحبكم انتم والحجاج . أموت معكم إن متم ، وأحيا معكم إن حييتم » .

فلما سمع المجتمعون ذلك منه صاحوا جميعا فى صوت واحد :

« نستحلفك بالرب أن تحمل الصليب وتذهب معنا » .

٦٩ - خفقت فى هذه اللحظة قلوب الحاضرين : فرنسيين كانوا أو بنادقة بالحنان ، وانْهَلَّت الدموع من المآقى غزيرة عطفا على هذا الرجل الصالح ، ذى الهمة البعيدة المرمى ، الذى كان أولى بمثل من كان فى عمره الآن أنْ يبقى فلا يخرج للحرب . لأنه كان كهلا مسنا(٥٣) ، قد كف بصره وان كانت عيناه تبرقان كأنهما تريان ماأمامهما ، إذ كان قد فقد بصره إثر جرح دام أصابه فى رأسه ، ولكنه كان رجلا كبير القلب .

---

(٥٢) أى « القديس مرقص » .

(٥٣) يقال إنه اختير دوقا للبندقية وهو فى الخامسة والثمانين من عمره وكان ذلك قبل الحرب الصليبية بعشر سنوات ، أما فيما يتعلق بذهاب بصره فتذهب الحوليات الروسية التى نشرها C. Hopf إلى أن ذلك كان بسبب قطعة من الزجاج محمية فى النار أصابه بها اليونان حين كان فى القسطنطينية فى سفارة دبلوماسية ، انظر فيما بعد حاشية رقم ١٠٥ صفحة ٨٩

رباه !!

ماأقل أمثاله ، وأتفه ان يقاس به أولئك الذين ذهبوا إلى الموانى الأخرى تجنبا للأخطار !! .

٧٠ – ثم نزل الدوج من على منصة التلاوة وسار ، حتى إذا صار أمام مذبح الكنيسة ركع على ركبتيه واستخرط فى البكاء ، فخاط له القوم صليبا على مقدمة قلنسوته القطنية الكبيرة ، شاء هو ذلك حتى يراه كل ناظر إليه . وأخذت جموع غفيرة من البنادقة فى حمل الصليب ، وكان الذين حملوه منهم حتى هذا اليوم شرذمة قليلون .

٧١ – أما حجاجنا الصليبيون فقد نظروا الى الدوج وهو يأخذ الصليب بنفس فرحة وعاطفة متقدة ، وقد حركتهم شجاعته وحكمته وهو فى السن المتقدمة والتقوى الطيبة .

٧٢ – ثم بادر البنادقة بعد ذلك مباشرة إلى تسليم سفن القتال والشوانى ومراكب النقل إلى البارونات حتى يبدءوا رحلتهم ،لكن كان قد انقضى وقت طويل الى الآن حتى اصبح سبتمبر (١٢٠٢) على وشك الدخول .

(١٦)
رسالة الكسيوس المخلوع ، وموت فولك ومجىء بعض الالمان

٧٣ – والآن ألق إلىّ سمعك لأخبرك بإحدى العجائب[٥٤] العظمى الغربية التى لم يطرق مثلها أُذُنَيْك من قبل ، ذلك انه كان فى القسطنطينية – قبل فترة قصيرة من الوقت الذى احدثك عنه – احد الاباطرة واسمه اسحق ، وكان له اخ يدعى الكسيوس[٥٥] قد استنقذه اخوه من أسْرِ الترك بفدية افتداه بها ، لكن الكسيوس هذا سلك سبيل الخيانة

---

(٥٤) فيما يتعلق بهذه العبارة التى يكثر ترددها فى مذكرات فلهاردوان راجع المقدمة العربية من هذه الترجمة .

(٥٥) يعنى بذلك ألكسيوس انجيلوس الامبراطور البيزنطى (١١٩٥ – ١٢٠٣م) الذى اغتصب العرش من أخيه اسحق (١١٨٥ – ١١٩٥) وسمل عينيه وحل مكانه ، ولم يكن أحدهما احسن من الآخر فى سياسته ، وزج الكسيوس بابن اخيه وسَمِيّه الكسيوس بن اسحق فى الحبس ، والذى سنعرفه فى تاريخ بيزنطة بألكسيوس الرابع والذى يكون فصلا حزينا داميا من تاريخ بيزنطة فى الحرب الصليبية الرابعة ، انظر فى ذلك Y. Ostrogorsky: History of the Byzantine State (trans. by Prof Joan Hussey), pp. 410 fol.; Vasiliev: Hist. of the Byzantine Empire, Vol. II, pp. 439, 440 & 459.

فسجن أخاه إسحق وسمل عينيه ، ثم نصب نفسه امبراطورا مكانه وابقى إسحق زمنا طويلا فى الحبس مع ولد له اسمه الكسيوس الامير الصغير الذى استطاع الهرب من سجنه ، وفر على سفينة الى مدينة واقعة على البحر اسمها (انكونا)[٥٦] حيث رحل منها قاصدا زوج اخته فيليب ملك المانيا ، فلما وصل الى (فيرونا) تريث فيها فترة قصيرة وقابل بعضا من الحجاج وغيرهم ممن كانوا فى طريقهم للانضمام إلى الجيش الصليبى .

٧٤ — فقال له الذين ساعدوه على الفرار وكانوا لايزالون معه : « مولانا[٥٧] ، يوجد على مقربة منا بالبندقية جيش مؤلف من علية القوم ، وأشجع فرسان الدنيا ، وهم على وشك السفر إلى ماوراء البحر ، فهلّا مضيت إليهم ملتمسا منهم العطف عليك وعلى أبيك الذى خُلع من عرشه ظلما ؟ فإن قبلوا مساعدتك كان ذلك خيرا لك وفلاحاً لأمرك » .

فأجابهم الأمير الشاب الكسيوس إنه سيفعل ذلك راضيا لأنهم يمحضونه النصيحة مخلصين .

٧٥ — لذلك عين رسلا من قِبَله أرسلهم الى المركيز بونيفاس دى مونتفرات الذى كانت إليه قيادة الجيش العامة ، كما بعث بهم إلى من دونه من البارونات .

٧٦ — ولما قابلهم البارونات وعرفوا منهم خبر صاحبهم عجبوا للامر غاية العجب ثم قالوا لهم : « لقد استوعبنا جيدا ماذكرتموه ، وسنبعث مع الامير رسولا الى الملك فيليب ، فان رغب الامير فى مساعدتنا فى استرداد الأرض المقدّسة ساعدناه فى استرداد مملكته ، لأننا نعرف انها اغتصبت منه ومن أبيه ظلما وقهرا » .

هكذا ارسلت الرسل الى المانيا : لكل من حاكم القسطنطينية وللملك فيليب .

٧٧ — على انه قبل حدوث ماخبرتك به حالا ، جاء الى الجيش خبر أحزن البارونات وغيرهم وملأ نفوسهم ترحا ، ذلك هو نبأ موت الرجل الطوبانى فولك الذى كان أول من دعى للحرب الصليبية .

---

(٥٦) وهى ميناء ايطالى فى الجنوب من شبه الجزيرة وقد لعب دورا كبيرا فى هذه الحرب .

(٥٧) يبدو من هذه العبارات التى يضعها فلهاردوان على لسان حاشية ألكسيوس بن إسحق أن هؤلاء هم الذين أغروا ألكسيوس بذلك ، وهو بذلك يدفع التهمة عن فيليب دى سوابيا ، كما يوحى للقارىء أنه لم تكن ثم صلة بينه وبين الفرنجة ولا البنادقة ، وان اللقاء كان بلا سابق تمهيد .

وتلى هذا الخبر الدامى ان جاءت الى الجيش من المانيا طائفة من الصلحاء والعظماء وجلة القوم بها ، منهم اسقف « هلبرشتادت » و « برتولد » كونت « كاتز لنبوجن » و « اسكندر دى فيللير » و « اولريك دى ثون » وغيرهم من الصالحين ممن لم يتضمن هذا الكتاب اسماءهم .

فانتعشت النفوس بمقدمهم .

* * *

(١٧)
الصليبيون يغادرون البندقية ويحاصرون زارا

٧٨ – حان الوقت الآن للبارونات كى يوزعوا سفن الحرب والنقل على القيادات المختلفة .

فبالله ماكان أجمل وأقوى جياد الحرب تلك التى فى القسم الاسفل من السفن التى ماكادت تشحن كلها بالسلاح والذخائر والمئونة ويدخلها الفرسان والسرجندية حتى كنت ترى الدروع حول حوائط السفن وابراجها الخشبية ، والرايات الكثيرة الرائعة تخفق فيداعبها الريح فتميل هنا وهناك .

وأستطيع ان أؤكد لك ان سفن القتال كانت تحمل اكثر من ثلاث مائة من آلات الرمى والمجانيق ، ومجموعة كبيرة من العُدد والآلات التى يحتاج اليها فى الاستيلاء على مدينة من المدن ، ولم يسبق أن خرج من إحدى الموانىء أسطول يفوق هذا الأسطول روعة وجمالا ، وتحدد وقت إبحاره من البندقية فكان اليوم الثامن من الاحتفال بعيد سنت ديميجيوس من سنة الف ومائتين واثنتين ميلادية .

٧٩ – فلما كانت ليلة[٥٨] عيد سنت مارتن وقف جيشنا أمام زارا[٥٩] فى سكلافونيا ، ورأى المدينة محاطة بالاسوار العالية والابراج الشاهقة ، وانك لتطلب المحال ان فكرت ان تجد بلدا يشأو هذا البلد فى جماله أو يبزه حَصانةً أو يكون اكثر منه رخاء ،

---

(٥٨) اى العاشر من نوفمبر ١٢٠٣هـ (=٢١ صفر سنة ٥٥٩هـ) .

(٥٩) كانت « زارا » الميناء البحرى فى ساحل دلماشيا تابعة للبندقية حتى سنة ١١٨٦م ، ولكن أخذ ملوك المجر واصحاب الأمر هناك فى إثارة مدن الساحل الدلماشى ومدنه ضد البندقية التى ذهبت عبثا محاولاتها المتكررة لاسترداد زارا .

فماكاد الحجاج يطالعون المدينة حتى امتلأت نفوسهم اعجابا ودهشة ، وراح كل منهم يقول للآخر :

« أى قوة تستطيع ان تأخذ مثل هذه المدينة الاّ ان تكون مؤيدة بقوة الرب !! » .

القت أولى السفن وصولا الى زارا مراسيها عندها ووقفت فى انتظار الاخريات ، واشرق صباح الغد عن يوم صاف رائع ، واقبلت الشوانى وسفن النقل وخلفها الاغربة ، فاستولت على المدينة عنوة ، وحطمت السلاسل الغليظة التى تعوق سفن المهاجمين ، ثم ارسى الجيش فى محلة اختارها صارت الميناءُ فيها بينها وبين البلد .

٨٠ – وتلى ذلك منظر كان من اروع المناظر وابهجها ، تَمَثَّل فى خروج الفرسان والسرجندية من سفن القتال ، واخراجهم جياد الحرب من مراكبها ، كما كنت ترى خياما وفساطيط جميلة لايحصيها العدّ قد انزلت الى البر لنصبها ، وهكذا عَسْكَرَت قواتنا أمام زارا وأخذت فى محاصرتها يوم[٦٠] الاحتفال بعيد سنت مارتن .

لم يكن كل البارونات قد وصلوا حتى هذه اللحظة ، فقد كان المركيز دى مونتفرات متغيبا اذ تخلّف لانجاز عمل يعنيه أخّره عن مصاحبتنا .

٨١ – كذلك كان « اتيين دى بيرش » و « ماثيو دى مونتمورنسى » لايزالان فى البندقية مريضين ، لكن ماكادت العلة تزايلهما حتى بادر ثانيهما إلى اللحوق بنا والانضمام الى قواتنا الموجودة امام زارا ، اما « اتيين دى بيرش » فقد سلك مسلكا لايحمد عليه لانه فرّ من الجيش ومضى ليقيم فترة فى « ابوليا » ، وصحبه فى تخلّفه « روترو دى مونتفورت » و « ايفيز دى لاجيل » . وطائفة اخرى لامهم الناس كثيرا لتقصيرهم ، ثم أبحروا الى الشام فى ربيع السنة التالية .

(١٨)
سقوط زارا فى ايدى الصليبيين
واستيلاء الصليبيين عليها

٨٢ – وفى الصباح التالى لعيد سنت مارتن جاءت جماعة معينة من اهل زارا من المدينة ومضوا لمحادثة دوج البندقية فى فسطاطه ، واخبروه انهم يعرضون عليه تسليمه البلد وكل مافيه لتكون فى يده وتحت رحمته لى ان يؤمنهم على حياتهم جميعا ، فرد عليهم

---

(٦٠) أى يوم ١١ نوفمبر ١٢٠٢ (الأحد ٢٢ صفر ٥٩٩هـ) .

الدوج انه غير قادر على قبول عروضهم ولاغيرها ، قَبْل أنْ يشاوِر البارونات الذين سيذهب اليهم حالا ويبحث الوضع معهم .

٨٣ – وبينما كان الدوج فى طريقه الى الكونتات والبارونات إذا بالجماعة التى ذكرتها[٦١] من قبل والتى كانت ترمى الى تبديد الجيش تأتى الى الوفد القادم من زارا وتقول لرجاله :

« لماذا تريدون تسليم بلدكم ؟ .. ان الفرنسيين[٦٢] لن يهاجموكم ، فلا تلقوا بالا إليهم ولاتكترثوا بهم ، وليس ثم مايخيفكم منهم .

أما إذا استطعتم الدفاع عن أنفسكم ضد البنادقة فستكونون آمنين على انفسكم » .

٨٤ – واختار هؤلاء المهيّجون واحدا من بينهم اسمه « روبرت دى بوفيز » بعثوا به الى اسوار المدينة وقال لاهلها نفس الكلام الذى سمعتَه . ومن ثم عاد الرسل الى المدينة وفشلت المفاوضات .

قابل الدوج فى هذه الأثناء الكونتات والبارونات وقال لهم :

« ايها السادة ، إن أهل هذه المدينة مستعدون لتسليمها لى ، لقاء المن عليهم بالحياة ، لكننى لن اعقد معهم الصلح على هذه الشروط أو غيرها إلاّ برضاكم » .

فأجابه البارونات :

« مولانا الدوج ، انا ننصحك ، بل نتوسل اليك – ان تقبل شروطهم التى تقدّموا بها » .

فقال أنه فاعل ماقضوا به وآخذ بنصحهم ، ثم عادوا جميعا الى فسطاط الدوج لامضاء الاتفاق ولكنهم وجدوا رجال الوفد قد انكفأوا عائدين من حيث جاءوا نزولا على نصيحة الناصحين[٦٣] لهم ، الراغبين فى تفريق شمل الجيش .

٨٥ – ثم وقف رئيس دير « فو » من جماعة الاخوان البيض وقال لهم : « ايها السادة ، اننى انهاكم – باسم بابا روما – من مهاجمة هذه المدينة ، لأن أهلها مسيحيون ، وانتم تحملون الصليب » .

---

(٦١) يقصد المؤلف الجماعة التى وصفها بأنها كانت تريد إيقاع ذات البين فى صفوف الصليبيين ، وتود ان تعود كل طائفة إلى بلدها .

(٦٢) فى « مز » « الحجاج » .

(٦٣) يقصد بذلك طائفة روبرت دى موفيز .

فلما سمع الدوج هذا القول غضب(٦٤) اشد الغضب وأحْنَقَه هذا الاحتجاج ، ثم التفت الى الكونتات والبارونات قائلا لهم :

« ايها السادة قد خُوِّلْتُ كامل السلطة فى ان اعقد مع هذه المدينة ماشاء من الشروط ، ولكن قومكم ينكرون عَلَيَّ هذا الحق ويسلبوننى اياه ، ومع ذلك فقد وعدتمونى ان تمدو الىّ يد المساعدة فى فتحها ، والآن أدعوكم للمحافظة على كلمتكم والوفاء بها » .

٨٦ – حينذاك انسحب الكونتات والبارونات ومن يؤيدونهم للتشاور فيما بينهم ثم قالوا :

« ان الذين كانوا سببا فى فشل المفاوضات قد جاءوا امرا إدًّا ، ومامر يوم دون ان يحاولوا تحطيم جيشنا ، وانا لنلطخ نفسنا بالعار ان لم ننهض لمساعدة الدوج فى الاستيلاء على المدينة » .

ثم جاءوا الى الدوج وقالوا له :

« ياصاحب السمو ، سنساعدكم فى فتح المدينة رغم انف الذين تخلوا عنا وحاولوا إعاقتنا » .

كان هذا هو قرارهم الذى اتخذوه .

٨٧ – وفى صباح اليوم التالى عسكرت القوات امام ابواب المدينة ونصبوا آلات الرمى والمجانيق وغيرها من الآت القتال التى كانت لديهم منها وفرة كبيرة ، كما انهم اخرجوا من ناحية البحر سلالم التسلق من السفن ، وراحوا يقذفون أسوار المدينة وأبراجها بالحجارة ، وأَخذ الحفارون فى مَلْغَمَةِ الأبراج واحدا بعد آخر واستمر الهجوم حوالى خمسة أيام ، فلما رآى من بداخل زارا ماهو جار حولها عرضوا ان يستسلموا على نفس الشروط السابقة التى رفضوها بناء على نصيحة اولئك الذين يريدون تشتيت جيشنا .

---

(٦٤) الواقع أن المعارضة البابوية لفتح زارا بدأت من قبل ذلك اليوم ، إذ أن البابا إنوسنت الثالث كان قد بعث بطرس الأمالفى إلى البندقية قبل ابحار الاسطول الصليبى ليكون نائبه ، فلم يرض الدوق ورجاله بذلك وخافوا أن يتدخل فى خطتهم لفتح زارا ، ومن ثم أخبره الدوق بأنه يرحب به واعظا لانائبا ، وهدده إن لم يقبل ذلك فعليه أن يعود إلى روما .

فعاد وأخبر البابا بما كان وعرفه ماترامى إلى سمعه من أن الصليبيين مزمعون فتح « احدى المدن المسيحية » فبادر البابا بإرسال كتاب إلى المحاربين يمنعهم من ذلك ، وبعث به على يد رسوله « بطرس لوشيديو » . اما ذلك الراهب رئيس دير « فو » فاسمه « جى دى سرتاى » ، ويقال إنه كان يؤيده فى هذا المنع سيمون دى مونتفرات وعدد كبير من البارونات ممن يتهمهم فلهاردوان بالعمل ضد وحدة الجيش الصليبى .

(١٩)
دخول الصليبيين زارا والنزاع بينهم وبين البنادقة

٨٨ – هكذا استسلمت زارا للدوج وأسلمت مصيرها اليه ، لاشرط لها إلاّ أن يَسْلَم اهلوها على ارواحهم ، ثم جاء الدوج إلى الكونتات والبارونات وقال لهم : « أيها السادة : لقد استولينا على هذه المدينة بعون من الرب وبتأييدكم ، ونحن الآن فى فصل الشتاء ولانستطيع ان نتحرك من هنا قبل عيد الفصح ، لأننا لن نجد ميرة نعيش عليها فى اى مكان آخر ، وهذه المدينة كما ترون غنية بالأطعمة والذخيرة ، وبكل مانحتاجه ، فهيا بنا نقسمها شطرين نقيم فى أحدهما وتقيمون فى الآخر »

واستجبنا جميعا لما قال ، فأخذ البنادقة شطر المدينة المتجه الى الميناء حيث توجد السفن ، وأخذ الفرنجة القسم الآخر من الميناء ، وخصصت دور لاقامة كل من الطرفين ثم اقام الجيش معسكره ورابط فى الاحياء الواقعة وسط المدينة .

٨٩ – ولما كان اليوم الثالث وقد استقر كل واحد فى سكنه الخاص أَلَمَّ بِنَا خطب جسيم وقت الغروب وأدَّى الى اهوال جسام قاساها جيشنا ، ذلك ان طائفة من الفرنجة والبنادقة تشاجر بعضهم مع بعض شجارا جاوز حده ، وهب معهم غيرهم بالسلاح ينجدون هذا وذاك ضد الآخر ، واستمر الشجار والقتال حتى لم يبق شارع من شوارع المدينة الا وقد التحم فيه الجانبان بالسيوف والحراب والرماح والنشاب والاقواس ، وتمخض القتال عن كثير من القتلى والجرحى .

٩٠ – على أنَّ البنادقة لم يستطيعوا الصمود فى المعركة ، وتكبدوا خسائر جمة ، وحينذاك جاء عقلاء من الجانبين فى كامل سلاحهم كرهوا ان ينشب بين الطرفين مثل هذا القتال ، فنزلوا بينهم واخذوا فى فصل بعضهم عن البعض الآخر ، وكانوا كلما اقرُّوا الهدوء فى ناحية انتقلوا الى غيرها ، واستمر هذا الامر معظم الليل ونجحوا بعد لأى وجهد كبيرين فى فصْل المتقاتلين بعضهم عن بعض .

ولتعلم ان هذا عُدَّ اكبر خطب ابتلى به جيش من الجيوش ، وكانت نجاة جيشنا إحدى المعجزات اذ كاد أن يفنى عن آخره . ولكن الرب لم يشأ لنا هذه الخاتمة التعيسة .

لقد كانت خسارة كل من الجانبين كبيرة ، ولقد كان من بين القتلى نبيل من أهْل فلاندرز اسمه « جيل دى لانداس » اصابته ضربة فى عينه فهلك منها فى اثناء المعركة ، وكانت هناك خسائر اخرى جمة لكنها لم تجد من يتحَدَّث عنها .

٩١ – ولقد بذل دوج البندقية والبارونات اقصى جهدهم طوال اسبوع باكمله فى اطفاء نائرة الفتنة ، وكان لبذلهم أثره الفعال فى إقرار السلام .
فشكراً لله على فضله .

(٢٠)
عروض الكسيوس على الصليبيين لمساعدته فى فتح القسطنطينية

٩٢ – بعد اسبوعين من هذا الحادث جاء (زارا) المركيز بونيفاس دى مونتفرات الذى لم يكن قد اشترك مع الحملة حتى ذلك الوقت ، وجاء معه ماثيو دى مونت مورنس وبطرس دى براسيو وغيرهما من ذوى المكانة .

وبعد ذلك باسبوعين ايضا جاءت رسل من المانيا انفذهم ملكها فيليب وولى عهد القسطنطينية ، وحينذاك اجتمع البارونات ودوج البندقية فى القصر الذى كان ينزله الدوج ، وخاطبهم السفراء الالمان قائلين لهم :

« لقد ارسلَنا اليكم الملك فيليب وكذلك اخو[٦٥] زوجته ابن امبراطور القسطنطينية .

« يقول لكم الملك ايها السادة ، اننى مرسل اليكم بأخ زوجتى وأَسْتَوْدِعُه بين يدى الرب ليحفظه من الهلاك وبين أيديكم ، ولما كنتم قد خرجتم من أجل خدمة الرب وفى سبيله ، ومن أجل الحق والعدالة ، فإنّ واجبكم يقتضيكم أن تبذلوا غاية سعيكم لرد كل حق مغتصب لصاحبه الشرعى ، وإن الأمير الكسيوس سوف يقدم لكم احسن الشروط التى قدمت لقوم ما ، وسيرفدكم بأعظم معونة لاسترداد ارض ماوراء البحر » .

« وأول شىء يفعله (إنْ أذِن الرب برد أرضه إليه على أيديكم) هو أن يضع الامبراطورية باكملها تحت سلطان روما التى انفصمت عنها منذ زمن بعيد ، وثانيا فإنه إدراكا منه بأنكم صرفتم كل مالديكم من المال ولم يعد لديكم منه شىء أبدا فإنه ممدكم بمائتى ألف قطعة فضية ويتعهد بتموين كل محارب:من الجندى البسيط الى القائد .

---

(٦٥) يقصد بذلك الأمير الكسيوس بن الامبراطور المخلوع إسحق والذى سيتولى عرش القسطنطينية بمعونة الصليبيين وسوف يعرف منذ ذلك الحين باسم الامبراطور ألكسيوس الرابع .

« وزيادة على ذلك فإنه سيصحبكم بنفسه الى مصر على رأس عشرة آلاف محارب ، فإنْ لم تشاءوه معكم أَمَدَّكم بنفس العدد من الجند الذين يحاربون تحت لوائكم متكفلا باعاشتهم من جيبه الخاص لمدة عام واحد .

« وبالاضافة الى هذا كله فانه سوف يبعث بخمس مائة فارس لحراسة أرض ماوراء البحر يقيمون هناك اقامة دائمة ويتكفل بالصرف عليهم طول حياته ومن ماله الخاص !! » .

٩٣ – وأضاف الرسل الى ذلك قائلين :

« ايها السادة ، اننا مُخَوَّلون تخويلا كاملا ان نمضى هذا الاتفاق اذا قبلتم بنوده ووقعتموه ، ونحب ان نبين لكم انه لم يسبق ابدا أن قدمت مثل هذه العروض السخية لاحد ما ، فمن رفضها كان مجردا من الرغبة فى المجد وفتح بلاد ماوراء البحر » .

فأجابهم البارونات ودوج البندقية انهم سيناقشون الموضوع فيما بينهم ، ومن ثم عقدوا فى اليوم التالى مؤتمرا لم يكد يتكامل أعضاؤه حتى عرض عليهم الاتفاق لابداء الرأى .

* * *

(٢١)
الخلاف بين الصليبيين وماكان من شأن الذين قبلوا العرض

٩٤ – ثار الجدل عنيفا بين المجتمعين ، وتكلم رئيس دير « فو »[٦٦] الذى هو من جماعة الرهبان البيض .

٩٥ – كما تكلم بعض أفراد الطائفة التى تتمنى فشل الجيش فقالوا إنهم يشجبون هذا الاتفاق ويرفضونه رفضا باتا ، لأنه يعنى محاربتهم المسيحيين ، وقالوا ايضا إنهم لم يخرجوا من ديارهم لشىء من هذا القبيل ، ويقولون نيابة عن جماعتهم إنهم يرغبون فى الذهاب الى بلاد الشام .

فأجابهم الفريق الآخر :

---

(٦٦) انظر الحاشية رقم ٦٤ .

« ايها السادة الصلحاء ، انكم لاتستطيعون انجاز شيء ماإنْ انتُم ذهبتم الى بلاد الشام . تتبينون ذلك فى جلاء تام ان تأملتم مصير اولئك الذين انفصلوا عنا للابحار من الموانىء الاخرى ، ونحن نصّر اصرارا لاشبهة فيه على أنه إنْ قضى الرب ان نسترد ارض ماوراء البحر فلن يكون ذلك الاّ عن طريق مصر وبلاد اليونان ، فان رفضنا نحن هذا الاتفاق جللّنا انفسنا بالعار الى الأبد »

٩٦ — حدث انشقاق فى الجيش كما سمعت ، ولاتتعجب من ان يسرى هذا الشقاق الى صفوف العلمانيين بعد أن دّب بين رجال الجيش .

٩٧ — ولقد قام رئيس ديرلوس – وكان رجلا تقيا فاضلا – وقام معه غيره من الديريين الذين أيدوه ، وراحوا يستعطفون المحاربين ويتوسلون اليهم باسم الرب أن يحفظوا على الحجاج وحدتهم ، وأن يقبلوا الاتفاق المعروض عليهم ، لأنه – كما بينوا – اتفاق يتيح فرصة نادرة قَلَّ ان يجود بمثلها الزمان لاسترداد ارض ماوراء البحر .

ومن ناحية أخرى قام رئيس دير « فو » هو ومن معه من رجال الدين الذين يؤمون سمته – بالخطابة فى الجيش واكثروا من ذلك مرارا عديدة ، مبينين ماانطوت عليه خطة الفريق الآخر من مضرة بالغة وماتؤدى اليه من خسارة شاملة ، وانه أحرى بهؤلاء أنْ يتجهوا مباشرة الى بلاد الشام ، ثم يفعلون هناك مايستطيعونه .

٩٨ — وعند هذا المنعطف جاء مركيز دى مونتفرات وكونت بلدوين دى فلاندرز وهينولت ، ولويس كونت بلوا وشارتر ، وهيج كونت سنت بول وجاء معهم كثيرون غيرهم ممن يرون رأيهم ، وتدخلوا فى النزاع الدائر ثم اعلنوا انهم من جانبهم يعتزمون قبول الاتفاق ، ويرون العار فى رفضه .

٩٩ — ومن ثم مضوا الى قصر الدوج حيث تم استدعاء سفراء الملك فيليب ، واجازوا جميعهم الاتفاقية بنفس الشروط التى سمعتها من قبل ، وأكدوا اجازتهم اياها بالأيمان ، وأمضوا وثائقها ، وختموها بأختامهم .

وان هذا الكتاب ليخبرك ان الذين اقسموا اليمين على هذه الاتفاقية كانوا اثنى عشر رجلا فقط نيابة عن الفرنسيين ، اذ لم يكن فى الامكان جمع اكثر منهم .

وكان على رأسهم هؤلاء الاثنى عشر المركيز دى مونتفرات وكونت بلدوين دى فلاندرز ولويس كونت بلوا وشارتر وكونت سنت بول ومعهم ثمانية آخرون دونهم ، وبذلك تمت الموافقة على الاتفاقية وكتبت الوثائق والمراسيم .

وعينوا يوما يصل فيه إليهم أمير[٦٧] القسطنطينية ، وجعلوا هذا اليوم بعد أسبوعين من عيد فصح السنة التالية .

* * *

(٢٢)
المنشقون الذاهبون الى الشام واسطول كونت فلاندرز

١٠٠ – امضى الجيش الصليبى الشتاء فى زارا دفعا لغارة قد يشنها عليها ملك المجر ويباغتها بها . ولتعلم ان الجزع كان يسيطر على قلوب رجالنا ، والحسرة تعصرها ، لأن فريقا من الناس دأب على عمل مافيه خراب الجيش وفشل ريحه ، على حين كان الفريق الآخر يسعى لوحدته .

١٠١ – وفى هذه الاثناء فرّ كثير من طبقات المحاربين الدنيا على ظهور السفن التجارية ، حتى إن خمسمائة منهم تكدسوا على ظهر سفينة واحدة فأثقلها جمعهم فغرقت فهلكوا جميعا . كما فرت طائفة أخرى عبر اليابسة ظنا منها أنها واجدة السلامة والأمن خلال سكلافونيا ، ولكن خرج عليهم أهل هذه الناحية وهاجموهم وقتلوا الكثيرين منهم ، أما الذين قيضت لهم الحياة فقد انقلبوا على أعقابهم سراعا الى الجيش .

وبهذا أخذ الجيش فى التضاؤل يوما بعد يوم ، وحدث فى نفس الوقت أن قام « جارنييه فون بورلاند » الالمانى ، وكنا نُنْزِلُه منزلة القيادة فى الجيش ، اقول إنه قام فركب إحدى السفن التجارية وأبِقَ تاركا ايانا وراءه ، فاستحق اللوم الكبير على هذا المسلك .

١٠٢ – لم يمض وقت طويل على تلك الأحداث حتى قام أحد كبار بارونات فرنسا واسمه رينو[٦٨] دى مونتميريل ومعه جماعة من الفرسان الصليبيين وألحوّا على كونت لويس أن يرسلهم الى الشام فى سفارة على إحدى سفن الأسطول وأقسموا – وأيديهم اليمنى على الآثار المقدسة – أنهم عائدون جميعا إلى الجيش بعد خمسة عشر يوما من وصولهم إلى بلاد الشام وتسليم مامعهم من الرسائل ، فأذن له الكونت لويس بالسفر على

---

(٦٧) المقصود بذلك الأمير الشاب الكسيوس بن اسحق انجيلوس ، أخو زوجة فيليب دى سوابيا ملك ألمانيا .

(٦٨) كان رينو (أو رينالد) دى مونتميريل من أوائل بارونات الشمال فى فرنسا الذين انضموا للحملة منذ البداية ، وكان انضمامه إليها مواكبا لزمن انخراط فلهاردوان فيها .

هذا الشرط ، واستصحب رينو دى مونتميريل معه ابن اخيه هارفى دى شاستيل ووليم دى شارتر وجودفرى دى بيمونت وجون دى فروفيل وأخاه بطرس وكثيرين غيرهم ، ولكنهم لم يبرّوا باليمين التى أقسموها لأنهم لم يعودوا بعدئذ أبدا إلى الجيش .

١٠٣ – ثم بلغ الجيش نبأ نديت له القلوب وهو وصول أسطول من فلاندرز – كنت أنبأتك بخبره من قبل – إلى مرسيليا ، وإذ ذاك جاء جون دى نيل مقدم هذا الجيش وتييرى – ابن فيليب كونت فلاندرز ونيكولاى دى ميللى ، جاء هؤلاء جميعا إلى مولاهم وأنبأوه انهم معتزمون قضاء الشتاء فى مرسيليا ، وسألوه أن يوقفهم على نيته وأعلموه أنهم منفذون مايريدون منهم مهما كان صعبا ، فأشار عليهم – نزولا على نصيحة دوج البندقية والبارونات الفرنسيين – ان يبحروا فى نهاية مارس القادم ، وان يأتوا لمقابلته فى سهل مدثون ببلاد الروم ولكنهم – واأسفاه – سلكوا اقبح مسلك فلم يبروا ابدا بكلمتهم ، بل ذهبوا الى بلاد الشام حيث كانوا يعرفون انهم لن ينجزوا عملا ما من الأعمال الصليبية .

١٠٤ – ولتعلموا الآن أيها السادة – أنه لولا حب الرب للجيش لما استقام أمره من جراء كثرة الراغبين فى إلحاق الضرر به .

(٢٣)
صدور العفو البابوى عمن فتحوا زارا

١٠٥ – ثم تكلم[٦٩] البارونات فيما بينهم وقالوا[٧٠] إنهم مرسِلون إلى البابا فى روما[٧١] يخبرونه بماتَمَّ لأنه كان يعتبر الاستيلاء على زارا امرا ينطوى على الشر ، واختاروا لهذه المهمة من ادركوا انهم أهل لها فكانوا اثنين من الفرسان ومثلهما من رجال الدين .

وكان أحد رجلى الدين هو « نيفيلون » اسقف سواسون ، أمّا الآخر فهو جون دى نويون الذى كان مستشارا لبلدوين كونت فلاندرز . واما الفارسان فأحدهما جون دى فريز وثانيهما روبرت دى بوفيز . ثم اقسم الأربعة كلهم على الآثار المقدسة انهم سيلتزمون الأمانة والصدق فى اداء رسالتهم ثم يعودون للانضمام الى الجيش .

---

(٦٩) فى شو « وفى اثناء الشتاء تكلم .. »

(٧٠) فى شو « وقرروا »

(٧١) جاء بعد هذا فى نسخة شو « الذى كان شديد الغضب عليهم بسبب استيلائهم على زارا » .

١٠٦ – حافظ ثلاثة منهم على أيمانهم ، اما الرابع وهو روبرت دى بوفيز فقد نهج نهجا باطلا شريرا لأنه اساء تنفيذ المهمة المناطة به اذ حنث فى يمينه ورحل الى بلاد الشام كما فعل آخرون سواه .

اما رفاقه الثلاثة فقد انجزوها على خير وجه وسلموا الرسالة(٧٢) الى البابا وفق ارشادات البارونات وقالوا له : « إن(٧٣) البارونات يلتمسون عطفك ويرجون تأييدك فيما قاموا به من الاستيلاء على زارا ، لانهم سلكوا سبيلا ماكان لهم ان يسلكوا خيرا منه ، وعلة ذلك خطيئة الذين ذهبوا إلى الموانىء الأخرى ، ولولم ينهج البارونات هذا النهج الذى اتخذوه لذهب الجيش بددا ، ومن أجل هذا فإنهم يضعون أنفسهم بين يديك أنت أيها الأب الصالح راجين أن تنبئهم ، فَمُرْهم بما يرضيكَ ولن تجدهم الآ ملبين طائعين » .

١٠٧ – فقال البابا للرسل بأنه مدرك غاية الادراك ان خطأ الآخرين ارغمهم على ارتكاب(٧٤) هذه الشناعة العظمى ، وانه يحس بالرثاء لهم والشفقة عليهم ، ثم إن البابا(٧٥) اخبر البارونات والحجاج انه باعث اليهم ببركاته وغافر لهم خطاياهم لأنهم أبناؤه ، ودعاهم الى العمل على تماسك وحدة الجيش ليقينه التام بأن خدمة الرب لن تتحقق بدون هذا العسكر ، ثم أعطى كل الصلاحية لنيفيليون اسقف سواسون والسيد جون دى نويون Noyon بأن يكون لهما الحل والربط بين الحجاج حتى يبعث كردیناله اليهم .

---

(٧٢) فى مز « رسالتهم »

(٧٣) فى شو « ياصاحب القداسة ، ان سادتنا يلتمسون منك أن تتعطف فتنظر بعين الرحمة لاستيلائهم على زارا »

(٧٤) كان ذلك فى فبراير ١٢٠٣ ، وانظر النص الوارد بشأن هذا الموقف فى Innocent III, Epistolae (M. P. J.) No.162.

(٧٥) فى شو « ومن ثم بعث البابا برسالة إلى البارونات وغيرهم من الصليبيين يهنئهم ويباركهم ، ثم أمرهم أن يحافظوا على وحدة الجيش ، ولاندرى من أين جاء مترجم نسخة « شو » بهذه العبارات ، ولعله رجع الى نسخة من نسخ هذه المذكرات التى تداول كتابتها كثير من الأيدى . فإن صح هذا الخبر فإنه يضع انوسنت الثالث موضع شك فى التاريخ أو على الاقل يجعل منه رجلا ينحنى للعاصفة ، ولكنها عاصفة ماكان ينبغى له ابدا ان ينحنى لها مادامت تمس شرف كلمته اولا ، ورعايته للصالح المسيحى ثانيا ، ويبدو أن شيئا من هذا لم يحدث ، إذ أن الثابت أن البابا عفا عن اللاتين ، ولكنه بعث بقرار الحرمان ضد هنرى داندولو والبنادقة ، ولكن تعمَّد بونيفاس ومن معه من البارونات أخفاء هذا القرار وكتبوا إلى البابا ينبئونه انهم أخفوا قراره حتى لاتتفكك وحدة الجيش وقالوا له إنهم مستعدون لاذاعة القرار إذ أصر البابا على ذلك ، انظر : Innocent III Epistolae, an VI, nos 99-100

(٢٤)
الرحيل الى كورفو ووصول الشاب ألكسيوس

١٠٨ - انقضى وقت طويل وأصبحنا[٧٦] فى الصوم الكبير وأخذ الجيش فى إعداد اساطيله للاقلاع فى عيد الفصح[٧٧] ، فلما اوسقت السفن غداة هذا العيد اقام الحجاج معسكرهم عند الميناء ، وأخذ البنادقة فى قصف المدينة فهدموا اسوارها وابراجها وسووها بالأرض .

١٠٩ - ثم حدثت نكبة كان وقعها ثقيلا على الجند حين عقد أحد كبار[٧٨] باروناتهم واسمه سيمون دى مونتفورت اتفاقا خاصا مع عدونا[٧٩] ملك المجر ، وذهب اليه هاجرا[٨٠] الحملة ، وقد صحبه اخوه جى دى مونتفرات وسيمون دى نوفل وروبرت موفوازان ودرو دى كرسونساك ورنيى ديرفو وهو من الرهبان السسترسان Cistercians وكثيرون غيرهم ، ثم لم ينقض امد طويل حتى انضم الى ملك المجر أحد كبار رجالات الصليبيين الفرنسيين واسمه انجيران دى بوفيز وأخوه هيج وعدد كبير ممن لف لفهما من أبناء بلدهما وممن استطاعا ضمهم الى جانبهما .

١١٠ - انفصل هؤلاء عن الجيش كما سمعت ، فكان ذلك بلية كبرى على الحملة وعارا كبيرا لمن انشقوا عليها .

ثم شرعت السفن ومراكب الحمولة فى الرحيل ، وتم الاتفاق على ان يكون رُسُوُّهُم فى كورفو وهى احدى جزر رومانيا[٨١] ، على ان ينتظر السابق اللاحق حتى يلتئم الجيش كله هناك وانفصلوا متفقين على ذلك .

١١١ - على انه قبل رحيل الدوج[٨٢] والمركيز والسفن عن مدينة زارا جاء الكسيوس بن اسحق امبراطور القسطنطينية الذى كان موفداً من ناحية فيليب ملك

---

(٧٦) يلاحظ أن نسخة شو تضع الأفعال فى هذه الحملة على لسان الغائب .

(٧٧) وكان ذلك يوم ٧ ابريل ١٢٠٣ (= ١٩ رجب ٥٩٩هـ) .

(٧٨) فى شو « أحد البارونات الكبار من قادة المعسكر » ويلاحظ ان المقصود هنا هو سيمون دى مونتفورت الذى لم يكن ينظر بعين الرضا إلى البندقية ولا إلى الهجوم على زارا ، ومن ثم فإنه كان إلى جانب جى رئيس اساقفة دير فو الذى خطب من قبل ناهيا عن هذا الهجوم باسم البابا . انظر ماسبق حاشية رقم ٦٤ .

(٧٩) فى مز « ملك المجر الذى كان على عداء مع بارونات الجيش »

(٨٠) لم ترد عبارة « هاجرا الحملة » فى مز .

(٨١) بدلها فى شو « القسطنطينية » .

(٨٢) أى دوق البندقية هنرى داندولو . واما المركيز فهو بونيفاس دى مونتفرات .

المانيا ، فقوبل بالفرحة الكبرى والتعظيم الكبير ، وزوَّده الدوج بكل المراكب والاغربة التى سأله اياها وأرادها منه ، ومن ثم أقلعوا من ميناء زارا ، وكانت الريح رخاء طوال إبحارهم حتى بلغوا ميناء « دورازو » التى لم يكد أهلها يطالعون اميرهم[٨٣] وقد جاءهم حتى بادروا إلى تسليم المدينة له عن طيب خاطر ، وأقسموا يمين الولاء له .

١١٢ – واذ ذاك[٨٤] ابحروا من دورازو الى مدينة كورفو[٨٥] ، فلما بلغوها وجدوا الجيش معسكرا أمامها وقد نصب العسكر خيامهم ومعسكراتهم هناك ، وأخرجوا جيادهم من سفنها للاستجمام والنشاط .

ولما سمعوا[٨٦] بوصول ابن امبراطور القسطنطينية إلى الميناء كنت ترى كثيرا من الفرسان المُعْلَمِين والجنود البارعين يقودون جياد الحرب ، ومضوا لمقابلته ، وهكذا استقبلوه بفرح عظيم وتوقير رائع ، فما كان منه الا أنْ امر بنصب خيمته وسط المعسكر تماما على مقربة من خيمة المركيز دى مونتفرات[٨٧] .

* * *

١١٣ – أقام الجيش ثلاثة اسابيع فى جزيرة كورفو الخصبة الزّاخرة بالطعام ، وحدث أثناء إقامتهم بها أن أَلَمَّتْ بهم بلية كبرى ومصيبة دهماء ، ذلك أن الجانب الأكبر من أولئك الذين أرادوا تفتيت الجيش – وكانوا من[٨٨]اعدائه – قد تشاوروا فيما بينهم وقالوا إن المخاطرة المزمع القيام بها تبدو طويلة المدى عظيمة الخطر ، وأنهم – من جانبهم – سوف يبقون فى الجزيرة تاركين بقية الجند يرحلون وحدهم ، فإذا تم ذلك

---

(٨٣) يقصد المؤلف بذلك ألكسيوس بن إسحق أنجيلوس وأخا زوجته فيليب هوهنشتاوفن ملك ألمانيا .

(٨٤) فى شو « وأبحر الأمير ألكسيوس وجماعته » .

(٨٥) هذه الكلمة ساقطة من مز

(٨٦) فى شو : « ولما سمع عسكرنا بوصول إبن إمبراطور القسطنطينية ».

(٨٧) بعدها فى شو « الذى عهد إليه الملك فيليب برعاية أخى زوجته الشاب » ولانستبعد ورود هذه العبارة إما بقلم فلهاردون نفسه ، أو بقلم ناسخ كان يعرف الأحداث تمام المعرفة .

(٨٨) فى شو : « وقد مارسوا فى مرات سابقة امورا فى غير صالحه » . أما فى مز فقد وردت بالصورة التالية : « بانت البغضاء منهم للجيش كثيرا من قبل » .

بعثوا – عن طريق أهل كورفو – الى كونت ولتر دى[٨٩] بريين الذى كان يحتل اذ ذاك برند يزى يسألونه إرسال بعض سفنه لأخذهم[٩٠] اليه .

١١٤ – لست استطيع أن أذكر لك أسماء جميع الذين اشتركوا فى هذا الأمر ، ولكننى سأسمى لك بعضا من أبرز زعمائهم وهم : اوتودى سامبليت (الشمبانى) ، وجيمس دى افين ، وبطرس الامييني وجى القشتالى من اهالى كوس ، واوجييه دى سنت شيرون ، وجى دى شاب ، وكلاريمبو ابن اخيه ، ووليم دونو وبطرس كوازو وجى دى بيزم ، واخوه ادموند وجى دى كونفلان ، وريتشارد دى راميير ، وأخوه أوتو ، وكثيرون غيرهم ممن اتفقوا معهم سرا على ان يكونوا من جماعتهم ، وإن لم يجرؤا عن الافصاح عن أنفسهم خشية العار ، وكان هؤلاء من الكثرة حتى إن هذا الكتاب ليؤكد أن أكثر[٩١] من نصف رجال الجيش كانوا من هذا الرأى .

١١٥ – فلما ترامى هذا الخبر إلى سمع المركيز دى مونتفرات وكونت بلدوين دى فلاندرز وكونت لويس وكونت دى سنت بول والبارونات الذين اتفقوا معهم ، اشتد بهم الجزع وقال لهم المركيز : « أيها السادة ، إننا إزاء موقف خطير ، إذ لو انفصلت هذه الجماعة بعد رحيل من رحل ، فقد قضى على جيشنا ، ولن نستطيع القيام بشىء من الفتوح ، فهلموا بنا نذهب إليهم ، ونركع عند أقدامهم ، متوسلين إليهم بحق الرب أن تأخذهم الشفقة على أنفسهم وعلينا ، وألاَّ يشينو أنفسهم ، وألاَّ يحرمونا من إنقاذ بلاد ماوراء البحار » .

١١٦ – على هذا اتفق المجلس ومضوا جميعا الى واد كان الفريق الآخر يعقد اجتماعه به ، واستصحبوا معهم ابن[٩٢] الامبراطور وكل من بالجيش من الأساقفة ورؤساء

---

(٨٩) هو ولتر الثالث كونت بريين (١١٨٩ – ١٢٠٥م) ، وكان البابا يعده من حلفائه فى إيطاليا ، ولذلك فقد بعث إليه (وهو يثير المسيحيين ضد احد رجالات هنرى السادس) يطلب اليه تأديب هذا التابع ، فاستجاب له ولتردى بريين استجابة مجزوءة حين أرسل طائفة صغيرة من الفرنسيين ، ذلك لأن الذى كان يهمه هو تأكيد حقه فى تارانتو وليتشى .

(٩٠) فى شو « لردهم إلى مدينته » .

(٩١) هذا تأكيد من فلهاردوان بان الصليبيين الذين اتهمهم بالخيانة كانوا أكثر من نصف الجيش ، وأنهم لايريدون الزحف لمقاتلة البيزنطيين لانهم بذلك ينحرفون عن الهدف المقصود من الحملة الصليبية أصلا .

(٩٢) بدلها فى شو « أمير القسطنطينية »

الأديرة ، فلما بلغوا البقعة المنشودة ترجلوا عن جيادهم وتقدموا إلى الأمام(٩٣) ، وركع البارونات على أقدام ذلك الفريق مستخرطين فى البكاء ، وقالوا إنهم لن ينهضوا حتى يَعِدُوهم بعدم انفصالهم عنهم أبدا أو تركهم إياهم .

١١٧ – فلما رأى رجال الفريق الآخر هذا المنظر أخذتهم الشفقة عليهم ، ونبضت قلوبهم بالرحمة ، وبكوا بكاء مرا إذ رأوا ساداتهم وأقاربهم وأصدقاءهم راكعين أمامهم ، وحينذاك قالوا لهم انهم سيتدبرون الأمر فيما بينهم ، ثم انتحوا مكانا قريبا منهم يتشاورون ، وانتهوا إلى انهم سيبقون مع الجيش حتى يصلوا جميعا الى ميخاملاس ، شريطة ان يقسم الفريق الآخر بالآثار المقدسة قسما صادقا على أنهم إذا استدعوا للقتال فانهم يطعون لذلك عن طيب خاطر وبايمان صادق ، ويجهزون السفن فى مدى خمسة عشر يوما يستقلها الغاضبون إلى سوريا إذا إرادوا ذلك .

١١٨ – هكذا كان الاتفاق الذى أقسموا على احترامه ، وإذ ذاك عمت الفرحة الكبرى صفوف الجيش كله ، وركب الجميع السفن ، وأدخلت الجياد مراكب الحمولة .

(٢٥)
الصليبيون(٩٤) يغادرون كورفو ويستولون على بعض الأماكن المسيحية

١١٩ – ثم رحلوا من ميناء كورفو عشية(٩٥) عيد العنصرة من عام ألف ومائتين وثلاثة من مولد سيدنا عيسى المسيح ، واجتمعت هناك شتى شوانى الجيش ومراكب حمولته وأغربته وكثير من سفن التجار الذين رحلوا معهم ، وكان اليوم جميلا وصحوا والريح طيبة مشتهاة فنشروا قلاعهم وملأتها الريح .

١٢٠ – أما جوفرى مارشال شمبانيا ومُمْلِى(٩٦) هذا الكتاب والذى يعرف عن نفسه

---

(٩٣) بعدها فى شو « فلما رأى الآخرون ذلك نزلوا عن ظهور خيولهم ومضوا لمقابلتهم فركع المركيز ومن معه عند أقدامهم » .

(٩٤) هذا هو الفصل السابع فى « شو » وقد جعل عنوانه « الرحلة الى سيكوتارى : مايو يونيو ١٢٠٣ » (= رمضان/شوال ٥٩٩هـ)

(٩٥) وهو الرابع والعشرون من شهر مايو ١٢٠٣م (= السبت ١١ رمضان ٥٥٩هـ) على ان السنة الميلادية غير واردة فى مز .

(٩٦) فى شو : « مؤلف هذا الكتاب الذى يعرف أنه لم يورد فيه قط شيئا مغايرا للحقيقة » .

انه لم يكذب قط فى أى كلمة قالها ، والذى كان – زيادة على ذلك – حاضرا جميع ماعقد من اجتماعات ، فيشهد أنه لم ير قط منظرا أبهج من هذا المنظر ؛ والحق أنه كان أسطولا جديرا بفتح البلاد ، اذ كانت العين لاترى – مهما امتد بها البصر – الا أشرعة السفن الجمّة تخفق لمرآها قلوب الناس فرحا .

١٢١ – ظلت الحملة مبحرة فى بحر لُجِىٍّ واسع حتى بلغت رأس ماليا عند الطرف الأقصى من المضيق ، فصادفت سفينتين غاصتين بالحجاج والفرسان والجنود العائدين من بلاد الشام ، وكانوا من تلك الجماعات التى رحلت من قبل إليها عن طريق مرسيليا ، فلما أبصروا ماعليه أسطولنا من الروعة والبهجة ، أحسوا بالخجل الشديد الذى لم يجرؤا معه على الظهور ، فأرسل كونت بلدوين دى فلاندرز قاربا من قواربه يسأل القوم ماشأنهم ، فأنبأوه بخبرهم .

١٢٢ – ثم نزل جندى من إحدى السفينتين إلى قارب الكونت ونظر الى من تركهم بالمركب وقال لهم : « أننى أبرأ اليكم من كل ماقد يكون لى فى السفينة من متاع لأننى ماض مع هؤلاء الناس ، إذ يخيل إلَىَّ تماما أن لابد من أن يتم على أيديهم فتح تلك البلاد » . فرحبنا(٩٧) بهذا الجندى غاية الترحيب ، وأدخلناه فى جيشنا لأنه يمكن أن يقال قولا أكيدا إن فى قدرة المرء أن يجد فى النهاية طريقه القويم مهما سلك آلاف السبل المعوجة .

١٢٣ – تقدم الجيش حتى جاء الارض السوداء(٩٨) وهى جزيرة بديعة جدا ، رائعة الجمال ، طيبة الهواء تدعى نيجروبونت ، عقد فيها البارونات مجلس مشورتهم ، ثم قام المركيز بونيفاس دى مونتفرات وكونت بلدوين دى فلاندرز وهينولت فأبحروا مع جانب كبير من آلات النقل والأغربة ، واستصحبوا(٩٩) معهم الامبراطور اسحق بن

---

(٩٧) هنا تعود نسخة شو إلى استعمال ضمير الغائب ، على حين أن الأصل الفرنسى القديم من طبعة ويللى التى ترجمنا عنها هذه المذكرات يستعمل ضمير المتكلم .

(٩٨) وهى المسماة فى الاصل باسم Negro Ponte وقد تسمى احيانا فى بعض مراجع هذا العصر باسم جزيرة ايوبيا EUBOEA وقد ذكرت الأستاذة شو أنه لاتوجد فى الخرائط القديمة ولا الحديثة لبلاد اليونان مدينة بهذا الاسم ، ولكن يوجد ميناء الرأس الأسود وهو خالقيس CHALCIS القديمة . وقد ظلت جزيرة « ايوبيا » هذه جزءا من بلاد اليونان حتى سنة ١٢٠٥ ثم آلت إلى حكم الفرنجة منذ تلك السنة حتى عام ١٢٧٦ لتعود بعد ذلك إلى اليونان ، وقد تعرضت سنة ١١٤٧ لهجوم عسكر روجر النرمندى الذين عاثوا فيها فسادا ، ثم عاودالنرمنديون الهجوم عليها سنة ١١٥٧ ، انظر .Helen Wieruszowshi: The Norman Kingdom of Sicily and the Crusaders, pp. 13 & 29

(٩٩) خلت نسخة شو من خبر استصحابهم الامبراطور أو ابنه ، ولعل ذلك راجع إلى خطأ فى الكتابة اذ ورد =

إمبراطور القسطنطينية ، ثم أرسوا عند جزيرة تدعى اندروس ، حيث أشهر الفرسان أسلحتهم واكتسحوا الناحية ، فجاء أهلها الى ابن الامبراطور يلتمسون منه الرحمة بهم وأجزلوا له العطاء والهدايا حتى عقد الصلح معهم .

١٢٤ – عاد هؤلاء الفرسان بعد ذلك إلى سفنهم وأبحروا ، غير أننا بلينا بنكبة كبرى إذْ مات جى دى كوسى القشتالى[١٠٠] وكان شريفا بارزا من رجال الجيش فَقَذَفْنا بجثَّتِه فى البحر .

١٢٥ – اما السفن الاخرى التى لم تكن قد ابحرت الى هذا المكان فقد دخلت مضيق ابيدوس عند اتصال مضيق سنت جورج (اى الدردنيل) بالبحر الكبير ، وراحت تمخره حتى بلغت مدينة يسمونها أبيدوس وهى تطل على أقرب المياه الى تركيا ، والمدينة رائعة الجمال ، حسنة الموقع ، فاستولى[١٠١] ركاب السفن على الميناء وأرسوا على الشاطىء ، فقدم أهلها للقائهم وأسلموهم إياها ، إذ كان الجزع قد استبد بهم فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ، فأقيمت بها حراسة قوية حتى إن أهلها لم يفقدوا شيئا قط حتى ولو بلغ مقدار دانق من الفضة .

١٢٦ – أقام الجيش هنا ثمانية أيام فى انتظار السفن ومراكب النقل والأغربة التى لم تكن قد وصلت بعد للانضمام اليهم ، وأخذوا فى أثناء إقامتهم فى جَمْع مانضج فى الحقول من الغلال ، وكانوا فى حاجة ملحة إلى المئونة إذ لم يكن لديهم منها إلا القليل ، فلما انصرمت هذه الأيام الثمانية حضرت جميع السفن والبارونات [إلى ابيدوس][١٠٢] اذ هيأ الله لهم جوا لطيفا .

« اسحق » والأصح ان يقال ألكسيوس بن اسحق » ، ثم إن الصليبيين حتى هذه اللحظة التى تشير إليها مذكرات « فلهاردوان » لم يكونوا قد بلغوا بعد غايتهم ليخرجوا إسحق الثانى من سجنه ، ومن ثم فالصحيح فى ذلك ان يقال : « انهم استصحبوا الامير ألكسيوس بن الامبراطور اسحق أخى إمبراطور القسطنطينية » ، هذا ويلاحظ ان العالم الفرنسى ويللى ، لم يعلق على هذا السهو غير المقصود من فلهاردوان .

(١٠٠) كان Juy de Coucy القشتالى من أول الذين انخرطوا فى سلك الحملة الصليبية منذ ان اخذ فولك دى نىّ الدعوة إليها ، وكان جى هذا موضع ثقة كبار المسئولين من الفرنجة ، كما أن المبالغ الكبيرة التى استطاع فولك أن يجمعها من نصارى البلاد التى دعى فيها للحرب والتى كانت فى حوزته حين مات قد أعطاها الملك فيليب اوجستوس ملك فرنسا إلى كل من « اود دى شامبليت » و « جى دى كوسى القشتالى » للصرف منها على الصليبيين فى هذه الحملة .

(١٠١) عبارة « فاستولى ركاب السفن على الميناء وأرسوا على الشاطىء » غير واردة فى نسخة شو .

(١٠٢) الاضافة للايضاح .

(٢٦)
المداولة فى الهجوم على القسطنطينية

١٢٧ - رحل الجميع معا من ميناء إبيدوس ، وكنت ترى مضيق الدردنيل وقت الرحيل وقد غطته السفن والأغربة ومراكب النقل المبحرة فيه شمالا ، وكانت العين تتملى هذه الآية الكبرى من الجمال والاعجاب ، فلما كانت ليلة عيد القديس يوحنا المعمدان فى يونيو وصلوا إلى دير سنت ستيفن الواقع على بعد ثلاثة(١٠٣) فراسخ من القسطنطينية التى راح جميع من كانوا بالسفن والأغربة ومراكب الحمولة يمتعون عيونهم بمرآها ، فاستولوا على الميناء وأرسوا مراكبهم فيه .

١٢٨ - ولتعلم(١٠٤) ان الذين لم يسبق لهم من قبل رؤية القسطنطينية أخذوا يملؤون أبصارهم منها ، إذ لم يخطر ببالهم أبدا أن يكون فى العالم كله بلد كهذا البلد فى روعته وعظمته ، وأعجبتهم أسوارها العالية ، وأبراجها الشامخة القوية المحيطة بها من كل النواحى ، وقصورها الغنية ، وكنائسها الرائعة التى كانت من الكثرة بالدرجة التى لايتأتّى لأحد تصديقها إن لم يرها بنفسه ويشاهدها بعينى رأسه ، وراحوا يتأملون المدينة فى طولها وعرضها ممايجعلها سيدة غيرها من المدن .

ولتعلم أنه لم يكن أحد صلب العود لم يهتز لهذا المنظر إذ لم يسبق قط أن نهض أناس مابمثل هذا العمل الكبير منذ بدء الخليقة .

١٢٩ - بعد ذلك نزل إلى البر الكونتات والبارونات ودوج البندقية ، وعقدوا اجتماعا فى كنيسة القديس ستيفن ، وتشعبت فيه الآراء ، وماكان لهذا الكتاب أن يتضمن جميع الكلمات التى قيلت فى هذا الاجتماع الذى نهض دوج البندقية فى نهايته على قدميه وقال :

١٣٠ - « أيها السادة أننى أعرف من أوضاع هذا البلد أكثر مماتعرفون فقد جئته(١٠٥) من قبل ، ونحن اليوم ناهضون بأعظم وأخطر مشروع لم تُقْدِم عليه أية جماعة

---

(١٠٣) فى مز « أربعة أو خمسة اميال » .

(١٠٤) جاء بدلا من ذلك فى شو « وأحب أن اؤكدلك »

(١٠٥) هذه حقيقة ثابتة ولكنها مرة على نفس هنرى داندولو ، فهناك قصة تقول إنه كان منذ ثلاثين سنة قبل الحرب الصليبية الرابعة موجودا فى القسطنطينية كرهينة ، واذ ذاك عمد اليونان الى مرآة مقعرة عكست ضوء الشمس القوى على عينيه ساعات وساعات حتى ذهب بصره انظر فى ذلك Vasiliev: History of the Byzantine Empire, Vol. II, p. 452. راجع ماسبق حاشية رقم ٥٣ .

قط من قبلكم ، لذلك ينبغى علينا ان نمضى فى عملنا بدقة وحكمة بالغتين ، ولتعلموا اننا لو نزلنا إلى البر فالأرض فسيحة شاسعة وجماعتنا فقيرة ليس عندها من القوت غير النزر اليسير من العيش ، ومن ثم فانها سوف تتشتت التماسا للقمة تقيم أودها ، كما أن هذه البلاد كثيفة السكان ولانستطيع حراسة رجالنا بالصورة المرجوة بل سنفقد البعض منهم ، ولسنا فى ظرف نستطيع فيه الاستغناء عن أحد ما ،لأن عدد رجالنا فى الواقع أقل مماينبغى لانجاز العمل الذى نريد إنجازه .

١٣١ – « وإننى لأدلكم على مجموعة من الجزر القريبة من هنا تستطيعون رؤيتها من مكانكم هذا ، يسكنها أقوام تتوفر لديهم الحبوب واللحوم وغيرها من المأكولات ، فدعونا نرسو هناك ونجمع غلة الأرض ومنتجاتها ، حتى اذا جمعنا كل الذى نحتاجه رحلنا عنها ووقفنا أمام المدينة وفعلنا ماقدّره علينا الرب ، ذلك أن الذى تتوفر لديه المؤنة يكون أقدر على الحرب من فاقدها : تقديرا لها » .

فاستجاب الكونتات والبارونات لهذه المشورة ، وكرُّوا راجعين إلى سفنهم وشوانيهم .

(٢٧)
رسو الصليبيين عند خلقدونية

١٣٢ – ثم أقاموا هناك ليلتهم هذه ، فلما تبلّج الصباح[١٠٦] عن عيد القديس يوحنا المعمدان خفقت الرايات والبيارق على صوارى السفن وأبراجها ، ثم نزع المحاربون السيوف من أغمادها ولبسوا الدروع ، وأخذ كل واحد فى تهيئة أسلحته ودروعه ليقينه بأنه سوف يحتاجها فى القريب العاجل .

١٣٣ – رفع البحارة المراسى ونشروا قلاعهم ، وساق لهم الله ريحا طيبة كانت خيرا لهم ، فمروا أمام القسطنطينية وهم يكادون يتاخمون أسوارها وأبراجها ، حتى لقد كنا نرى فى سهولة كثيرا من مراكبها ، وكان على الأسوار والأبراج أناس بلغوا من الكثرة حدا يخيل معه لرائيهم أن أهل الدنيا بأجمعهم قد احتشدوا هنا .

١٣٤ – وإذ ذاك شاء الرب إلاهُنا أن يبدل البارونات[١٠٧] الخطة التى اتفقنا عليها

---

(١٠٦) ارخته نسخة شو بالرابع والعشرين من شهر يونيو ١٢٠٣م (= الثلاثاء التاسع عشر من شوال سنة ٥٩٩هـ) .

(١٠٧) كلمة « البارونات » غير واردة فى الأصل الفرنسى القديم الذى نشره ويلى والذى ترجمنا منه هذه المذكرات ، ولكن أخذناها من نسخة شو للايضاح .

وهى الذهاب إلى تلك الجزر . وانتهى كل ماتقرر فى مجلس الأمس إلى غير ذى نتيجة ، كأن لم يسمع أحد أبدا عن هذه الخطة ؛ واتجهت سفننا مباشرة إلى الأرض الرئيسية بأسرع ماأمكنها الابحار ، وأرست أمام باب أحد قصور الامبراطور الكسيوس فى مكانٍ يدعونه خلقدونيا فى مواجهة القسطنطينية على الجانب الآخر من البوغاز مقابل تركيا ، وكان القصر من أجمل وأروع مارأت العين ، حوى من الفتنة فى داخله مايهفو له كل قلب ، ويلائم قصر أى أمير .

١٣٥ — أرْسَى الكونتات والبارونات على الشاطىء ، ثم استقر المقام ببعضهم فى القصر ، وبالبعض الآخر فى المدينة وضواحيها ، ونصب معظم الجيش خيامه هناك ، وإذ ذاك أخرجوا من مراكب النقل ماعليها من الخيل ، ونزل الفرسان والجنود إلى الساحل بكل مالديهم من سلاح ، وغادر السفن كل من عليها سوى ملاحيها فقد ظلوا بها ، وكان البلد رائعا غنيا ، مزوداً خير تزويد بشتى أنواع المئونة ، ولازالت الغلة الناضجة فى الحقول ، فأخذ كل واحد مايريد وماوسعه الجهد أن يأخذ .

١٣٦ — وأقام البارونات فى هذا القصر طيلة اليوم التالى ، حتى إذا كان اليوم الثالث ساق الله إليهم ريحا طيبا ، فرفع الملاحون مراسيهم ، ونشروا قلاعهم مستقبلين الريح ، وصعدوا بالسفن فى البوغاز حتى صاروا على مسافة فرسخ من القسطنطينية ، وبلغوا قصرا آخر من قصور الامبراطور الكسيوس يدعونه سكوتارى ، فأرست عنده السفن ومراكب النقل والأغربة ، أما الخيالة الذين كانوا قد اتخذوا من قصر خلقدونية سَكَناً لهم فقد ذهبوا على طول الشاطىء برا .

١٣٧ — وعسكر جيش الفرنسيين على بوغاز الدردنيل عند سكوتارى وأمامه ، فلما رأى الامبراطور ألكسيوس ماجرى أمر جيشه بالنزوح عن القسطنطينية وعسكر بمكان مرتفع أمامنا على الجانب الآخر من المضيق ، حيث نصب خيمة حتى لانتمكن من الاستيلاء بالقوة على الارض المواجهة له ، وأقام جيش الفرنسيين حيث هو تسعة أيام وحصل الجميع على مايحتاجونه من مئونة هيأت أسباب العيش لكل فرد فى الجيش .

(٢٨)
استعداد[١٠٨] الصليبيين للهجوم

١٣٨ – حدث فى أثناء إقامة الجند فى سكوتارى أن خرجت طائفة من الرجال الطيبين الصلحاء ، كانت مهمتها أن تظل حول المعسكر تحرسه من أى هجوم مباغت يشّن عليه ، فلما خرجت هذه الطائفة ذلك اليوم شرعت فى استكشاف الناحية هناك ، وكان بين تلك الفئة المشار اليها اوتودى شاملبيت الشمبانى وأخوه وليم ، وأوجردى سنت شيرون ، ومناسس الجزائرى ، وكونت جيرار وهو من كونتات لمبارديا وممن استبقاهم ماركيز دى مونتفرات معه ، وكان مع هؤلاء مالا يقل عن ثمانين فارسا من الصالحين الصادقين .

١٣٩ – فأبصروا فى أثناء تفقدهم الناحية عند سفح أحد الجبال وعلى مسافةً تقرب من ثلاثة فراسخ من الجيش مجموعةً من خيام الدوق الأكبر قائد قوات امبراطور القسطنطينية ، ومعه مالا يقل عن خمسمائة فارس إغريقى ، فلما رآهم رجالنا قسموا أنفسهم أربع كتائب ، وأجمعوا العزم على مهاجمتهم ، فاستعد البيزنطيون لذلك بقواتهم ، ونظموا صفوفهم أمام معسكراتهم تأهبا للقتال ، فمشى إليهم رجالنا وحملوا عليهم حملة عنيفة .

١٤٠ – وشاءت معونة إلهنا الرب ألا تستمر المعركة إلا فترة قصيرة رَكَنَ الاغريق بعدها إلى الفرار مدبرين ، وولونا ظهورهم ، وحاقت بهم الهزيمة بعد أول هجوم ، فتعقّبهم رجالنا مسافة كبيرة حيث استولوا منهم على كثير من جياد الحرب والبغال والمهور والخيم والسرادقات وغير ذلك من أنواع الغنيمة التى تكون فى مثل هذا الظرف ، ثم عادوا الى الجيش حيث قوبلوا بالترحاب ، ثم تقاسم الجميع الأسلاب بطريقة مرضية ملائمة .

---

(١٠٨) استغرقت هذه الاستعدادات – كما بينت نسخة شو – الفترة من ٢٦ يونيو حتى ٤ يوليو (= ٢١ شوال حتى ٢٩ منه سنة ٥٥٩هـ) .

(٢٩)
رسالة ألكسيوس إلى الصليبيين وردهم عليها

١٤١ – وفى اليوم التالى لذلك الحادث بعث الامبراطور برسائله إلى الكونتات والبارونات مع مندوبٍ من قبله يدعى « نيكولارو » من أهالى لومبارديا فوجد الرسول زعماءنا مجتمعين فى قصر سكوتارى الرائع فحياهم نيابة عن الكسيوس امبراطور القسطنطينية ، ثم رفع مامعه من الرسائل الى المركيز دى مونتفرات الذى تلقفها منه وتلاها جهرا أمام جميع البارونات وكانت[١٠٩] تتضمن عبارات كتبت وفق أساليب مختلفة لايتعرض لذكرها هذا الكتاب ، وجاء فى نهاية بعض هذه العبارات كلمات فخمة فى تمجيد حامل هذه الرسائل المسمى نيكولارو .

١٤٢ – فقال الماركيز : « سيدى العزيز لقد رأينا رسائلك التى تخبرنا بأن نُقَدِّر ماتقوله ونحن مقدرون اياك كل التقدير ، والآن تفضل فهات ماعندك من قول » .

١٤٣ – فانتصب الرسول أمام البارونات قائلا لهم : « أيها السادة : لقد بعثنى الامبراطور الكسيوس ليقول لكم إنه مدرك تمام الادراك انكم أَعْظَمُ الرجال قدرا بعد الملوك ، وانكم جئتم من اكرم بقعة على الأرض ، ولكنه يعجب كل العجب عما حملكم للمجىء الى بلاده ، وماهدفكم من القدوم الى مملكته التى له الحكم فيها دون سواه ، سيما انتم واياه مسيحيون . ثم أنه يعرف جيدا أنكم خرجتم من بلادكم لتخليص الارض المقدسة الواقعة فيما وراء البحار ولانقاذ الصليب المقدس والقبر الطاهر ، فان كنتم فقراء تشكون الحاجة فانه مستعد ان يأذن لكم بمشاطرته طعامه وماله ، يفعل ذلك عن رضا وطيب خاطر على ان ترحلوا ، فان رددتم عَرْضه ورفضتم يده ، فهو قادر على أن ينالكم بالاذى وانْ كان لايحبه لكم لأنه يعرف انكم لو كنتم عشرين ضعف مانتم عليه الآن ماستطعتم الخروج سالمين اذا أراد بكم ضرا » .

١٤٤ – حينذاك نهض واقفا كونون[١١٠] دى بيثون باتفاقِ بقية البارونات ودوج

---

(١٠٩) فى شو : « وكانت تتضمن كثيرا من الأمور التى لايسجلها هذا الكتاب » ، على أن الذى امسك فلهاردوان عن ذكره هو أن رسول الامبراطور ألكسيوس الثالث إلى الفرنجة كان يحمل من مولاه سؤالا صريحا هو ان يعرف مقصدهم من المجىء إلى بلاده ، والمفروض فيهم أنهم فى طريقهم لاسترداد الارض المقدسة ، فإن كانوا فى حاجة إلى معونة يستعينون بها فى رحلتهم فإنه يمدهم بها عن طيب خاطر ، أما اذا قصدوه هو وبلده بالسوء فانه محطمهم ، انظر فى ذلك Edgar Me Neal & Robert: The Fourth Crusade, pp. 177—178.

(١١٠) كان البارون كونون دى بيثون من رجال السياسة والحرب والادب ، وعرف بنظم الشعر والقدرة الفائقة على الخطابة ، وقد وصلت إلينا قصيدتان من قصائده فى الحرب الصليبية الثالثة ، انظرهما وغير ذلك عنه فى : Walleskold: Les Chançons de lonon de Bethune, Paris 1921.

البندقية ، وكان كونون فارسا بارعا ورجلا عاقلا مفوها ذرب اللسان . أقول نَهَض ليتولى الرد على الرسول ، وكان ذلك بمشورة البارونات ودوج البندقية واتفاقهم فقال : « سيدى الفاضل ، لقد أخَبْرتنا ان الدهشة تستبد بمولاك كل الاستبداد لمعرفة ماحمل باروناتنا وساداتنا على القدوم الى مملكته وأرضه ، وردُّنا على ذلك أننا لم ندخل هذه الأرض إلا لأنه اغتصبها واستولى عليها رغم إرادة الرب دون حق له فيها ، لأنها مملكة ابن اخيه وملك يمين هذا الذى تراه جالسا على عرش نصبناه له بيننا ، ونعنى بذلك ابن أخيه الامبراطور إسحق ، على أنه إذا أراد مولاك أن يضع نفسه بين يدى ابن أخيه وتحت رحمته ويرد عليه تاجه وإمبراطوريته فإننا سنتوجه إلى ابن أخيه ملتمسين منه أن يغفر له ذلك ، وأن يرفده رفدا سخيا يستطيع معه أن يحيا حياة ناعمة رغدة ، فإن أعادك إلينا بغير هذا الرد فاتق الله فى حياتك ولاتجازف بالمجىء مرة أخرى » .

هكذا انكفأ الرسول الى الامبراطور الكسيوس [الثالث][111] بالقسطنطينية .

(٣٠)
الصليبيون يعرضون ألكسيوس بن اسحق على الشعب

١٤٥ – تباحث البارونات فى غدهم فيما بينهم عما يفعلونه ، فأجمعوا رأيهم على أن يطلعوا على شعب المدينة بألكسيوس الشاب ابن امبراطور القسطنطينية (إسحق انجيليوس) الشرعى ، وأمروا بتسليح جميع سفنهم التى دخل إحداها دوج البندقية وماركيز دى مونتفرات ومعهما الكسيوس ابن الامبراطور اسحق ، ووسِعَتْ السفن الاخرى كل من أراد من الفرسان والبارونات صحبتهم .

١٤٦ – وأبحروا بعدئذ مصاقبين أسوار القسطنطينية ، وأظهروا الشاب لليونانيين قائلين لهم :

« هاهو ذا مولاكم الشرعى ، وكل مانسعى اليه ألاّ تظنوا بنا ظن السوء نَحْوَكم ، أو أننا جئنا لايذائكم ، والحق أن قدومنا لم يكن ألاّ لحمايتكم والدفاع عنكم إذا فعلتم مايحتمه عليكم واجبكم ، لأن الامبراطور الذى تخضعون الآن له على انه مولاكم إنما تولى أمركم اغتصابا وغدرا ، وعارَضَ إرادةَ الرب ومشيئته ، وافتأت على الحق ، وإنكم لتعلمون تمام العلم كيف غدر بمولاه واخيه[112] فسمل عينيه وسلب منه امبراطوريته

---

(١١١) الاضافة للايضاح ، وذلك حتى لايختلط بسميه وابن أخيه ألكسيوس بن اسحق الذى سيصبح إمبراطورا يعرف بألكسيوس الرابع (١٢٠٣ – ١٢٠٤) .

(١١٢) وهو إسحق الثانى انجيلوس ١١٨٥ – ١١٩٥م (= ١٢٠٣ – ١٢٠٤هـ)

بالخيانة واللؤم ، والآن هاهو ذا الوريث الشرعى فانظروه ، فاذا نصرتموه وأيدتموه وفَّيْتم بواجبكم ، وإن خذلتموه فسوف نوقع بكم أفظع الضرر الذى نستطيع إنزاله » .

لكن لم يبد على أحد مافى الشوارع ولا فى المدينة انه معتزم الوقف الى جانب الامير ، اذ حملهم على ذلك الموقف خوفهم من الامبراطور الكسيوس (الثالث) ورهبتهم إياه . ومن ثم عاد كل واحد إلى مكانه وانفلت كل الى معسكره .

١٤٧ — فلما كانت الغداة – وقد فرغوا من سماع القداس – عقدوا[١١٣] مجلسا للتشاور فيما بينهم ، وكان الاجتماع على ظهور الجياد فى وسط الحقول ، فكنت ترى إذْ ذاك كثيرا من خيول الحرب قد اعتلى فرسانها الكرام صهواتها ، وكان الغرض من الاجتماع تنظيم كتائبهم ، وكم يكون عددها ، ومدى قوتها .

وتكلم الكثيرون فأفاضوا ماشاءت لهم الافاضة ، ثم استقر[١١٤] الرأى أخيراً بينهم على أن توكل قيادة المقدمة الى بلدوين دى فلاندرز ، فقد كان لديه من القوم المخلصين ورماة السهام والاقواس اكثر ممالدى أى زعيم آخر فى الجيش .

١٤٨ — ثم اتفقوا بعدئذ على ان يكون فى الفريق الثانى اخوه هنرى وماثيو دى والنكورث وبلودين دى بوفوار وغيرهم من بنى جلدتهم ووطنهم من الفرسان الذين معهم .

١٤٩ — اما الفريق الثالث فكان يتألف من كونت هيج دى سنت بول وابن اخيه بطرس الأمين واستاش دى كانتليو وانسلم دى كايو وكثيرون غيرهم من الفرسان الطيبين من أبناء جلدتهم وأوطانهم .

١٥٠ — أما الفريق الرابع فكان بقيادة كونت لويس دى بلوا وشارتر ، وقد امتاز هذا الفريق بأعداده الكبيرة وقوته وشدته ، لأن الكونت وضع فيه عددا ضخما من الفرسان الأشداء والرجال البارزين .

١٥١ — أما الفريق الخامس فكان بقيادة ماثيو دى مونت مورنس ، وقوامه أهل شمبانيا ، وفيه جودفرى[١١٥] مارشال شمبانيا وفى صحبته كل من : اوجر دى سنت شيرون

---

(١١٣) الضمير هنا عائد على كبار رجال الفرنجة والبنادقة .

(١١٤) الواقع انهم اتفقوا على أن يقسموا أنفسهم إلى سبع كتائب أو فرق تختص كل فرقة بناحية للهجوم على المدينة ، وتساعد الواحدة الأخرى فى الوقت ذاته ضد العدو إذا كانت واحدة منها فى حاجة للمساعدة .

(١١٥) يقصد المؤلف بذلك نفسه ، ويمكن أن نرى من ذلك – وقد صار رئيسا لفرقة معينة – أنه بذلك كان منظورا إليه ليكون ذا سهم كبير فى جزء من الامبراطورية بعد ان يستولى عليها الفرنجة والبنادقة .

ومناسيس الجزائرى ، وميلز دى برابانت ، وماكير دى مينهولا ، وجون فواسنون ، وجى دى شاب ، وابن اخيه كلير يمباند ، وروبرت دى رونسوا . واعلم أنه كان فى هذا الفريق كثير من الفرسان الكرام .

١٥٢ – أما الفريق السادس فكان يتألف من أهل برجنديا وفيه اوتودى شامبليت الشمبانى وأخوه وليم ، وجى دى بيسم وأخوه ارموند ، واوتودى دى لاروش ، وريتشارد دى دامبير وأخوه أوتو ، وجى دى كونفلانس[١١٦] وقوم من جلدتهم وأرضهم .

١٥٣ – أما الفريق السابع الذى كان عظيم الضخامة فكان تحت قيادة ماركيز دى مونتفرات ، وقوامه اللمبارديون والتوسكانيون والألمان وجميع الأقوام التى جاءت من المنطقة الممتدة من وراء جبل مونت سينيس إلى ليون على نهر الرون .

وقد[١١٧] ألف كل هؤلاء جزءا من الفريق الذى تحت قيادة المركيز ، واتفق الرأى على أن يكونوا مؤخرة الجيش .

(٣١)
استيلاء الصليبيين على الميناء

١٥٤ – اتفق الرأى على تحديد يوم يبحر فيه الجيش بالسفن ومراكب النقل للاستيلاء على البلد عنوة وأخذ من بها أحياء أو أمواتا ، واعلم أن المشروع الذى كانوا ناهضين لانجازه من اعظم المشاريع الهائلة التى خطط لها .

ثم تكلم الأساقفة ورجال الدين إلى المحاربين وأخبروهم كيف يجب عليهم الاعتراف ، وأن يكتب كل واحد وصيته ، إذ لايعرف أحد مايصنع الله به وماهو مقدر له ، ففعل جميع رجال الجيش ذلك عن طيب خاطر وبقلوب تفيض بالتقوى والايمان .

١٥٥ – وحان الوقت المضروب للغزو فذهب الفرسان إلى مراكب النقل بجيادهم الحربية وهم فى كامل سلاحهم ، وزيّنو خوذاتهم بالأشرطة ، ووضعوا على جيادهم السروج وزوّدوها بالعدد .

---

(١١٦) فى شو : « بالاضافة إلى رجال من نفس الولاية ومن مقاطعاتهم الأخرى » .

(١١٧) خلت نسختا « شو » و « مز » من العبارة الآتية : « وقد ألف كل هؤلاء جزءا من الفريق الذى تحت قيادة المركيز » .

أما مَن دونهم من رجال الجيش ممن لم تكن الحاجة ماسة إليهم فى القتال فقد ركبوا السفن الكبرى ، وكانت الأغْرِبة قد سلحت تسليحا تاما وأصبحت على أهبة السفر .

١٥٦ – اعتدل الجو قليلا فى الصباح بعد شروق الشمس ، وكان الامبراطور الكسيوس [الثالث] واقفا على الجانب الآخر متأهبا لهم فى قوات ضخمة حسنة الترتيب ، قد جهزت بكل مايحتاج إليه فى القتال ، ثم دقت الكوسات ، وكان كل غراب يجر مركب نقل بحبل لكى يسهل الوصول إلى الجانب الآخر . لم يسأل أحد أى سفينة تذهب اولا ، بل كان هَمُّ كل فرد أن يبادر بالنزول إلى الأرض بأسرع ماتواتيه الفرصة ، ثم شرع الفرسان فى مغادرة مراكب النقل وراحوا يخوضون الماء الذى وصل إلى وسطهم وهم فى كامل سلاحهم ، وعلى رؤوسهم خوذاتهم المزركشة ، وقد أشرعوا رماحهم ، وماكادت السفن ترسو حتى وثب منها رماة النبال والسهام والجنود ، واستقبلوا الارض .

١٥٧ – استبسل الاغريق فى المقاومة ، ولكنهم ولو الأدبار حينما اخذ رجالنا فى محاربتهم بالرماح وقذْفهم بها ، وفروا جاعلين الساحل وراء ظهورهم ليس فيه من أحد أمام جندنا . ولتعلم أنه لم يحدث قط لقوم ما أن استولوا على ميناء أعظم من هذا الميناء ، ثم شرع الملاحون يفتحون أبواب مراكب النقل ، ومدوا الجسور ، وأخرجوا الجياد فامتطاها الفرسان ، وأقبلوا ينظمون صفوف الجيش تنظيما طيبا .

(٣٢)
الاستيلاء على برج غلاطيا

١٥٨ – كان على مقدمة الجيش الصليبى فى الزحف كونت فلاندز ومعه هينولت ، وسارت خلف الكونت بقية الفرق : كلٌّ حسب ترتيبها ، وتابعوا زحفهم حتى بلغوا الناحية التى كان الامبراطور ألكسيوس قد نصب بها معسكره ، ولكنه – هو نفسه – كان قد فرّ من قبل نحو القسطنطينية ، تاركا وراءه خيامه وفساطيطه قائمة دون أن يقوضها ، فأصاب رجالنا منها غنائم جمة .

١٥٩ – اتفق رأى باروناتنا على أن يعسكروا عند الميناء أمام برج غلاطيا حيث تمتد سلسلة تسد ميناء القسطنطينية التى لايمكن للمرء دخولها إلا إذا اجتاز هذه السلسلة قسرا ، وقد أدرك باروناتنا أنهم لابد مقتولون عن بكرة أبيهم إنْ لم يستولوا على البرج

ويحطموا السلاسل ، لذلك أقاموا تلك الليلة أمام البرج وفى الحى اليهودى المسمى استينون Stenon الذى كان وحده مدينة بالغة الروعة وافرة الثراء(١١٨) .

١٦٠ — وقام جندنا بالحراسة أثناء الليل أحسن قيام ، فلما كان الغد(١١٩) وقَدْ حَلَّتْ التاسعة صباحا خرج من كانوا ببرج غلاطيا ، وقد جاءتهم نجدة فى القوارب قوامها أولئك الذين كانوا فى القسطنطينية ، فبادر رجالنا إلى سلاحهم . وكان أول المهاجمين جيمس(١٢٠) دى أفين ورجاله المشاة . ولتعلم أنه هوجم هجوما عنيفا وأصابته فى وجهه ضربة من حربة جرحته جرحا أشفى منه على الهلاك ، وإذ ذاك هبَّ لنجدته أحد فرسانه واسمه نيكولا دى جنلان فامتطى فرسه واستطاع إنقاذ سيده مماهو فيه ، فاستحق الشرف العظيم .

١٦١ — ثم دوت فى أرجاء المعسكر صيحة تجمَّع على أثرها رجالنا من جميع النواحى وردوا العدو على أعقابه ردا فاحشا ، وراح الكثيرون منه مابين قتيل وأسير ، كما أن البعض لم يعودوا إلى البرج بل فروا إلى القوارب التى جاءوا بها ، وابتلعت المياه أغلبهم ونجى القليلون ، أما الذين عادوا إلى البرج فقد تكأكأ عليهم رجالاتنا فى عنف لم يستطيعوا معه إغلاق بابه الذى استمر عنده القتال ، واستولى عليه عسكرنا بالقوة ، وأسروا جميع من كان فى البرج ، ولقى الكثيرون منه منيتهم قتلا .

(٣٣)
هجوم الصليبين برا وبحرا على القسطنطينية

١٦٢ — هكذا تم أخذ برج غلاطيا كما تم الاستيلاء على مرفأ القسطنطينية عنوة ، وإذ ذاك استراح أكثر رجال الجيش وأخذوا فى شكر الرب ، أما الذين كانوا بالمدينة فقد

---

(١١٨) فيما يتعلق بأسوار القسطنطينية وابراجها وتحصيناتها راجع :
A. Van Malligen: Byzantine Constantinople: The Walls of the City.

(١١٩) اى يوم ٦ يوليو ١٢٠٣م (= ٢٨ شوال ٥٩٩هـ) .

(١٢٠) هو جيمس الثانى دى أفين Avesnes من بارونات فرنسا الذين انضموا للحملة التى يتكلم عنها كتابنا هذا منذ أول لحظة ، وهو محل ثناء من الكتاب الصليبيين ، وسيصبح صاحب « نجرو بونت » (انظر ماسبق حاشية رقم ٩٨) ويستمر من ١٢٠٤ حتى ١٢٠٩ ، وكان كأبيه جيمس الأول المتوفى سنة ١١٩١ أمام أرسوف فى بلاد الشام فى الحملة الصليبية الثالثة وفى مواجهة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكانت قوات الأب منضمة إلى فرسان المعبد ، وكان هلاكه فى وقعة ارسوف اندفاعا أكثر منها بطولة ، انظر بهاء الدين بن شداد ص ٢٥٢ ومابعدها وانظر ايضا :
William of Tyre: Eracles, p. 185.

اشتد بهم الحزن ، فلما كان اليوم التالى تَمَّ دخول جميع السفن والقوارب والأغْرِبة ومراكب الحمولة إلى الميناء . ثم اجتمع رجال الجيش للتشاور فيما ينبغى عليهم عمله : أيهاجمون المدينة برا أم بحرا ؟ وأصَرَّ البنادقة على تثبيت سلالم التسلق على السفن ، وأن يكون الهجوم كله من ناحية البحر .

اما الفرنسيون فقالوا : إنهم يتقنون الهجوم بحرا اتقانهم أياه برا ، ولما كان عندهم جيادهم وأسلحتهم فإن خير مايفعلونه هو الهجوم برا ، ومن ثم فقد اتفق الرأى فى النهاية على أن يهاجم البنادقة المدينة بحرا ، أما البارونات ورجال الحملة فيهاجمونها برا .

١٦٣ – أقام الصليبيون حيث هم أربعة أيام ، فلما كان اليوم الخامس كانوا قد تسلحوا جميعا ، وتقدمت فرقهم كلها على جيادها حسب ترتيبها على طول الميناء حتى وصلوا إلى قصر بلاشرن ، وأدْخلوا السفن المرفأ حتى أشرفوا على نفس المكان القريب من نهاية المرسى حيث كان هناك رافد مائى يصب فى البحر ، ويعبره الناس على جسر حجرى ، لكن اليونان عمدوا من قبل إلى تدميره ، وإذ ذاك أمر البارونات الجيش بالعمل طول ذلك اليوم وتلك الليلة فى إعادة بنائه حتى أتموا ترميمه وعاد إلى ماكان عليه ، فلما تبلج الصباح كانت الفرق جميعها فى كامل سلاحها وعدتها ، وركب بعضها فى إثر البعض الآخر حسب النظام المتفق عليه ، وزحفوا حتى أصبحوا أمام المدينة التى لم يخرج منها أحد لصدهم ، وكان هذا من أعجب الأمور ، لأن عدد رجال المدينة كان مائتى ضعف رجال الجيش الصليبى .

١٦٤ – ثم قرر البارونات قرارا لارجعة فيه ان يعسكروا بين قصر بلاشرن وقلعة بوهيمند التى كانت من قبل ديرا محاطا بالأسوار ، ومن ثم نصبت الخيم والسرادقات التى كان منظرها يبعث فى النفس الكبرياء ، على أن الجيش بأكمله لم يستطع ان يحاصر أكثر من باب واحد من أبواب القسطنطينية التى كانت تمتد على بعد ثلاثة فراسخ برا ، وكان البنادقة فى البحر فى السفن والمراكب قد نصبوا السلالم وأعدوا المجانيق والمقاليع لرمى البلد بها ، ونظموا صفوفهم أحسن تنظيم ، كما أعد البارونات على اليابسة مقاليعهم ومجانيقهم .

١٦٥ – ولتعلم انهم لم يُمْضوا وقتهم فى هدوء وسلام ، إذ لم تكن تمر ساعة من ليل أو نهار دون أن يوكل إلى إحدى الفرق المسلحة بالمرابطة أمام البوابة لحراسة الالآت ولصد أى هجوم مباغت ، ولكن على الرغم من كل تلك الاستعدادات فإن البيزنطيين لم يكفوا عن الهجوم من هذه الناحية أو من البابين الآخرين ، وكان لايفصل بين غاراتهم

سوى فترات متقطعة قصيرة ، حتى ان رجال الجيش أجمعهم كانوا مضطرين للاسراع لامتشاق سيوفهم فى اليوم الواحد ست مرات أو سبعا ، كذلك كانوا إذا خرجوا لجلب الميرة لم يستطيعوا أن يبعدوا عن المعسكر اكثر من مسافة تزيد عن أربع رميات قوس ، وكان المدخر لديهم ضئيلا جدا إلا من الطحين ولحم الخنزير المقدد وان كان الموجود منهما قليلا ايضا . أما اللحوم الطازجة فقد عدموها تماما إلاّ لحم الخيول التى يذبحونها ، وليكن معروفا لديك أن كل ماكان لدى الجيش من الميرة والمؤونة لايزيد عن حاجتهم لمدة ثلاثة أسابيع ، وهكذا كان رجالنا فى وضع شديد الخطورة ، زاد من خطورته أنه لم يحدث قط فى أية مدينة أن حاصرت فئة صغيرة كهذه أناسا كثيرين كهؤلاء .

(٣٤)
حوادث الهجوم الأولى

١٦٦ – وقد تحيل رجالنا حيلة بارعة جدا رأوها ذات جدوى عليهم حين أحاطوا المعسكر بأكمله بأوتاد قوية وألواح خشبية صلبة وموانع متينة ، فأصبحوا بذلك أكثر قوة وأكثر أمنا على أنفسهم عما كانوا عليه من قبل ، على أن الاغريق كانوا فى الوقت ذاته يراوحوننا بالهجمات بعضها فى إثر بعض ، لايدعون لنا لحظة نستجم فيها ونستريح ، ولكنهم كانوا فى كل غارة منهم علينا يتكبدون خسارة فادحة .

١٦٧ – وحدث فى أحد الأيام أثناء نوبة البرجنديين بالحراسة ان كَرّ عليهم الاغريق كرة جمعوا لها فئة من أحسن محاربيهم ، فتصدى لهم البرجنديون وصدوهم صدا عنيفا ودفعوهم أمامهم فى شدة بالغة ، واتبعوهم عن قرب ، فلما قاربوا الباب انهارت عليهم الأحجار الثقيلة ، وهنا وقع فى الأسر واحد من أحسن اغريق المدينة واسمه قسطنطين لسكاريس وكان اَسْرُهُ على يد واحد من رجالنا اسمه وليم دى نى ، أخذه وهو على حصانه وهنا أصاب حجر ذراع وليم دى شامبيت إصابة كسرته وكان الألم من أجله عظيما ، لأنه كان شديد الشجاعة عظيم البسالة .

١٦٨ – ولست أستطيع أن اخبرك بخبر جميع مانزل بنا من ضربات فادحة ، وماكان فينا من جرحى وهلكى ، ولكن حدث قبل انتهاء المعركة أن اشترك فى القتال فارس من أتباع هنرى أخى كونت بلدوين دى فلاندرز وهينولت ، واسمه أستاش دى مارسيه ، ليس عليه من السلاح غير سترة مبطنة وخوذة من الصلب ، وقد شد درعه إلى عنقه ، ولكنه أظهر من البسالة الرائعة فى دفع المغيرين ماأكبسه شرفا عظيما .

وقَلّ أن كان يمر يوم دون أن تجرى فيه اشتباكات بين الجانبين ، ولكننى لاأستطيع أن أخبرك بها كلها إذ كان يندر أن يتركنا العدو من غير غارة يراوحنا بها ، فلم يكن فى استطاعتنا النوم أو الراحة أو الأكل إلا ونحن فى كامل سلاحنا .

١٦٩ — وقام الاغريق بمهاجمتنا ذات مرة من أحد الأبواب ، ولذا كانت خسارتهم عنده كبيرة ، ومات فى ذلك الهجوم فارس اسمه « وليم دى جى » كما أبدع ماتيو دى والنكورت ونفق حصانه من تحته إذ قتل لدى الجسر القائم عند الباب ، واستبسل كثيرون ممن اشتركوا فى هذه المعركة ، وكان أكثر هجوم البيزنطيين علينا من البوابة الواقعة وراء قصر بلاشيرناى ، وهنا حاز بطرس دى براسيو لنفسه شرفا أكثر من أى فرد آخر ، لأنه كان معسكرا فى مكان هو أدنى مايكون إلى القتال ومن ثم كان كثير الاشتراك فيه .

(٣٥)
الهجوم على المدينة

١٧٠ — وهكذا استمر رجالنا يعانون الخطر ويكابدون المشقة قرابة عشرة أيام ، حتى إذا كان صباح الخميس[١٢١] أصبح كل شىء معدا للهجوم ، نُصِبَت السلالم ، وكذلك أعد البنادقة سلالمهم عند البحر ، وتم الاتفاق على أن تكون خطة القتال على الصورة التالية : هى أن تنهض ثلاث فرق من الفرق السبعة بحراسة المعسكر الموجود خارج المدينة ، أما الأربع الأخرى فيوكل إليها شن الهجوم .

ثم عهد إلى المركيز بونيفاس دى مونتفرات بحراسة المعسكر من الناحية المواجهة للحقول ، ويعاونه فى ذلك فريق البرجنديين ورجال شمبانيا وماتيو دى مونت مورنس .

وخرج بلدوين كونت فلاندرز وهينولت مع جماعته وبصحبته أخوه هنرى لمهاجمة العدو ، كما مضى للهجوم أيضا كونت لويس دى بلوا وشارتر وكونت هيج دى سنت بول ومن معهما .

١٧١ — ثم نصبوا سلمين عند حائط قرب البحر ، وقام بحراسة السور خير حراسة جماعة الانجليز والدانمركيين ، وكان الهجوم عنيفا ضاريا وحشيا واستطاع بعض الفرسان واثنان من البرجندية صعود السلالم وهاجموهم من فوق السور الذى ارتقاه مالايقل عن

---

(١٢١) أى يوم ٦ يوليو ١٢٠٣ (= ٢٨ شوال ٥٩٩ هـ) .

خمسة عشر رجلا ، ودارت الحرب هناك بالأيدى والفئوس والسيوف ، كما ضاعف الذين بالداخل من شدة هجماتهم ، ورموهم فى الخارج بصورة بالغة الوحشية ، ولم يحتفظوا إلا بأثنين أخذوهما أسرى ، أما رجالنا الذين أسرهم العدو فقد قادهم القوم أمام الامبراطور الكسيوس الذى أفعمت رؤيته اياهم قلبه سرورا .

هكذا كان أثر الهجوم على الفرنسيين الذين جرح الكثيرون منهم ، ودقت عظام البعض الآخر منهم مما أسخط البارونات أشد السخط .

١٧٢ — لم يَنْسَ دوج البندقية فى الوقت ذاته القيام بدوره ، بل رتب سفنه ومراكب نقله وقواربه فى صف واحد أمْتَدّ طولا مسافة ثلاث رميات القوس ، وشرع البنادقة فى الاقتراب من تلك الناحية من الشاطىء الواقعة تحت الأسوار والأبراج ، وكنت ترى اذ ذاك الالآت ترمى بالمنجنيق من السفن ومن مراكب النقل ، والسهام تشق أجواز الفضاء ، والنبل يطير عبر الأقواس فى حذق ومهارة ، أما من بالداخل فقاموا بالدفاع عن الأسوار والأبراج فى استماتة بالغة ، وكانت السلالم المنصوبة على السفن قد أخذت تقترب حتى كانت السيوف والحراب تلتحم ظباها بعضها ببعض فى كثير من الأماكن ، وكانت الجلبة والضوضاء شديدين حتى لكأن الأرض والبحر قد اختلطا ببعض ، ولتعلم أن الأغربة لم تجرؤ على الدنو من الشاطىء .

(٣٦)
الاستيلاء على خمسة وعشرين برجا

١٧٣ — والآن فإنى مسمعك عملا غريبا من أعمال القوة ، ذلك أن دوج البندقية ، وهو الشيخ الهرم الكفيف ، كان يقف على مقدم غرابه فى كامل سلاحه ، وأمامه علم القديس مرقص ، وأخذ يصرخ فى رجاله آمرا إياهم أن ينزلوه الى البر وإلّا أنزل بهم غضبه ، فانصاعوا لأمره ، إذ أن غرابه كان شبه راسٍ على البر ، فقفز[١٢٢] رجاله منه الى اليابسة حاملين أمام الدوج بيرق القديس مرقص .

١٧٤ — ولما رأى البنادقة راية القديس مرقص تخفق على الشاطىء ، وأن غراب مولاهم قد مس الأرض قبلهم أحسوا جميعا بالخجل ونزلوا عن بكرة أبيهم إلى اليابسة ، فقفز من كانوا فى مراكب النقل وأرسو على الشاطىء ، كما وثب من بالسفن الكبيرة إلى

---

(١٢٢) وكان ذلك يوم ١٧ يوليو ١٢٠٣م .

القوارب الصغيرة ، وأعملوا مجاديفهم قاصدين الشاطىء باذلين غاية جهدهم من أجل ذلك الهدف ، فكنت ترى هجوما عظيما رائعا ، شهد بذلك جودفرى فلهاردوان واضع هذا الكتاب . كما أن أكثر من أربعين رجلا أنبأوه عن يقين أنهم رأوا علم القديس مرقص حامى البندقية على قمة أحد الأبراج ولايعرف أحد مامَنْ ذا الذى كان يحمله هناك .

١٧٥ – ودونك الآن معجزة عجيبة فقد هجر المدينة من كانوا بداخلها وتخلوا عنها فدخلها البنادقة جد مسرعين ، واستولوا على خمسة وعشرين برجا من أبراجها وشحنوها برجالهم ، واستقل الدوج قاربا وأرسل رسلا الى البارونات ينبؤهم باستيلائه على هذه الأبراج الخمسة وعشرين وليطمئن خاطرهم باستحالة استرداد اليونان هذه الأبراج ، ففرح البارونات بالخبر فرحا كذَّبوا معه آذانهم ، وشرع البنادقة يرسلون إلى الجيش فى القوارب مااستولوا عليه فى المدينة من الجياد والمهر .

١٧٦ – ولما رأى الامبراطور الكسيوس أن رجالنا دخلوا المدينة أرسل لمحاربتهم جموعا غفيرة من اليونان حتى لقد خيل لنا أننا لن نستطيع الصمود أمامهم ، فأخذنا فى إضرام النيران فى المبانى الواقعة بيننا وبينهم ، وهبت الريح من ناحيتنا وازدادت النار اشتعالا حتى عجز البيزنطيون عن رؤية رجالنا الذين ارتدوا إلى أبراجهم التى تم لهم امتلاكها وفتحها .

(٣٧)
الكسيوس يخرج للقتال ثم يرتد من غير حرب

١٧٧ – حينذاك نهض الكسيوس امبراطور القسطنطينية بجميع قوات المدينة وأخذوا سبيلهم عبر الأبواب الأخرى التى كانت تبعد عن المعسكر بمسافة لاتقل عن فرسخ ، وشرع كثيرون فى الخروج حتى لقد كان يخيل للرائى أن الدنيا بأجمعها قد تجمعت هناك ، وإذ ذاك رتب الامبراطور جنوده فى السهل وركبوا قاصدين المعسكر ، فهبَّ رجالنا الفرنسيون من كل ناحية إلى امتشاق السلاح حين رأوهم قادمين عليهم .

وفى هذا اليوم كان هنرى – أخو بلدوين كونت فلاندرز وهينولت – قائما على حراسة آلات القتال أمام باب قصر بلاشر ناى ومعه ماتيو دى والينكورت وبلدوين دى بوفوار وأتباعهم ، فأعد الامبراطور ألكسيوس لصدهم عددا ضخما من رجاله الذين

كلفهم بالخروج من ناحية الأبواب الثلاثة ، واتفق معهم على أن يقوم هو بمهاجمة الجيش من ناحية أخرى .

١٧٨ — خرجت الكتائب الست بعد ذلك من معسكرنا وفق النظام الذى اتُّفِقَ عليه ، ورتبت صفوفها أمام المتاريس ، فكان السرجندية والسادة وقوفا على أقدامهم وراء الجياد ، وكان رماة السهام والأقواس أمام فريق الفرسان المشاة الذين كان لدينا منهم مالايقل عن مائتى فارس ليس لهم جياد وقد وقفوا بلا حراك أمام المتاريس ، ودل عملهم هذا على الحكمة البالغة اذ لو أنهم كانوا قد تحركوا للهجوم فإن العدو — بكثرته الضخمة — كان لابد مكتسحهم أمامه وطاويهم بين لجاته .

١٧٩ — بدا السهل كله وكأنما قد غطته الجنود الذين تقدموا فى بطء وانتظام ، ولقد كنا فى خطر داهم اذ لم يكن لدينا غير ست فرق ، بينما كان عند الاغريق أربعون فرقة ، كل واحدة منها أضخم عددا من أية واحدة من فرقنا التى كانت تمتاز بدقة تنظيمها ، حتى لم يكن فى الاستطاعة مهاجمتها إلاّ من الأمام ، وتقدم الامبراطور ألكسيوس على صهوة جواده حتى أصبح كل من الجانبين على بعد رمية من الآخر ، فلما سمع دوج البندقية بذلك أمر رجاله بالتقدم والتخلى عن الأبراج التى كانوا قد استولوا عليها ، وقال إنه راغب فى أن يشاطر الحجاج مصيرهم : حياة كانت أو موتا ، ومن ثم جاء إلى المعسكر ، وكان هو نفسه أول من مست قَدَماهُ الأرض ، وجلب معه أكبر عدد من جماعته .

١٨٠ — وهكذا وقفت جيوش الحجاج والبيزنطيين وجها لوجه مدة طويلة دون أن يجرؤ اليونان على مهاجمة صفوفنا ، وأبى رجالنا الابتعاد عن متاريسهم ، فلمّا شاهد الامبراطور ألكسيوس هذا الأمر أخذ فى سحب رجاله ، حتى إذا جمعهم أجمعين وَلَّى بهم مُنْهَزِما ، فلما رأى الحجاج المحاربون مافعله الامبراطور اخذوا يزحفون عليه زحفا بطيئا واخذت القوات اليونانية فى التقهقر وارتدت إلى قصر اسمه قصر فيلوباس Philopas .

١٨١ — ولتعلم أن الرب لم ينقذ أبدا قوما من خطر داهم كما أنقذ الجيش فى ذلك اليوم ، واعلم أيضا أنه لم يكن أحد جرىء فى الجيش إلا وكان شديد الفرح ، واستمرت المعركة طول ذلك اليوم ، ولم يشأ الرب أن يحدث شىء أكثر من هذا ، وعاد الامبراطور ألكسيوس إلى المدينة ، وانكفأ رجالنا إلى معسكراتهم ثم نضوا عنهم أسلحتهم لشدة

مابهم من تعب ومشقة ، واقتصروا على قليل من الزاد والشراب لضآلة مالديهم من الطعام المدخر .

(٣٨)
فرار الامبراطور الكسيوس الثالث وتولية اخيه اسحق مكانه ومكاتبة الصليبيين لاسحق

١٨٢ – والآن اصغ إلى معجزات سيدنا – فما أروعها حين شاء إظهارها !!

ففى تلك الليلة بالذات حمل ألكسيوس إمبراطور القسطنطينية كل ماإستطاع حمله من خزانته واستصحب معه أكبر عدد ممكن من الرجال ممن رغبوا مشاطرته الرحيل ومن ثم فرّ[١٢٣] من المدينة هاجرا إياها .

أما الذين تخلفوا بها فقد استبدت بهم الدهشة وانطلقوا إلى السجن الموجود به الامبراطور اسحق الذى كانت عيناه مسمولتين ، فألبسوه ثيابه الملوكية ، وحملوه إلى قصر بلاشرناى الكبير ، وأجلسوه على عرش مرتفع ، وقدموا له فروض الطاعة باعتباره حاكمهم ، ثم استجابوا لنصيحته فاختاروا رسلا من قبلهم بعثوا بهم إلى الصليبيين ينبئون ابن الامبراطور والبارونات بهروب الامبراطور الكسيوس ، وأنهم نصبوا من جديد الامبراطور اسحق امبراطورا عليهم .

١٨٣ – فلما وقف الشاب على ماجرى استدعى إليه ماركيز بونيفاس دى مونتفرات الذى بعث من جانبه فى طلب البارونات من كل فرق الجيش ، فلما التأم شملهم جميعا فى سرادق ابن الامبراطور إسحق أفضى اليهم الكسيوس[١٢٤] بالنبأ ، فلما صافح الخبر سمعهم بلغت بهم الفرحة حدا أعجزهم عن الكلام إذ لم يكن ثم خبر أنْدَى وقعا منه على نفوسهم ، وتوجهوا جميعا بالشكر العظيم لله اذ أمدهم بالنصر فى مثل هذا

---

(١٢٣) اخطأ بعض المؤرخين إذ ذكر ان الامبراطور الكسيوس استصحب معه فى فراره ابنة له سموها « ايرين » ، والواقع أن ايرين هذه هى بنت إسحق الثانى انجيلوس ، وكانت فى ذلك الوقت بالذات فى المانيا اذ كانت زوجة فيليب سوابيا ، وبالرجوع الى شجرة اسرة البيت الانجيلوسى يتبين لنا ان ابنة الكسيوس الثالث كانت تسمى يودوكيا Eudocia وهى زوجة الكسيوس الخامس دوكاس مورزوفيلوس ، وكانت قبله تحت حاكم الصرب ، انظر
J. Ostrogorsky: History of the Byzantine State, p. 416

(١٢٤) المقصود بذلك ألكسيوس بن إسحق .

الوقت القصير ورفعهم من الدرك الأسفل ، حتى حق لهم أن يقولوا مع القائل « لن يتمكن أحد مامن ايذاء من يشاء الله أن يساعده » .

١٨٤ – أخذ الفجر فى الانبلاج ، وشرع رجال الجيش فى حمل أسلحتهم التى كانوا وضعوها على مقربة منهم لعدم ثقتهم أبدا فى اليونانيين ، وشرع الرسل فى الخروج من المدينة ، فَرَاح يخرج كل اثنين أو ثلاثة معا ، وراحوا يقصون نفس القصة ، واتفق البارونات والكونتات ودوج البندقية أن يبعثوا برجال من عندهم إلى المدينة للوقوف على مدى حقيقة الأمور ، فإن طابق الخبر الخبر ، والواقع المسموع ، طلبوا من الامبراطور التصديق على الاتفاقيات التى أبرمها ابنه ، فإن رفض أعلنوه انهم لن يأذنوا للابن فى دخول المدينة ، ومن ثم اختير الرسل فكانوا ماتيو(١٢٥) دى مونت مورنسى وجودفرى مارشال شمبانيا واثنين من البنادقة من جماعة دوج البندقية .

١٨٥ – صاحب القوم الرسل إلى الباب وفتحوه لهم ، فترجلوا عن جيادهم ، وكان اليونان قد أوقفوا على طول الطريق الواصل بين البوابة وقصر بلاشرناى جماعة من الانجليز والدانمركيين حاملين فؤوسهم ثم ساروا بالرسل الى القصر الكبير فوجدوا به الامبراطور اسحق يرفل فى غالى الثياب حتى لتعجز عن أن تجد فى الدنيا بأجمعها مثيلا له فى مثل هذا الدثار الغالى ، وقد جلست الى جانبه زوجته الامبراطورة(١٢٦) وكانت من أجمل النساء طلعة ، وكانت إبنةَ ملك المجر واكتظت القاعة بكثير من أعيان الرجال وكرام العقائل حتّى لم يكن فى قدرة المرء أن يحرك قدمه دون أن تطأ أحدا ، وبرزت السيدات فى أبهى زينتهن ، وعليهن من الحلّى مالا مزيد عليه لمستزيد ، وهكذا فإن جميع الذين كانوا يقفون بالأمس ضد الامبراطور إسحق أصبحوا اليوم رهن إشارته فى كل شىء .

---

(١٢٥) هو ماتيو بارون مونت مورنسى الفرنسى الأصل ، وكان من اوائل الفرنجة البارزين الذين استجابوا للدعوة للحرب الصليبية الرابعة .

(١٢٦) وهى الامبراطورة مرجريت ابنة بيلا الثالث ملك المجر ، وكان إسحق امبراطور بيزنطة قد تزوجها سنة ١١٨٥ حين عقد معاهدة مع بيلا Bella بقصد وقوفه إلى جانبه ، ثم تزوجت بعد ذلك من بونيفاس دى مونتفرات ، وكان لها دخل فى النزاع بين بونيفاس هذا وبين الامبراطور بلدوين ، وقد انجبت لبونيفاس ولداً عرف باسم ديمتريوس .

(٣٩)
اسحق الثانى انجيلوس يصادق على الاتفاق

١٨٦ – مثل الرسل أمام الامبراطور اسحق وبالغ هو والذين بحضرته فى الاحتفاء بهم ، فقالوا له إن معهم رسالة من ابنه ومن بارونات الجيش يريدون الافضاء بها إليه على انفراد ، فغادر مكانه ودخل أخرى غير مستصحب معه سوى الرسل الأربعة وزوجته ومستشاره وترجمانه .

١٨٧ – اتفق الرسل على أن ينوب فى الحديث عنهم جودفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا فقال للامبراطور إسحق :

« مولاى هاأنت ذا ترى ماأديناه من خدمة لابنك ، وكيف حافظنا على عهودنا معه ، ولكنه لايستطيع المجىء إلى هنا حتى تؤكد لنا قُبُولَك تنفيذ الاتفاقات التى أبرمها معنا ، وإنه ليسألك – كابنك – أن تصادق على هذه العهود فى صورتها التى عليها بالأسلوب الذى أمضاه » .

فقال لهم الامبراطور : « وماهى هذه الاتفاقيات ؟ » .

١٨٨ – فأجابه الرسل : « إنها على الصورة التى سنخبرك بها :
ان يَرُدّ جميع امبراطورية[١٢٧] رومانيا إلى طاعة روما التى انفصلت عنها منذ حقبة طويلة .

هذا بالاضافة إلى إعطاء الجيش مائتى الف قطعة نقود فضية .

وان يَمُد العسكر – صغيرهم وكبيرهم – بمئونة عام من الطعام ، وأن يبعث فى سفنه وعلى نفقته عشرة آلاف محارب – مابين راجل وفارس – إلى أرض مصر يُبْقيهم هناك مدة عام تكون نفقتهم فيها من جيبه .

وأن يبعث طيلة حياته بخمسمائة فارس يقيمون فى بلاد ماوراء البحر يحرسونها على أن يتكفل بنفقتهم .. »

« هذا هو العهد الذى اتفق ابنك معنا عليه ، ودعمه بالايمان والوثائق الممهورة بخاتمه ، وأكده أيضا زوج ابنتك فيليب ملك ألمانيا ، ونحن نريد أن تؤكد أنت الآن هذا الاتفاق » .

---

(١٢٧) المقصود بذلك الامبراطورية البيزنطية .

١٨٩ – فقال الامبراطور : « الحق أقول لكم إن شروط هذا الاتفاق مرهقة كل الارهاق ، ولست أدرى كيف يمكن الوفاء بها ، لكنكم – على أية حال – أَدَّيْتُم لى ولولدى خدمة من الخدمات الجليلة فلو منحناكم إزاءها كل الامبراطورية لما كنا بَرادّين جَمِيلكم » .

وتبادل الطرفان كثيرا من العبارات المنطوية على هذا الروح ، وانتهى الأمر أخيرا بتصديق الأب على تلك الشروط التى ارتضاها ابنه من قبل ، وأكد تصديقه عليها بالقسم والوثائق المختومة بالأختام الذهبية ، وسلمها الامبراطور إسحق إلى الرسل الذين سألوه بعدئذ أن يأذن لهم فى الانصراف فأذن لهم ، فعادوا إلى الجيش وأخبروا البارونات أنهم قد أنجزوا مهمتهم .

(٤٠)
الصليبيون يدخلون القسطنطينية ويتوجون الكسيوس الرابع

١٩٠ – ثم امتطى البارونات جيادهم وانطلقوا بالأمير الشاب تكللهم الفرحة الغامرة فى طريقهم به إلى والده ، ففتح له اليونان الأبواب ، واستقبلوه بترحاب عظيم واحتفاء بهى ، وكانت غبطة الأب والابن عظيمة إذ لم ير أحدهما الآخر منذ زمن بعيد ، كما أنهما انتقلا من الفقر المدقع والتعاسة إلى ماهما عليه الآن ، وذلك بفضل من الله ومعونة الحجاج ، كذلك عم السرور البالغ أرجاء القسطنطينية وخارجها أيضا بين جيش الحجاج من أجل ماأفاضه الرب عليهم من الشرف والانتصار .

١٩١ – فلما كان الغد التمس الامبراطور وابنه معا من الكونتات والبارونات أن يعسكروا ببركة الرب على الجانب الآخر من مضيق الدردنيل المواجه لاستانور وغلاطية ، اذ لايؤمن أن يشب النزاع بينهم وبين اليونان لو أنهم ظلوا مرابطين حيث هم فى المدينة ، ولاتؤمن عواقب هذا النزاع ، فقد يؤدى إلى خراب العاصمة وتدميرها ، فقال الكونتات والبارونات أما وانهم لم يقصروا قط فى معاونته وأدوا له كثيرا من الخدمات فإنه لايسعهم أن يرفضوا له أى رجاء يسألهم إياه .

ومن ثم مضوا وعسكروا على الشاطىء الآخر فأقاموا هناك يرفرف عليهم الهدوء ، ويغشاهم السلام والسكينة ، إلى جانب ماتوفر لهم من مئونة كبيرة طيبة .

١٩٢ – والآن يجب أن نعرف أن كثيرا من رجال الجيش ذهبوا لرؤية القسطنطينية ومشاهدة قصورها الغنية وماتحفل به من الكنائس الرائعة ، ومطالعة ماحوته المدينة من

كنوز كثيرة لاتطاولها فيها أية مدينة أخرى ، ولست أرانى فى حاجة إلى الكلام عما بها من الآثار المقدسة ، فقد كان بها يومذاك مايوازى الذى من هذه المخلفات الدينية فى بقية الدنيا[١٢٨] منها كلها ، وهكذا كان هناك تجانس تام بين الفرنسيين والبيزنطيين فى كل شىء من تجارة وغيرها .

١٩٣ — استقر الرأى بين الفرنجة واليونان على تتويج الامبراطور الجديد يوم[١٢٩] عيد سيدنا القديس بطرس ، واتسم تتويجه بالأبهة الرائعة والاحتفال العظيم جريا على عادة الأباطرة الاغريق فى ذلك الزمن ، ثم أخذ الامبراطور فى دفع الأموال المستحقة للجيش ، فتقاسمها رجال الحملة فيما بينهم ، وأخذ كل رَجُلٍ ماكان قد دفعه من قبل فى البندقية أجرا لسفره .

(٤١)
الامبراطور الكسيوس بن اسحق يطيل فترة اقامة الصليبيين

١٩٤ — كان الامبراطور الجديد كثير التردد على الجيش لزيارة البارونات فى مخيماتهم ، وكان كثير التقدير لهم ، باذلا لهم كل مافى مقدوره من رعاية ، ولم يكن هذا الا تقديرا منه لصدق خدمتهم إياه وسعيهم من اجل صالحه ، وفى ذات يوم جاء ليرى البارونات على انفراد فى معسكر كونت بلدوين دى فلاندز وهينولت ، فلما جاءه البارونات ودوج البندقية خاطبهم قائلا :

« أيها السادة ، إننى أنا الامبراطور بفضل الرب وبسعيكم ، ولقد أديتم لى أجل خدمة يمكن أن تؤديها أية جماعة لرجل مسيحى ، واعلموا أن هناك أناسا كثيرين يبدون لى غاية الود ولكن قلوبهم تنطوى على كراهيتى ، وهاانتم ذا ترون اليونان يضمرون لى البغضاء الشديدة لأننى استرددت عرشى بفضل معونتكم ، والآن قد قرب الأمد المضروب الذى لامناص لكم من الرحيل بعده ، كما أن مزاملتكم للبنادقة لن تجاوز عيد القديس ميخائيل ، ولن أتمكن فى خلال هذه الفترة من الوفاء لكم بعهدى الذى عاهدتكم إياه ، واعلموا أنكم لو تخليتم عنى وتركتمونى لأسْفَر اليونان عن كراهيتهم التى يضمرونها لى بسببكم ، وحينذاك تضيع بلادى من يدى ، ويفتك الناس بى ، ولذلك ألتمس منكم أن

---

(١٢٨) راجع كلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى ، ويلاحظ ان كلارى هنا كان شاهد عيان لما يصف من هذه الأحداث .

(١٢٩) أى يوم أول اغسطس سنة ١٢٠٣م (= ١٩ ذو القعدة ٥٩٩هـ) .

تفعلوا ماأسألكم إياه ، وهو أن تظلوا باقين هنا حتى شهر مارس ، وسأتكفل بتموين سفنكم مدة عام واحد يبدأ من عيد القديس ميخائيل ، وسأدفع نفقة البنادقة ، وسأظل أمدكم حتى عيد الفصح بكل ماتكونون فى حاجة إليه ، وفى أثناء هذه الفترة أكون قد مكنت الأمر لنفسى فى بلادى فلا أفقدها مرة أخرى ، وأكون قد أوفيت باتفاقى معكم لأننى سأكون قد دفعت لكم ماتستحقونه من الأموال التى سأحصل عليها من كل دَخْل بلادى ، وأكون مستعدا كذلك بالسفن لأذهب معكم بنفسى أو أبعث آخرين وفاء بعهدى لكم ، وسيكون لديكم فترة الصيف كله لمحاربة المسلمين » .

١٩٦ — فأجابه البارونات إنهم سيتشاورون فيما بينهم على حدة دون حضوره معهم ، وكانوا يدركون تمام الادراك أن الحق كل الحق فيما يقوله الامبراطور ، وأن الخير كل الخير لهم وله فى إجابتهم مطلبه ، ولكنهم قالوا له إنهم لايستطيعون الموافقة الا برضاء الجيش كله ، ولذلك فإنهم سوف يبسطون الأمر أمام رجال الحملة ، ويأتونه بالخبر الذى ينعقد عليه اجتماعهم . ومن ثم انصرف الامبراطور ألكسيوس من لدنهم وآب إلى القسطنطينية ، أما رجالنا فقد ظلوا فى معسكراتهم وعقدوا اجتماعا فى اليوم التالى حضره جميع البارونات وزعماء الجيش ومعظم الفرسان وحدثوهم بما قاله الامبراطور لهم .

(٤٢)
الخلاف بين الصليبيين وموت ماتيو مونتمورنس

١٩٧ — نشب جدال عنيف بعدئذ بين الصليبيين كما حدث من قبل ، وقد أثارَ هذا الجَدَلَ اولئك الذين كانوا يرغبون فى رجوع الجيش لما بدى لهم من طول تماسكه ، وحينذاك عمدت الفئة التى أثارت الشقاق فى كورفو إلى تذكير الباقين بأيمانهم قائلة لهم : « أعطونا السفن التى أقسمتم على إعطائها لنا لاننا نعتزم الذهاب إلى سوريا[١٣٠] » .

١٩٨ — فاستعطفهم الآخرون مستثيرين شفقتهم وقالوا لهم : « نسألكم بحق الله أيها السادة ألا تضيعوا هباء ذلك الشرف العظيم الذى منحنا الله إياه ، فلو أننا شرعنا فى الرحيل إلى بلاد الشام لكان بلوغنا إياها فى مستهل فصل الشتاء ، فلا نكون قادرين إذ ذاك على القتال ، ولايتحقق مايريده الرب ، أما إذا تريثنا حتى شهر مارس فإننا سوف

---

(١٣٠) راجع فقرة ١١٧ من هذه المذكرات .

نترك الامبراطور وقتذاك فى وضع حسن ، ويتوفر عندنا المال الكثير والذخيرة الجمة ، ومن ثم نمضى قدما إلى بلاد الشام ونجتاح أرض مصر ، وسيبقى الامبراطور معنا الى عيد القديس ميخائيل ، وحينذاك لن يكون قادرا على مغادرتنا بسبب الشتاء فيبقى الى عيد الفصح فيتيسر لنا غزو بلاد ماوراء البحر » .

١٩٩ – اما الذين أرادوا أن ينفرط عقد الصليبيين فلم يعبئوا بوجاهة الأسباب أو تفاهتها طالما أن الجيش سيتفكك شذر مذر ، أما الذين كانوا حريصين على إبقاء وحدة المحاربين الحجاج فقد بذلوا غاية جهدهم ، حتى قَبِل البنادقة فى النهاية – بفضل مساعدة الرب – إجراء اتفاق جديد لاستبقاء الأسطول مدة سنة ، على أن يدفع الامبراطور ألكسيوس لهم نفقة ذلك ابتداء من عيد القديس ميخائيل .

ومن ثم أقسم الحجاج – من ناحيتهم – على البقاء فى الجيش كما كانوا من قبل ولنفس المدة ، وهكذا عاد السلم واستتب الوفاق بيننا جميعا .

٢٠٠ – ثم أَلَمَّتْ بالجيش بعدئذ نكبة خطيرة فقد استبدت العلة بماثيودى مونت مورنسى الذى كان من أحسن الفرسان فى مملكة فرنسا ومن اكبر الموقرين وحمل الى فراشه سقيما ، وألح عليه المرض حتى أفضى إلى موته ، فوزعت الصدقات الجمة على روحه لعظم الخسارة فيه ، تلك الخسارة التى كانت أفدح ماصادفه الجيش من موت أحد رجالاته ، ودفن فى كنيسة سيدى القديس يوحنا المعمدان من كنائس فرسان إسْبِتَارِيَّة بيت المقدس .

(٤٣)
رحلة الامبراطور الجديد فى بعض أنحاء بلاده

٢٠١ – خرج الامبراطور الكسيوس من القسطنطينية بعد قليل على رأس حملة استجابة لنصيحة اليونان والفرنسيين ، وكانت مغادرته إياها فى حشد كثيف من جماعته ، هادفا إلى تهدئة الأمور فى امبراطوريته واخضاعها لارادته ، وصحبه فى هذا الخروج أيضا عدد كبير من البارونات .

أما الذين لم يصاحبوه فقد تخلفوا عنه لحراسة المعسكر ، فكان ممن ذهب معه مركيز بونيفاس دى مونتفرات ، وكونت هيج دى سنت بول ، وهنرى اخو كونت بلدوين دى فلاندرز وهينولت ، وجيمس داثنى ، ووليم دى شامبيت وهيج دى كوليمى ، وكثيرون غيرهم ممن لايذكرهم هذا الكتاب بالاسم . على حين بقى فى المعسكر كونت

بولدين دى هينولت وفلاندرز ، وكونت لويس دى بلوا وشارترز ، والغالبية العظمى من الحجاج الذين هم دون هؤلاء مكانة .

٢٠٢ – ويجب أن تعرف أنه فى أثناء هذا التقدم جاء جميع اليونان المقيمين على جانبى الدردنيل إلى الامبراطور الكسيوس للانخراط تحت لوائه ، وعَمَلِ مايشير به عليهم ، ولأداء يمين الولاء والتبعية له باعتباره رئيسهم ، ولم يشذ عن المجىء اليه سوى جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا حينذاك . وكان جوهانيزا هذا بلقانيا ثار ضد أبيه وعمه من قبل ، وظل يحاربهما مدة عشرين سنة ، واغتصب من أيديهما كثيرا من الأراضى حتى أصبح ملكا قوى الساعد مرهوب الجانب ، واعلم أنه غزا أكثر من نصف البلاد الممتدة غربا من مضيق الدردنيل ، لذلك لم يحضر ليكون رهن إرادة الامبراطور أو ليُعْلِنَ خضوعه له .

(٤٤)
الصراع بين الاغريق واللاتين فى القسطنطينية وحرق المدينة

٢٠٣ – بينما كان الامبراطور الكسيوس فى حملته هذه مرت بالقسطنطينية نكبة نكباء ، إذ نشب القتال بين من فيها من اليونان واللاتين الذين ازدحمت المدينة بالكثيرين منهم ، فحرك الشر فئة معينة من الناس لست أعرفهم فأضرموا النيران فى البلد ، فاندلعت اندلاعا رهيبا واستشرى خطرها حتى عجز كل الناس عن إخمادها أو تخفيف حدتها ، فلما رآها البارونات المعسكرون على الجانب الآخر من الميناء اشتد حزنهم ، وفاضت بهم البلوى حين شاهدوا الكنائس الفخمة والقصور الغنية وهى تذوب من شدة اللهب وتتساقط ، واستبد بهم الحزن لرؤيتهم الشوارع الكبيرة وقد امتلأت بشتى أنواع البضائع تلتهمها النيران بينما هم عاجزون عن عمل أى شىء .

٢٠٤ – هكذا اندلعت النار وامتدت عبر الميناء ، ووصلت إلى أكثف مناطق المدينة ازدحاما بالسكان ، وبلغت البحر من الشاطىء الآخر حتى دنت من كنيسة سنت صوفيا ، وظلت متقدة مدة يومين وليلتين ، ولم يستطع أحد ماإخمادها ، وكانت مقدمة النار – وهى مشتعلة – تمتد مسافة تزيد على نصف فرسخ عرضا ، ولايستطيع أحد أن يقدر مانزل من الخسارة بالمدينة أو حجم ماأتت عليه النيران من ممتلكات وثروات ، وهيهات لأحد ماأن يقدر عدد من راحوا طعمة للنيران من الرجال والنساء والأطفال .

٢٠٥ – لم يجرؤ على الاقامة بعد ذلك بالقسطنطينية من كان بها من اللاتين على اختلاف ديارهم ، لكنهم أخذوا نساءهم وأطفالهم وماستطاعوا إنقاذه من النار وركبوا السفن والقوارب ، وعبروا الميناء وجاءوا الى معسكر الحجاج ، ولم يكن عددهم قليلا إذ بلغوا قرابة خمس عشرة ألف نسمة مابين صغير وكبير ، وقد برهنت الأحداث فيما بعد على الجدوى التى عادت على الحجاج من مجىء هؤلاء اللاتين إليهم ، وهكذا دب النزاع والاختلاف بين اليونان والفرنجة ، ولم يُقَدّرْ لهم أن يعودوا إلى الوحدة التى كانت تسودهم من قبل ، ولم يعرف أحد الجانبين على من يلقى التبعة واللوم فى إضرام النار ، فانطوت قلوب كل من الفريقين على الحقد على الآخر .

وحدث فى هذا الوقت أمر أحزن البارونات ورجال الجيش حزنا عظيما إذْ مات رئيس دير لوس وكان رجلا تقيا فاضلا يطمع فى نجاح الحملة وخيرها ، وكان راهبا من رهبان الاخوان السسترسيان البيض .

(٤٥)
عودة الكسيوس الى القسطنطينية
وفشله فى الوفاء بعهوده للصليبيين

٢٠٧ – طالت فترة خروج الامبراطور الكسيوس فى رحلته التى نهض بها لتفقد الامبراطورية فقد امتدت حتى يوم عيد القديس مارتن (١١ نوفمبر) ، وإذ ذاك عاد الى القسطنطينية وعظمت الفرحة بمقدمه إلى قاعدة ملكه ، تمثل هذا فى خروج إغريقها وعقائلهم لمقابلته فى مواكب ضخمة ، كما خرج الحجاج لملاقاة أصدقائهم(١٣١) أيضا وسروا بهم سرورا عظيما . وهكذا عاد الامبراطور إلى القسطنطينية ودخل قصر بلاشرناى مرة ثانية ، وعاد مركيز دى مونتفرات وبقية البارونات إلى معسكراتهم .

٢٠٨ – أما الامبراطور الذى جرت أموره على خير مايرجوه فقد ذهب به الظن مذهبا خال معه أنْ قد أصبحت له اليد العليا فازْدَهَاهُ التيه ، وأبدى صلفا تجاه البارونات ونحو جميع أصحاب اليد البيضاء والفضل عليه ، وتعالى عليهم ، وكف عما كان يأخذ به نفسه من قبل من زيارته إياهم فى معسكراتهم ، فأرسلوا اليه يسألونه أن يدفَعَ اليهم

---

(١٣١) المقصود بذلك الفرنجة اللاتين الذين كانوا بصحبة ألكسيوس الرابع فى أثناء رحلته التفقدية التى تغيب فيها عن القسطنطينية ، كما يقال إنه خرج فى هذه الرحلة ليتعقب عمه المخلوع ألكسيوس الثالث أملا فى إلقاء القبض عليه والانتقام منه ، ولكى يعمل من ناحية أخرى على تأكيد سيادته وجعل يده هى العليا فى بلاد اليونان على جميع اليونان .

المبالغ المستحقة لهم عنده حسب اتفاقهم معه ، ولكنه أخذ يماطلهم مرة ويُسَوِّفُهمُ أخرى ، وكان يدفع لهم بين الحين والحين مبالغ تافهة ضئيلة حتى جاءت وقت كف فيه تماما عن مدهم بالمال .

٢٠٩ — اما المركيز بونيفاس دى مونتفرات الذى ادى له من الخدمات اكثر من سواه ، ووقف دائما إلى جانبه فقد طال تردده عليه مبينا له ماأسداه له الصليبيون من خدمات جليلة لم تؤدَّ الى أحد ماقط من قبل ، ومع ذلك فقد ظل الامبراطور دائبا على مماطلتهم ، ولم يعد أبدا للوفاء بما التزمه حيالهم من عهود ، وتبين لهم أخيرا حقيقة أمره وعرفوا أنه يضمر الشر لهم .

٢١٠ — إذ ذاك عقد بارونات الجيش اجتماعا مع دوج البندقية وقالوا إنهم أدركوا الآن أن الامبراطور لن يفى باتفاقه معهم بل ولن يقول الحقيقة أبدا ، وانهم باعثون إليه بسفارة قوامها جماعة من ذوى المكانة يطالبونه أن يبر بكلمته ، وليعرِّفوه بالخدمات التى أدوها له ، فإن رغب فى إنجاز مااتفق معهم عليه كفاهم منه هذا ، وإن كان غير عازم على الوفاء به ناصبوه العداء وقالوا له إنهم سيسلكون جميع السبل لاسترداد حقوقهم .

(٤٦)
الصليبيون يتحدون الامبراطورين اسحق والكسيوس

٢١١ — اختير لهذه السفارة ثلاثة هم : كونون دى بيثون ، وجوفرى دى فلهاردوان مارشال شمبانيا ، وميلون البربانتى من بروفنس . كما بعث دوج البندقية هو الآخر ثلاثة من رجاله ، فامتطى هؤلاء الرسل جميعا جيادهم وتمنطقوا بسيوفهم ، وتقدموا جنبا إلى جنب حتى بلغوا قصر بلاشرناى ، ولتعلم أنهم كانوا فى خطر داهم ، وركبوا مَتْنَ مركب لايؤمن الهلاك معه خوف خيانةٍ تصيبهم من جانب اليونان .

٢١٢ — فلما بلغوا باب القصر ترجلوا وعبروه فوجدوا الامبراطور الكسيوس وأباه الامبراطور اسحق جالسين على عرشين قد وضعا جنبا الى جنب ، كما جلست على مقربة منهما الامبراطورة زوجة اسحق والد ألكسيوس ، ولم تكن امه[١٣٢] ولكنها كانت فى الوقت ذاته اخت ملك المجر[١٣٣] وهى سيدة جمعت بين الحسن والطيبة . وكان معهم رفقة كبيرة من ذوى المكانة والأهمية حتى لقد بدا البلاط بلاط حاكم غنى قوى .

---

(١٣٢) سبقت الاشارة إلى هذا .

(١٣٣) كان ملك المجر فى هذه اللحظة هو ابن بيلا الثانى .

٢١٣ – رغب السفراء إلى كونون[١٣٤] دى بيثون – وكان فطنا ذرب اللسان – ان ينوب عنهم فى الحديث الى الكسيوس الشاب فقال :

« مولاى لقد جئنا اليك نيابة عن بارونات الجيش ودوج البندقية وهم يذكِّرُونك بالخدمة الجليلة التى أدوها لك ، مماهو معروف لجميع الناس وظاهر للكل قاطبة ، ولقد أقسمت أنت وأبوك على الوفاء بالشروط المتفق عليها ، وشهودهم على ذلك مافى أيديهم من وثائقكم وكتبكم ، ولكنك لم تبر بقسمك فلم تف بهذه الشروط الوفاء الذى كان مفروضا فيك »

٢١٤ – « لقد طال ترددهم عليك تذكرة لك ، وهانحن الآن نجيئك وأنت فى حضرة جميع وجوه رجالاتك ، نطالبك بالوفاء بالعهود المبرمة بيننا وبينك فإن فعلت ذلك كان خيرا ، وإن أبيت فاعلم أنهم لن ينظروا إليك منذ اليوم نظرتهم إلى رئيس أو صديق ، بل سيحاولون الحصول على حقوقهم بشتى الوسائل التى فى مقدورهم ، وإنهم ليحذرونك اليوم بأنهم لن يؤذوك فى شخصك أو فى شخص أى فرد آخر دون أن تكون البادىء بالتحدى ، لأنهم لم يسلكوا قط أبدا سبيل الخيانة التى ليست من مألوف عاداتهم فى بلادهم ، ولقد سمعت ماقلناه ، ولك أن تتخذ مايرضيك[١٣٥] » .

٢١٥ – اشتد غضب اليونان وضيقهم من هذا التحدى الصريح ، وقالوا إنه لم يوجد قط شخص بلغت به الجرأة والعنف وأن تحدَّى امبراطور القسطنطينية فى بيته . وأخذ القوم يحدجون الرسل بنظرات يتطاير منها الشرر المفزع ، وطالعهم الامبراطور ألكسيوس بوجه غاضب هو وجميع رجاله اليونان الذين كانوا إذا لاقوهم من قبل لاقوهم بوجوه هاشمة باسمة .

---

(١٣٤) راجع ماسبق حاشية رقم ١١٠

(١٣٥) يشير كلارى (فتح القسطنطينية ترجمة وتعليق حسن حبشى ، فقرة ١٠٥ ، ١٠٦) إلى أن الفرنجة بعثوا إلى الامبراطور ألكسيوس الرابع مرة أخرى فارسين يسألانه نيابة عنهم أن يدفع لهم ماالتزم به ، فردهم ردا غير كريم ، ولما علم الصليبيون بما كان من رد الكسيوس بن اسحق تشاوروا فيما بينهم ثم قال الدوج إنه ماض اليه للتحدث معه ، وفى ذلك يقول كلارى ان الامبراطور جاء راكبا فرسا فقال له الدوج ياألكسيوس ماالذى تعنيه بما قلت ؟ هلا فكرت كيف أنقذناك من الشقاء العظيم ؟ ، وكيف جعلنا منك مولى وسيدا ؟ ، وتوجناك امبراطورا ؟ ، فهلا رعيت عهدك معنا ؟ وهلا اعتزمك تنفيذ شيء اكثر ممامضى ؟ ، فقال له الامبراطور : « كلا، لن افعل شيئا أكثر مما فعلت ! » فقال له الدوق : « اتقول كلا أيها الغلام الشقى ؟ لقد كنا نحن الذين رفعناك من هاوية القذارة وسنردك ثانية إليها ، وانني لمتحديك ومنذرك أننى منذ هذه اللحظة سألحق بك من الأذى كل مافى قدرتى » . على أن « فلهاردوان » لم يشر إلى هذا الموقف ولاندرى أكان ذلك تجاهلا منه له أم لأن شيئا من هذا لم يحدث ؟ .

٢١٦ - تعالت الأصوات الغاضبة والجلبة إذ ذاك فى القاعة ، واستدار الرسل حتى اذا بلغوا الباب ركبوا جيادهم ، فلما صاروا فى الخارج لم يكن فيهم أحد الآ وقد شعر بالفرحة العظمى يخفق بها فؤاده ، إذْ كانت نجاتهم من الخطر الداهم إحدى العجائب الكبرى فقد كان المتوقع أن يهلكوا أو يؤسروا ، ولكنهم عادوا إلى المعسكر سالمين ليقصوُّا على البارونات خبر سفارتهم .

(٤٧)
بدء الحرب . الاغريق يحرقون سفن الصليبيين

٢١٧ - ومن ثم بدأت الحرب بين الفريقين اللذين لم يتوان أحدهما عن إيقاع اكبر الضرر بالآخر برا وبحرا ، وطالما تقاتل الفرنجة واليونان فى أماكن كثيرة ، ولم يفقد اليونان أكثر ممافقده الفرنجة ، ومن ثم فقد استمرت الحرب فترة طويلة حتى بلغ الشتاء ذروته . وأخيرا عمد البيزنطيون إلى خطة مزعجة لنا كل الازعاج ، مضرةٍ بنا كل الضرر إذ وثبوا إلى سبع عشرة سفينة من السفن الضخمة وأوسقوها بالكتل الخشبية والحطب والقار والحبال ، وانتظروا حتى جاء يوم هبت فيه الريح عنيفة من ناحيتهم من جانب المضيق ، وانتصف الليل فأشعلوا النيران فى السفن وفردوا قلاعها فى وجه الريح ، وتعالت ألسنة اللهب تشق أجواء الفضاء حتى لكأن العالم كله يحترق ، وجاءت السفن المحترقة نحو أساطيل الحجاج ، فعلا الصراخ فى الجيش ، وهب الجميع من كل جانب إلى سلاحهم ، وحينذاك انطلق البنادقة الى شوانيهم ، وفَعَل مثلهم كل من كان لديه غراب ، ثم شرعوا فى إبعادها عن النار .

٢١٨ - ويؤكد جودفرى مارشال شمبانيا الذى يملى الكتاب انه لم يَتَسَنَّ لجماعة أن تُظهر من البطولة فى البحر ماأظهره البنادقة فى تلك الليلة ، فقد وثبوا إلى الأغربة والقوارب المعلقة بالسفن وأمسكوا - على مرآى من العدو - بالمراكب المشتعلة ، وكان إمساكهم إياها بخطاطيفهم ، وسحبوها سحبا قويا ودفعوها خارج الميناء وتركوها تحترق وتغرق فى المضيق ، فجاء إلى الشاطىء كثير من الاغريق لايحصيهم العد ، وكثرت جموعهم حتى لكأنما ليست لهم نهاية وتعالت صيحاتهم ، حتى ليخيل اليك ان الماء واليابسة قد ذابا معا ورددوا صيحاتهم ثم وثبوا إلى ماوجدوه حاضرا من القوارب ، واندفعوا ناحية رجالنا الذين كانوا يصارعون النار ويحاولون إطفاءها ، فجرح البعض منهم .

٢١٩ – ماكادت الضجة تبلغ آذان فرساننا حتى هَبُّوا إلى سلاحهم فحملوه ، وانطلقت كتائبهم إلى العراء حسب الترتيب الذى كانوا يعسكرون به مخافة أن يهاجمهم الاغريق من ناحية البر .

٢٢٠ – وهكذا ظلوا فى عمل وكرب مقيمين حتى تبلج ضوء النهار ، وشاءت رحمة الرب ألا تفقد جماعتنا غير سفينة من سفن البيازنة كانت محملة بالبضائع أتَتْ عليها النار فكانَتْ طعمة لها وكان الخطر الذى أحاق بنا تلك الليلة مميتا ، إذ لو مست النار الأسطول لعلقت به وأصبحنا جميعا فى عداد الهالكين ، ولسدت علينا مسالك النجاة برا وبحرا واستحال علينا الخروج منها .

تلك كانت مكافأتنا التى جازانا بها الامبراطور الكسيوس لِقَاء خدماتنا له .

(٤٨)
مرزوفيلوس يغتصب الامبراطورية
موت اسحق وسجن ابنه الكسيوس

٢٢١ – رآى الاغريق ألا أمل للصلح مع الفرنجة بعد ماشب بينهم من النزاع الذى استحكمت حلقاته ، لذلك راحوا يتشاورون فيما بينهم سرا ، وأجمعوا على الغدر بإمبراطورهم الذى كان يدنى اليه واحدا من بينهم ويقربه اليه اكثر من سواه ويؤثره بعطفه ، ومع ذلك كان هذا الرجل واسمه مرزوفيلوس[١٣٦] أكثر القوم تحريضا

---

(١٣٦) ويعرف باسم ألكسيوس الخامس دوكاس مرزوفيلوس الذى لم يكن بعيدا عن الأسرة المالكة بل كان يجرى فى عروقه الدم الامبراطورى ، إذ كان جده الأعلى هو ألكسيوس كومنين الأول الذى حكم بيزنطة من ١٠٨١ حتى ١١١٨م ، وعاصر الحملة الصليبية الأولى وعَدَّه صليبيوها سببا من أسباب هلاك الكثير من رجالهم (انظر تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، وكان مؤلفه ممن ساهموا فى هذه الحملة) . ثم إن مرزوفيلوس هذا كان يعمل فى القصر الامبراطورى بالقسطنطينية ، وشارك فى حركة تمرد ضد ألكسيوس أنجيلوس الثالث سنة ١٢٠١م ، وذلك حين كان من زعماء الثورة ضد الوجود اللاتينى فى بيزنطة ، وإن لم تدم هذه الثورة اكثر من يوم واحد ، وكان أبرز مايميز مرزوفيلوس شدة كراهيته اللاتين ، ومن ثم الح على البيزنطيين أن ينصبوه إمبراطورا حتى يخلصهم من هؤلاء الأغراب الذين تمكنوا من الدولة منذ زمن ثم زاد تمكنهم باستعانة الكسيوس الرابع بهم واستقدامه اياهم طمعا منه فى ان يردوه الى عرشه ، ويبدو وأن مرزوفيلوس حرك العامة وغوغاء العاصمة على ان يذهبوا فى يناير ١٢٠٤ الى مجلس السينيت البيزنطى والى كبار رجال الدين يخبرونهم انهم غير راضين باستمرار بيت انجيلوس فى حكم البلاد ، ونصب الثوار عليهم فتى ارعن اسمه نقولا كانابوس Nicola Canabus جعلوه قائدا لحركتهم ونادوا به امبراطورا ، مما حمل الكسيوس الرابع على أن يلتمس المعونة والحماية من الصليبيين ، وأضاف نقولا الى حماقته بلاهة حين جعل رسوله الى الصليبيين مرزوفيلوس هذا الذى اغتنم الفرصة فزحزح الكسيوس الرابع عن عرشه ثم بادر فألقى القبض على نقولا كانابوس وقتله ثم جلس هو على العرش البيزنطى امبراطوراً . وكان مرزوفيلوس متزوجا من يودكيا بنت ألكسيوس الثالث .

للامبراطور على مشاققة الفرنجة وأكثرهم سعيا لحمله على محاربتهم .

٢٢٢ – وحدث فى ذات ليلة وقد أوشك الليل على الانتصاف ، وبينما كان الامبراطور الكسيوس مستغرقا فى نومه بحجرته ، أنْ قام مرزوفيلوس وطائفة ممن كان موكولا اليهم حراسة الامبراطور بالوثوب عليه فى فراشه ، وألقوا به فى غياهب جب بأحد سجون القصر ، وحينذاك[١٣٧] عمد مرزوفيلوس بمساعدة الفئة التى معه وتأييدها اياه الى ارتداء الحذاء الامبراطورى الطويل والعباءة القرمزية ، ونادى بنفسه امبراطورا ، وتَوَّجَهُ القوم فى كنيسة سنت صوفيا .

فهل رأيت قوما اكثر من هؤلاء اغراقا فى الخيانة المروعة !! .

٢٢٣ – استبد الخوف المقيم بالامبراطور اسحق حين صك سمعه نبأ ماجرى لولده وتتويج مرزوفيلوس مكانه ، فوهن ومرض مرضا أسلمه إلى الموت ، وهكذا كانت نهايته وخاتمة حياته .

ثم حاول الامبراطور مرزوفيلوس أن يدس السم لالكسيوس وهو فى سجنه ، ولكن إرادة الله كانت تمنعه من الموت الذى أرادوه له ، فلما رآى مرزوفيلوس فشل خطته توجه إليه وخنقه بيديه ، ثم أمر بأن يعلق فى كل مكان يُظْهِرُ انه مات[١٣٨] رغم أنفه ، وأعلن الحداد عليه ودفنه فى احتفال فخم وأبهة رائعة تليقان به كامبراطور ، وأظهر الأسى الشديد عليه .

٢٢٤ – ولكن هيهات أن يبقى خبر الاغتيال طى الكتمان ، إذ مالبث أن ذاعت الحقيقة ، وتجلى لكل من اليونان والفرنجة أنه مات غيلة على الصورة التى حدثتك بها الآن ، وإذ ذاك عقد بارونات الجيش ودوج البندقية اجتماعات فيما بينهم حضره كل الاساقفة ورجال الدين ، ثم قام جميع رجال الكهنوت ومن بينهم اولئك الذين يستمدون قوتهم من البابا مباشرة فانضموا للبارونات وللحجاج وأعلنوا على رءوس الملأ من البارونات والحجاج أنْ لا حَقَّ لمرتكب مثل هذه الجريمة فى امتلاك السلطة فى يديه ولاتكون البلاد له ، وافتوا أيضا بأن الذين وافقوه على فعلته انما هم شركاء له فى الجريمة

---

(١٣٧) كان ذلك فى يناير ١٢٠٤م (= جمادى الاولى سنة ٦٠٠هـ) .

(١٣٨) اما رواية كلارى فتقول إنه حين أصبح مرزوفيلوس إمبراطورا دوت الصيحة فى جميع ارجاء المدينة : « ماهذا الأمر ؟ مرزوفيلوس امبراطورا ؟ .. لقد اغتال مولاه ؟ » انظر فتح القسطنطينية لروبرت كلارى (ترجمة حسن حبشى) فقرة رقم ١١٢ وبمقارنة الروايتين بعضهما ببعض يجد المؤرخ نفسه فى حيرة بالغة ذلك ان كلا من كلارى وفلهاردوان كان شاهد عيان لأحداث تلك الأيام القلائل – وان كانت حاسمة فى تاريخ بيزنطة ولكن بأيها يأخذ ؟ .

ورفاقه فى الاغتيال ، وان هؤلاء الأغريق قد جاوزوا كل حد ، وخرجوا عن طاعة روما .

٢٢٥ – ثم أضاف رجال الدين الى ذلك قولهم : « لذلك نخبركم أن قتالهم أمر مشروع عادل ، واعلموا أنكم إذا عزمتم عزما صادقا على إعادة فتح هذه البلاد لردها إلى طاعة روما فإن جميع الذين يموتون – بعد أداء الاعتراف – سيكون نصيبهم الغفران الشامل الذى يمنحه البابا » .

ولتعلم ان نفوس البارونات والحجاج اطمأنت حين سمعت هذا القول .

(٤٩)
الصليبيون يتابعون الحرب ويهزمون مرزوفيلوس

٢٢٦ – كانت الحرب بين الفرنجة واليونان شرسة ضارية لأنها لم تضعف أحد الفريقين ، لكنها كانت تزداد على الدوام عنفا وحدة ، وشبت بين الطائفتين فى البحر والبر على السواء ، وقل أن كان يمر يوم بلا قتال .

ثم نهض بعدئذ هنرى – أخو بلدوين كونت دى فلاندرز – وتقدم فى جماعة كبيرة من خيرة رجال الجيش ، وصحبه جيمس دافيد وبلدوين دى بوفوار وأوتودى شمبانيا وأخوه وليم ومواطنوهم ، فشرعوا فى الخروج وقت الغسق وظلوا راكبين طول الليل ، حتى إذا كان الغد وقد اكتمل النهار بلغوا مدينة بديعة تدعى فيله اقتحموها فدانت لهم وأصابوا فيها غنيمة كبيرة من الانعام والثياب والميرة ، وكثر فى أيديهم الأسرى ، وبعثوا بكل ذلك فى القوارب عبر المضيق إلى المعسكر ، لأن هذه المدينة كانت تقع على بحر روسيا .

٢٢٧ – ولقد أقام[١٣٩] بلدوين ورجاله فى هذه المدينة يومين ومعهم من المئونة الكثيرة والطعام مايزيد عن حاجتهم ، فلما كان اليوم الثالث رحلوا مستصحبين معهم الدواب والغنائم وانكفأوا عائدين الى معسكراتهم .

---

(١٣٩) وردت هذه العبارة ومطلع الفقرة التالية فى كل من « شو » و « مز » على النحو التالى :
« ومن ثم أقاموا يومين فى المدينة وعندهم من الميرة الوفيرة مايكفيهم ويزيد عن حاجتهم ، فلما كان اليوم التالى رحلوا » .. إلى آخر ماهو وارد فى المتن اعلاه .

ولما سمع الامبراطور مرزوفيلوس خبر مغادرتهم المعسكر رحل عن القسطنطينية متسربلا بظلام الليل ، مستصحبا معه طائفة كبيرة من رجاله وكمن بهم فى مكان كان لابد لرجالنا أن يمروا به ، فأبصر كل عسكر منهم يمر بعد الآخر بمواشيه وغنيمته فلم يتعرض لهم ، حتى إذا شاهد مؤخرتهم بقيادة هنرى اخى بلدوين كونت فلاندرز وبرفقته مواطنوه باغتهم على غير توقع منهم عند مدخل أحد الأحراج ، فاستداروا له ، وتقاتلوا .

٢٢٨ – دارت الدائرة بعون الله على الامبراطور مرزوفيلوس حتى لقد أوشك أن يقع فى الأسر ، وفَقَدَ رايته الامبراطورية وأيقونة جرت عادتهم على حملها أمامه لشدة إيمانه وإيمان إغريقه وثقتهم المطلقة بها اذ هى تمثال لسيدتنا العذراء ، كما فقد أيضا مالايقل عن عشرين من أحسن فرسانه .

هكذا كانت هزيمة الامبراطور مرزوفيلوس كما سمعت بها الآن ، وكانت الحرب قد استمرت بينه وبين الفرنجة واشتد ضرامها ، وكان الشتاء قد أوشك على الانصرام واقترب عيد الطهارة[١٤٠] وصار القوم على مقربة من الصوم الكبير .

(٥٠)
الصليبيون الذين رحلوا الى الشام وانشقوا على الجيش الصليبى

٢٢٩ – والآن فلندع الحديث جانبا عمن كانوا أمام القسطنطينية ، ونشرع فى الكلام عمن أبحروا من موانٍ أخرى غير البندقية ، كما نتحدث عن أسطول فلاندرز الذى أرسى طول فصل الشتاء فى مرسيليا ، حتى إذا دخل الصيف أقلعت سفنه إلى بلاد الشام وعليها من المحاربين من هم اكثر عددا من العسكر المرابط أمام القسطنطينية .. وأعرنى سمعك لتعلم أى داهية دهياء ، وبلية كالحة حلت بالجيش من جراء عدم انضمامهم إليه ، اذ لو كانوا قد فعلوا ذلك لكان للمسيحية شأو آخر أجل وأعظم من شأوها إذ ذاك ، ولكن قضت مشيئة الرب بغير هذا عقابا لهم على ماارتكبوه من الخطايا ، فمات بعضهم بسبب وخامة جو تلك البلاد[١٤١] ، وانكفأ الآخرون إلى أوطانهم لايلوون على شىء

(١٤٠) وهو المعروف عند الكاثوليك الغربيين باسم Candlemass أو قداس الشموع « وهو اليوم الذى يخرجون فيه للاحتفاء باعلان طهارة السيدة مريم البتول أمّ السيد المسيح عليه السلام ، وهذا العيد يكون اليوم الثانى من فبراير حيث يخرج المحتفون به حاملين الشموع التى يباركها القسس ، أما الاحتفال المذكور أعلاه ، فكان فى سنة ١٢٠٤م (= جمادى الثانى سنة ٦٠٠هـ) .

(١٤١) يقصد بذلك بلاد الشام .

دون أن ينجزوا اى أمر من الأمور الجليلة أو يقوموا بعمل مجيد فى الارض[١٤٢] الواقعة فيما وراء البحر .

٢٣٠ – كذلك شرعت فئة أخرى من أحسن الرجال فى الذهاب إلى أنطاكية للانضمام الى أميرها وكونت طرابلس الامير بوهيموند الذى كان وقتئذ فى حرب ضد الملك ليون[١٤٣] صاحب أرمينيا ، وكانت هذه الطائفة من المحاربين ماضية الى الامير لتعمل تحت رايته لقاء اجر ينقدها اياه ، فلما علم تُرْكُ الناحية بأمرها نصبوا لها كمينا عند بقعة كان لابد للجماعة المسيحية ان تمر بها ، وتربصوا لها حتى اذا حاذتهم وثبوا عليها وقاتلوها فدارت الدائرة على الفرنجة فراحوا مابين مصفد فى القيد ومطلول دمه .

٢٣١ – كان من بين القتلى فى هذا اليوم فيللنى دى نوى الذى كان من احسن فرسان الدنيا ، وجيل دى تراسنى وكثيرون غيرهما ، وكان من بين الاسرى برنارد دى موريل ، ورينولد دامبير ، وجون دى فيللر ، ووليم دى نوى ، ويجب أن تعرف أن هذه الطائفة كانت تتألف من ثمانين فارسا من الفرسان الأشاوس راحوا عن بكرة ابيهم مابين قتيل وأسير ، ويشهد هذا الكتاب أنه لم يسلم أحد ممن لم يصحب جيش البندقية من ضرر نزل به فأرداه مورد الهلاك ، ولا من العار لطخ به اسمه ، وكان هذا درسا يمكن ان يستفيد منه المرء بأن العاقل من إذا اختار اختار جادة الصواب ولم يحد عنها .

(٥١)
اتفاق الفرنجة والبنادقة قبل الهجوم على القسطنطينية

٢٣٢ – والآن خلنا من الحديث عن أولئك الذين تجنبوا السير مع الجيش الصليبى ، ولنتكلم عمَّنْ هُمْ أمام القسطنطينية فنقول إنهم أعدوا آلاتهم أحسن إعداد للحرب ، ونصبوا مقاليعهم ومجانيقهم وغيرها من وسائل القتال على السفن وعلى مراكب النقل ، وهيأوا كل الالآت التى تيسر على أصحابها الاستيلاء على أية مدينة مهما بلغت من الحصانة ، ثم نصبوا السلالم ونشروا رايات الشوانى عالية ، فكان مرآها رائعا يعجب الناظرين[١٤٣] .

---

(١٤٢) جاء بدلها فى « شو » : « فى البلد الذى ذهبوا اليه » .

(١٤٣) علق مترجم نسخة « مز » من مذكرات فلهاردوان هذه على هذه العبارة بقوله : « انها غير واضحة فى الأصل » .

٢٣٣ – فلما[١٤٤] رأى اليونان تلك الاستعدادات والاستحكامات البالغة شرعوا من ناحيتهم فى تقوية الدفاع عن هذه المدينة التى كانت فى منعة تعز على المهاجمين بأسوارها العالية وأبراجها الشاهقة الحامية لها ، بل لم يتركوا بها برجا مَهْما ارْتَفع دون أن يضيفوا إليه طابقين من الخشب أو ثلاثة طوابق ليزداد ارتفاعا ولم تكن ثمة مدينة فى حصانة القسطنطينية ، وهكذا كان كل من اليونان والفرنجة يعمل من جانبه على تقوية ناحيته . لم تمنعه من ذلك أيام الصوم الكبير .

٢٣٤ – ثم أخذ رجال الحملة فى التشاور فيما بينهم ، والاتفاق على الخطى الواجب عليهم اتخاذها ، وتشعبت الآراء ، واختلفت المسالك ، ولكنهم أجمعوا فى النهاية على أن الرب لو مكنهم من الاستيلاء على المدينة عَنوة فسيجمعون كل ماتصل اليه أيديهم من غنيمة ويقسمونها قسمة عادلة ، كما اتفقوا – فى حالة سقوط القسطنطينية فى أيديهم – أن يختاروا ستة من الفرنجة ومثْلَهم من االبنادقة ، ويقسم الكل على الآثار المقدسة بأن يسوقوا عرش الامبراطورية لواحد منهم ينتخبونه ويعتقدون تمام الاعتقاد أنه سوف يحكم البلد بما فيه صلاحه ، وسيكون لهذا الامبراطور المنتخب الربع من كل مااستولوا عليه قسرا ، سواء أكان ذلك داخل المدينة أم خارجها ، هذا بالاضافة إلى أنه سيمتلك قصرى بوكوليون وبلاشرناى ، أما ثلاثة أرباع الغنيمة الباقية فتقسم الى قسمين متساويين يذهب أحدهما للبنادقة ويأخذ الفرنسيون[١٤٥] ثانيهما .

واتفقوا أيضا أن يختاروا إثنى عشر رجلا من البنادقة ومثلهم من الفرنجة يراعى فيهم ان يكونوا من أحكم الرجال وأكثرهم خبرة وتجربة ، فيعهدون إلى هؤلاء الأربعة والعشرين بتوزيع الاقطاعات والوظائف وأداء مايحتاجه الامبراطور من الخدمات .

وأقسم كل من البنادقة والفرنجة على العمل بهذا الاتفاق على أن يكونوا فى حل منه فى نهاية مارس – أى بعد عام من يومهم هذا – فيسمح بالرحيل لمن أراد الرحيل والذهاب أنّى شاء ، أما الذين يؤثرون البقاء فى هذه البلاد فيكونون فى خدمة الامبراطور وفق ماتقضى به المصلحة .

هكذا تم الاتفاق وتأكد ، كما تقرر أن يصدر رجال الدين قرار الحرمان ضد من ينقضه .

---

(١٤٤) العبارة من أول هذه الفقرة ٢٣٣ حتى قوله « ليزداد ارتفاعا » س ٤ غير واردة فى نسخة شو الانجليزية .

(١٤٥) هكذا فى النسخة التى ترجمنا عنها والتى نشرها ويللى ، ولكنها « جيش الحجاج » فى كل من « شو » و « مز »

(٥٢)
صد الصليبيين واستعدادهم لحملة أخرى

٢٣٦ — جُهز الأسطول أحسن تجهيز وسُلح أتم تسليح وجيء بالذخائر للحجاج ، فلما كان يوم الخميس بعد منتصف[١٤٦] الصوم الكبير ركب الجميع السفن ووضعوا جيادهم فى سفن الحمولة ، وكان لكل فريق شوانيه الخاصة به ولكنها وقفت جميعها صفا واحدا ، وكانت سفن القتال فى جانب ومراكب النقل والحمولة فى جانب آخر ، وكان منظرها رائعا بهيجا ، ويشهد هذا الكتاب على أن الهجوم حسبما اتفق عليه كان على جبهة جاوزت نصف فرسخ فرنسى .

٢٣٧ — فلما كان صباح الجمعة أخذت السفن والأغربة والشوانى وغيرها تدنو من المدينة فى انتظام ، ثم هاجمتها هجمة عنيفة قاسية ، وكثر نزول الحجاج المحاربين من سفنهم إلى البر فى أكثر من موضع ، وراحوا يتسلقون الأسوار ، واقتربت السلالم المنصوبة على السفن من البلد قربا شديدا ، حتى لقد التحمت فى أماكن كثيرة رماح مَن كانوا بالأبراج بمن كانوا فوق الأسوار والسلالم ، وتشابك البعض مع البعض الآخر بالايدى ، وهكذا استمرت المعركة عارمة شديدة الضراوة فى أكثر من مائة موضع ، حتى دنت ساعة الظهيرة ، ولكن العدو صد هجوم حجاجنا بسبب خطايانا .

وأما الذين غادروا الاغربة ومراكب النقل إلى البر فقد ارتدُّوا على أعقابهم مدحورين .

واعلم ان خسارة الجيش فى هذا اليوم كانت أعظم من خسارة اليونان ، الأمر الذى أفرح العدو كثيرا واغتبط به .

ثم انسحب بعض المهاجمين إلى سفنهم التى كانوا فيها ، على حين بقى البعض الآخر فى مراكبهم التى ظلت راسية بهم ، فكانوا بذلك أدنى مايكونون إلى المدينة ، وراحوا يترامون هم والاغريق بالمقاليع والمجانيق .

٢٣٩ — فلما أسدل الليل سدوله ، وحجب الظلام كل فريق عن الآخر ، تنادى رجال الجيش ودوج البندقية إلى عقد اجتماع فيما بينهم ، والتأم شملهم فى كنيسة واقعة على الجانب الآخر من الناحية التى كانوا نازلين بها ، وراحوا يتدبرون واقعهم ، فتشعبت بهم المسالك واختلفت الآراء ، وتبلبلت خواطر رجال الجيش بلبلة ارهقت منهم الصدور

---

(١٤٦) يعنى يوم ٨ ابريل ١٢٠٤م (الخميس ٥ شعبان سنة ٦٠٠هـ) .

وارفض لها صبرهم ، بسبب النكبة التى نزلت بهم فى ذلك اليوم . وأشار الكثيرون بوجوب مهاجمة المدينة من الناحية الأخرى لأنها أقل تحصينا ، غير أن البنادقة – وكانت لهم دراية تامة بالبحر – قالوا إنهم لو ذهبوا إلى ذلك الجانب الذى أشير به عليهم فإن التيار سيدفعهم إلى البوغاز دفعا لايستطيعون حياله الغلبة على سفنهم أو السيطرة عليها سيطرة تحول بينها وبين الاندفاع .

واعلم أنه كان بيننا طائفة تود لو جرف التيارُ السفن ، أو دفعت الريح المراكب إلى المضيق ، ولم يكن رجال هذه الجماعة يعنيهم إلا أن يغادروا هذه البلاد ويرحلوا عنها ويخلفوها وراء ظهورهم ، ولاعجب منهم فى ذلك فقد كانوا والجميع يواجهون خطرا كبيرا يكاد ينذرهم بالهلاك .

٢٤٠ – وتعددت وجهات النظر واختلفت ، وتكلموا مافيه الكفاية ، حتى إذا لم تعد ثم زيادة لمستزيد انتهى بهم الجدل إلى الاتفاق على أن يقوموا طوال يوم غدهم السبت وبعد غد الاحد بإصلاح ماعطب من سفنهم ، حتى إذا أتموا ذلك كله عاودوا الهجوم يوم الاثنين ، واتفقوا أيضا أن تربط كل سفينتين من السفن التى تحمل سلالم التسلق الواحدة الى الأخرى لتستطيعا مهاجمة برج واحد ، لأنهم أدركوا فى ذلك اليوم كم كان عسيرا أنْ تستقل كل واحدة بمهاجمة برج واحد ، ذلك لأن القائمين على البرج كانوا أكثر عددا من أولئك الذين على السلم ، ومن ثم أدركوا أن قيام كل سفينتين بمهاجمة برج واحد أجدى ممالو إستقلت واحدة بالهجوم عليه ، واستصوب الصليبيون والبنادقة هذا الرأى ووضعوه موضع التنفيذ طيلة يومى السبت والأحد .

(٥٣)
الصليبيون يحتلون جزءا من العاصمة

٢٤١ – جاء الامبراطور مرزوفيلوس قبيل الهجوم وتَخَيَّرَ بقعة فى العراء عسكر فيها بجميع قواته ونصب بها خيامه القرمزية ، وظلت الأمور على ماهى عليه حتى صباح يوم الاثنين حيث تم تسليح جميع من كانوا بالسفن ومراكب النقل والاغربة .

أما أهل المدينة فلم يكترثوا بالصليبيين اكتراثهم بهم فى المرة الأولى ، وكانوا متفائلين أشد التفاؤل حتى كنت ترى الأبراج والأسوار قد خلت إلاّ من العامة ، ثم بدأ الهجوم وكان عنيفا عظيما ، وسابقت كل سفينة الأخرى فى التقدم لضرب العدو ، وارتفعت أصوات القتال ارتفاعا يصم الآذان حتى لقد كان يخيل أن الأرض تهتز منه .

٢٤٢ - وطال القتال بين الجانبين حتى قَيَّض ربنا أن يبعث بريح يسمونها « بوار » دفعت السفن والقوارب حتى صاقَبَتِ الشاطىء ، وحملت الريح سفينتين قد شدت الواحدة منهما إلى الأخرى ، إسم إحداهما « الحج » والأخرى « الجنة » وجاءت بهما الريح الى الساحل حتى دنتا من أحد الأبراج فأحدقتا به من جانبيه ، وساعدهما الله وأعانتهما الريح أن يرميا السلم إلى البرج فيعلق به ، فانطلق فى الحال أحد البنادقة ومعه فارس من فرسان فرنسا أسمه أندريه دى أربواز واقتحما البرج ، فانثال وراءهما بقية المهاجمين ودارت الدائرة على من كان هناك من العدو الذى لاذت طائفة منه بالفرار حرصا على حياتها .

٢٤٣ - فلما رآى الفرسان الذين فى مراكب النقل ماجرى أرسوا على الشاطىء وألقوا بالسلالم على الأسوار وتسلقوها ، وتمكنوا من الاستيلاء على أربعة أبراج أخرى ، وسرعان ماأخذ من بالسفن ومراكب النقل والاغربة فى الهجوم الذى أحسنوه غاية الاحسان ، واستطاعوا ان يدخلوا المدينة من خلال ثلاثة أبواب من أبوابها ، ثم شرعوا فى إخراج جيادهم من مراكبهم وامتطوا صهواتها وكروا بها على مخيمات الامبراطور مرزوفيلوس الذى كان قد رتب كتائبه أمام معسكره . فلما أبصر رجاله فرساننا قادمين عليهم طارت قلوبهم شعاعا وورد عليهم من الخوف ماخلع قلوبهم ،فاضطربت صفوفهم ولاذوا بالفرار ، ولم يتخلف[١٤٧] عنهم إمبراطورهم الذى انطلق فى الشوارع هائما على وجهه حتى بلغ حصن « بق الأسد » .

٢٤٤ - ولتعلم أنك لو كنت حاضرا يومذاك لشاهدت اليونان يخرون صرعى ، ولرأيت رجالنا وقد فاضت أيديهم بما وقع فيها من الجياد والبغال وغيرها من الغنائم والأسلاب ، ولأبصرت العدو وقد دنت نهايته ، فكان رجاله بين قتيل وجريح ، وهرب

---

(١٤٧) يصف روبرت كلارى مشاهد العيان الآخر لهذه الاحداث ماجرى اذ ذاك من قتال فر على اثره مرزوفيلوس فيقول : « ولما رأى الاغريق غلبة الفرنسيين عليهم طارت قلوبهم شعاعا وولوا هاربين ، غير ان رجالنا الفرنسيين تعقبوهم وذبحوا منهم خلقاً كثيرين واسروا فئة كبيرة وأصابوا غنيمة هائلة ، ثم راحوا فى آثار الامبراطور مسافة تقترب من نصف فرسخ ، اعتقادا منهم انهم لابد ممسكوه . وكان مرزوفيلوس وفريقه فى عجلة من أمرهم فوقعت الايقونة المقدسة منهم ، كما سقطت خوذة الامبراطور وصولجانه وايقونته التى كانت كلها من الذهب ومطعمة بالأحجار الكريمة .. فلما رأى الفرنسيون ماجرى كفوا عن مطاردتهم ، وازدهتهم الفرحة ، وأخذوا الأيقونة وعادوا بها ونفوسهم تفيض بهجة وغبطة .. ولما عاد مرزوفيلوس الى القسطنطينية ادخل فى روع اهلها ان النصر كان فى جانبه فسأله بعض الاغريق فورا « واين الايقونة والصولجان »؟ انظر الخبر كاملا فى روبرت كلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١٠٦ ومابعدها .

الجانب الاكبر من كبار أعيان اليونان ونبلائهم تجاه بوابة بلاشرناى ، وقد حدث هذا عند دخول المساء الذى لف الدنيا بغلالة من الظلام ، وكان رجال الجيش قد بلغ منهم التعب غايته بسبب القتال والقتل ، وشرعوا يتجمعون فى بقعة فسيحة فى الخلاء بالقسطنطينية وأجمعوا العزم على أن يجعلوا معسكراتهم أدنى ماتكون إلى أبراج العدو وحصونه التى اغتصبوها منه عنوة .

واعلم أنه لم يخطر ببالهم قط أن سيكون فى مقدورهم الاستيلاء فى مدى شهر واحد على تلك المدينة الغنية بكنائسها الفخمة وقصورها الرائعة ، ومابها من حشد كثيف من السكان .

(٥٤)

هرب الامبراطور مرزوفيلوس وحرق القسطنطينية الثانى

٢٤٥ – انجز رجالنا مااتفقوا عليه ووقفوا فى سفنهم أمام الأسوار والأبراج وعلى مقربة كبيرة منها .

اما كونت بلدوين دى فلاندرز وهينوت فقد عسكر فى مخيمات الامبراطور مرزوفيلوس القرمزية التى خلفها وراءه ولم يقوضها فى هروبه ، كما عسكر أخوه هنرى أمام قصر بلاشرناى ، وأقام بونيفاس ماركيز دى مونتفرات برجاله فى أكثف نواحى المدينة ازدحاما بالسكان ، وهكذا عسكر الجيش كله – كما علمت – وتم الاستيلاء على القسطنطينية يوم الاثنين التالى لحد الزعف .

أما لويس كونت بلوا وشارتر فقد ألمت به الحمى طوال فصل الشتاء ، وعجز عن الاشتراك فى القتال ، وكان مرضه داهية دهياء نزلت بالجيش ، فقد كان من أحسن الفرسان . وانصرم الشتاء كله وهو طريح الحمى فى إحدى مراكب النقل .

٢٤٦ – أما المحاربون الصليبيون الذين بلغ منهم الانهاك غايته فقد استراحوا هذه الليلة وأمضوها بلا قتال ، غير أن الامبراطور مرزوفيلوس لم تقر له عين ، إذ دأب ليلته تلك على جمع شتات كافة رجاله ولم شعثهم ، وأخبرهم أنه ماض لمهاجمة الفرنسيين لكنه لم يفعل شيئا مماقال ، بل اتجه إلى شوارع كانت ابعد ماتكون من تلك التى فى يد رجالنا ، حتى اذا بلغ بوابة يسمونها بالبوابة الذهبية انطلق منها ناجيا بنفسه وخلّف المدينة وراءه ، ومالبث أن حذا حذوه كل من وجد إلى الفرار سبيلا .

ولقد جرى ذلك كله دون أن يدرى به أحد من رجالنا .

٢٤٧ – وفى أثناء تلك الليلة قام جماعة من معسكر بونيفاس مركيز دى مونتفرات ممن لاأعرف أسماءهم وأضرموا النار فى المبانى الفاصلة بينهم وبين الاغريق خوفا من أن يهاجمهم اليونان ، وشبت النار فى المدينة شبوبا طاغيا ، وأخذت تلتهم كل ماتصل إليه ، وظلت على هذه الحال تلك الليلة وطوال اليوم التالى لم تهدأ ثائرتها ، حتى آذنت الشمس بالغروب ودخل المساء ، فكان ذلك ثالث حريق كرث القسطنطينية منذ نزول الفرنجة بالبلاد ، وكانت الدور التى التهمتها النيران اكثر من دور أى ثلاث مدن من أكبر مدن مملكة فرنسا[١٤٨] .

٢٤٨ – انصرمت تلك الليلة وطلع نهار اليوم التالى وأعنى به الثلاثاء[١٤٩] ، وحينذاك حمل جميع فرسان الجيش وعسكره أسلحتهم ، وذهب كل واحد إلى كتيبته ، ثم خرجوا من معسكراتهم وهم يتوقعون أن يجدوا العدو أكثر عددا مماكان عليه فى أمسه ، ذلك لأنه لم يأتهم خبر فرار الامبراطور متسربلا[١٥٠] بالظلام فتقدموا دون ان يتعرض احد ما لصدهم .

(٥٥)
الصليبيون يحتلون المدينة بأكملها

٢٤٩ – ركب مركيز بونيفاس دى مونتفرات وسار مصاقبا الساحل كله حتى بلغ قصر « بق الأسد » الذى لم يكد يصله حتى استسلم له من فيه ، ولم يشترطوا عليه لقاء ذلك إلا الابقاء على حياتهم ، فأجابهم إلى ماطلبوه ولم يمسهم منه أذى ولا لحقتهم مضرة فى نفوسهم ، وكان بالقصر معظم متطلبات نساء المدينة اللائى كن قد اعتصمن بالحصن وفيهن أخت[١٥١] ملك فرنسا التى كانت إمبراطورة ، وكان فيهن أيضا اخت ملك المجر[١٥٢] وكانت هى الاخرى امبراطورة كذلك ، كما كان بالقصر غير هاتين الأميرتين

---

(١٤٨) هذا يبين بشهادة الفرنسيين الضخامة العمرانية التى كانت عليها القسطنطينية وقت الهجوم اللاتينى عليها .

(١٤٩) أى يوم ١٣ أبريل ١٢٠٤ (= الثلاثاء ٣٠ شعبان ٦٠٠ هـ) .

(١٥٠) راجع ماسبق فقرة رقم ٢٤٦ .

(١٥١) هى الاميرة اجنس Agnes أخت فيليب أوجستوس ملك فرنسا ، وكانت زوجة لألكسيوس الثالث ثم من بعده لأندرونيكوس Andronicus ثم لتيودور براناس Theodor Branas.

(١٥٢) المقصود بذلك الاميرة مرجريت أخت ايمريك ملك المجر ، وقد تزوجت الامبراطور إسحق انجيليوس الثانى ، ثم لما مات تزوجها بونيفاس مركيز مونتفرات ، وكان زواج اسحق بها عقب اتفاقية ابرمها هو مع ملك المجر سنة ١١٨٥م (= ٥٨١هـ) لضمان مساعدته اياه ، اى انه كان زواجا سياسيا كالذى عقده المركيز بونيفاس الذى سوف

زمرة كبيرة من السيدات . وإن المرء ليعجز عن وصف ماضمه هذا القصر من ثروة بلغت من ضخامتها حدا جاوزت معه الحصر وفاقت العد .

٢٥٠ – وفى الوقت الذى وقع فيه هذا القصر فى يد المركيز بونيفاس دى مونتفرات استسلم قصر بلاشرناى لهنرى أخى كونت بلدوين دى فلاندرز ، فاستأمنوه فأمَّنهم على حياتهم . وعثر فى هذا القصر كذلك على ثروة لاتقل فى ضخامتها عن مثيلتها فى قصر بق الأسد ، وقامت كل جماعة بحراسة القلعة التى استسلمت لها والمحافظة على مابها من ثروة ، كما وقع فى أيدى الجماعات الاخرى التى انتشرت عبر المدينة غنيمة كبيرة بلغ من وفرتها أنه ليس فى استطاعة أحد ماأن ينبئك بها كلها ، فهى مابين ذهب وفضة وأوان واحجار كريمة وزمرد وحرير وأثواب فاتحة وداكنة وعطور وكل مفضض غال على ظهر البسيطة . ويشهد جوفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا – عن معرفة وصدق – أنه لم يتهيأ الحصول على مثل هذه الغنيمة[١٥٣] الضخمة من أية مدينة فى العالم منذ أن برأ الله العالم .

٢٥١ – عسكرت كل كتيبة حيث أَحَبَّتْ لوفرة المساكن التى وجدها جيش الحجاج والبنادقة الذين اشتدت فرحتهم ، وراحوا يشكرون الرب على النصر الذى آتاهم إياه ، فقد أصبح فقراء الأمس ينعمون بالثروة الضخمة ، ويتقلبون فى مطارف النعمة والبلهنية ، وهكذا احتفلوا بحد الزعف[١٥٤] وعيد الفصح[١٥٥] وشملتهم الغبطة ، وازدهَتْهُم الكبرياء بما أنعم الله به عليهم ، ومجدوا السيد تمجيدا عظيما إذ لم يكن فى الجيش بأجمعه أكثر من عشرين ألف رجل فى سلاحهم فأعانهم الله إذ قهروا أربع مائة الف أو يزيدون فى أقوى مدينة فى العالم ، ويالها من مدينة عظمى شديدة التحصين .

يتخذ من ربيبيه (وهما ولداها من اسحق الثانى) ، وسيلة لتهديد بلدوين الامبراطور اللاتينى حين تتأزم الأمور بينهما فيما بعد .

(١٥٣) شاهد المؤرخ الجندى الصليبى اللاتينى روبرت كلارى الغنائم التى وجدها الفرنجة فى القسطنطينية فقال انها كانت عظيمة جدا ، فكان بها كثير من الاوعية الذهبية والفضية الغالية الثمن ، والملابس المطرزة بالذهب وكثير من المجوهرات الثمينة .. ولم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شارلمان ولاقبلهما ولابعدهما ، ولاأظن – أنا شخصيا – انه توفر فى اغنى مدن العالم الاربعين من الثروة الهائلة ماتوفر بالقسطنطينية وماعثروا عليْه بها ، اذ يقول الاغريق ان ثلثى كنوز العالم موجودة فى القسطنطينية ، اما الثلث الباقى فموزع فى بقية الدنيا ، حتى ان نفس الاشخاص الذين عهد اليهم بالحراسة اخذوا كل ماطمعوا فيه من الحلى الذهبية وامتدت يدهم بالسرقة الى هذه الثروة والى كل ماوجدوه » راجع ذلك مفصلا فى روبرت كلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ص ١٢٢ ومابعدها .

(١٥٤) وذلك يوم الاحد ١٨ ابريل ١٢٠٤م .

(١٥٥) يوم ٢٥ ابريل ١٢٠٤م (= ٢٥ شعبان ٦٠٠هـ) .

(٥٦)
تقسيم الاسلاب والغنائم بين الصليبيين

٢٥٢ – بعد ذلك أمر مركيز بونيفاس قائد عام الجيش والبارونات ودوج البندقية أن ينادى في صفوف الجيش بوجوب جَمْع كل الغنيمة التى استولوا عليها ووضعها فى مكان واحد تنفيذا للاتفاق الذى توثق باليمين ، وخوفا من صدور قرار الحرمان ، وعينوا ثلاث كنائس تجمع فيها الغنائم ، وتناوب حراستها والمحافظة عليها أفضل الفرنسيين والبنادقة ، وحينئذ شرع كل واحد فى إحضار ماستولى عليه وضموها بعضها إلى بعض .

٢٥٣ – ولقد صدق بعضهم فأوفى بما طُلب منه على خير صورة ، على حين أن البعض الآخر لم يخلص فى تنفيذ الأمر ، لأن الطمع الذى هوأُسُ كلِ شر سيطر عليهم وعاقهم عن سلوك جادة الحق ، فأخفوا بعض الذى استولوا عليه وقَلَّت محبة الرب لهم منذئذ .

يالله ماكان أوفى سلوكهم واخلص طواياهم حتى هذه اللحظة !
لقد أظهرهم الله ونصرهم فى كل ماأقدموا عليه حتى ساعتهم هذه .
لكن طالما تحمل الصالحون أخطاء الطالحين الاشرار .

٢٥٤ – ضُمت الأسلاب والغنائم بعضها إلى بعض ، ويجب أن تعلم أنها لم تُجْمع كلها فقد احتجز عدد غير قليل من الجند ماوصلت إليه أيديهم ، وغير مكترثين بالقرار البابوى القاضى بحرمان من لايمتثل للأمر من رحمة الكنيسة دنيا وأخرى .

وبعد أن جمع من الكنائس ماجمع قسم شطرين متساويين ، ذهب أحدهما للفرنجة والآخر للبنادقة ، وفاقا للعهد الذى أقسموا عليه ..

ويجب أن تعلم أكثر من ذلك أن الحجاج دفعُوا من الفيء الذى أصابوه الى البنادقة خمسين ألف قطعة فضية ، ثم وزعوا بينهم وبين جماعاتهم مالايقل عن مائة الف قطعة فضية ، فهل تريد أن أفضى لك بحكمة هذا الامر ؟

لقد اعتبر كل اثنين من المشاة معادلين لراكب الجواد ، واعتبر كل واحد من الفرسان معادلا لراكبى جوادين .

ويجب أن تعلم أنه لم يتسلم أحد ما ، مهما علت مرتبته أو عظمت أعماله ، أكثر مماقرر له وماتفق عليه ، فإنْ وجدت غير هذا فمرجعه أحد اثنين : إما أن ذلك كان بترتيب خاص ، أو انه توفر له عن طريق السرقة .

٢٥٥ – واعلم أن العدالة أخذت مجراها ازاء من أُدِينو بالسرقة وثبتت عليهم ، فقد شنق عدد غير قليل منهم حتى إن كونت دى سانت بول شنق أحد فرسانه وعلق درعه فى رقبته لاحتجازه بعض الغنائم وعدم رده اياها ، على أن ذلك لم يمنع الكثيرين من كبار المحاربين وصغارهم على السواء من إخفاء بعض الأسلاب دون أن يعرف ذلك أحد أبدا ، غير أن الغنيمة التى جمعت كانت بالغة الضخامة[١٥٦] ، ولولا ان امتدت إلى جزء منها يد السرقة ، ولولا الجزء الذى اعطوه للبنادقة لبلغت قيمة الأسلاب مالايقل عن أربع مائة ألف قطعة فضية وعشرة آلاف حصان . هكذا قسمت اسلاب القسطنطينية بين المنتصرين .

(٥٧)
انتخاب بلدوين امبراطورا

٢٥٦ – عقد الصليبيون بعدئذ اجتماعات وطالب جمهورهم وعامتهم بوجوب انتخاب إمبراطور وفق الاتفاق الذى تقرر من قبل ، وطال اجتماعهم حتى لقد رأوا أن يؤجلوا الموضوع إلى يوم آخر يختارون فيه اثنى عشر نقيبا يوكل إليهم أمر الانتخاب . وكان من الطبيعى أن يتنافس المتنافسون وفيهم أصحاب الاطماع ، ويكثر عددهم ، إدراكا منهم لما وراء عرش القسطنطينية الامبراطورى من الشرف العظيم والمكانة السامية ، على أن الاختلاف الذى ليس بعده اختلاف كان حول اثنين هما : بلدوين كونت فلاندرز وهينولت وبين بونيفاس مركيز دى مونتفرات ، فقد انعقد الاجماع عليهما دون سواهما لكن من يكون منهما الامبراطور ؟[١٥٧]

٢٥٧ – ولما رأى كبار رجال الجيش تمسك الجميع بكونت بلدوين أو مركيز مونتفرات راحوا يتشاورون فيما بينهم ثم قالوا : « أيها السادة ، لو انتخبنا واحدا من هذين الرجلين العظيمين وصرفنا إليه العرش استوقد الحسد نفس الآخر منه ، حتى ليخشى أن يأخذ رجاله ويعود من حيث جاء ، فيؤدى ذلك إلى ضياع هذه البلاد كما ضاعت أرض بيت المقدس من قبل حين انتخب جود فروى دى بويون ملكا عليها بعد

---

(١٥٦) انظر فيما سبق حاشية رقم ١٥٣

(١٥٧) وردت هذه العبارة فى ترجمة « مز » على الصورة التالية : « لأن جميع الناس قالوا ان احد الاثنين يجب ان يقع عليه الاختيار» .

فتح الصليبيين إياها ، حيث حسده كونت صنجيل كل الحسد حتى لقد أخذ يحرض بقية الأمراء وسواهم ممن يلقاهم على ترك الحملة[158] ، فاستجاب له الكثيرون ولم تبق الا شرذمة ضئيلون كان لابد ان تضيع معها أرض بيت المقدس لولا تأييد الرب لهم ، فلنكن على حذر حتى لاتعود المأساة من جديد وتطوينا فى غمارها .

٢٥٨ – « ولنفكر جيدا كيف يمكن الاحتفاظ بهذين السيدين[159] فى الجيش ، فنسأل من يسوق إليه الرب الامبراطورية أن يعمل عملا يرتاح إليه الآخر إذ يُقْطِعُه جميع ماعلى الجانب الآخر من الاراضى المطلة على تركيا وكذلك جزيرة اليونان[160] لقاء أن يصير فَصَلًا له ، ومن ثم نحتفظ بكليهما فى صفوف المحاربين » .

أقرّ القوم مااقترحه هؤلاء الحكماء ، وتقبله كل من المركيز والكونت بنفس راضية وقلب سليم ، ثم جاء يوم الانتخاب والتأم شمل الحجاج حيث اختاروا اثنى عشر نقيبا يمثل كل ستة منهم احد الطرفين[161] واقسموا على المخلفات والآثار الدينية المقدسة ان ينتخبوا فى الحال اصلح الرجلين فى اعتقادهم لحكم الامبراطورية ، لايسيِّرهم فى هذا الاختيار سوى الايمان الصادق لمن تلح الحاجة اليه .

٢٥٩ – اجتمع الاثنا عشر نقيبا المختارون وضربوا يوما ينتخبون فيه الامبراطور ، فلما طلع عليهم هذا اليوم تخيروا أحد القصور الفخمة مكانا يلتئم فيه جمعهم ، وكان قصرا من أحسن قصور الدنيا اتخذه دوج البندقية دار إقامة له ، وماكان أعظم وأروع الجمع يومذاك إذ رغب كل فرد فى مشاهدة من يقع عليه الاختيار ، ودُعِىَ النقباء الأثنا عشر ، ومضوا بهم إلى كنيسة داخل القصر بالغة الروعة وأغلق عليهم بابها ، لايتصلون باحد ولايتصل بهم أحد ، أما البارونات والفرسان فقد لبثوا بالخارج فى أحد القصور العظيمة على مقربة من الكنيسة .

---

(١٥٨) راجع الحرب الصليبية الاولى لحسن حبشى ، والحركة الصليبية لسعيد عاشور ، الجزء الاول ، وانظر ايضا H. E. Mayer: The Crusades, pp. 67-82 .

(١٥٩) يقصد بذلك بلدوين كونت فلاندرز ، وبونيفاس مركيز مونتفرات .

(١٦٠) يشير هذا صراحة إلى أن العامل المادى كان هو المحرك لهذه الجماعات الصليبية وقوادها ، فإذا نال الكونت أو المركيز أرضا يحكمها لم يعد يفكر فى بيت المقدس .

(١٦١) اى الفرنجة والبنادقة ، أما فيما يتعلق باختيار هؤلاء النقباء الاثنى عشر ، فالواقع أن بونيفاس لم يستطع ان يجد سوى ثلاثة من الستة يقفون الى جانبه ويؤيدون اختياره ، ومن ثم وجد الصليبيون أنفسهم مضطرين لتسمية ستة من رجال الدين ، لايؤيد منهم بونيفاس سوى ثلاثة ، اما الذين اختارهم البنادقة فلم يكونوا من رجال الدين ولكنهم كانوا فى الوقت ذاته يعارضون انتخابه إمبراطورا ، سيما وأنه كان حليفا قديما للجنوية اعداء البنادقة ، انظر R. L. Wolff: The Latin Empire of Constantinople (in: Setton: A Hist. of the Crusades, Vol. II), p 189.

٢٦٠ – استمر مجلس النقباء منعقدا حتى تم اتفاقهم على اختيار نيفيليون أسقف سواسون – أحد النقباء الاثنى عشر – ليكون المتكلم باسمهم ، ثم مضوا إلى المكان الذى تجمع فيه كل البارونات ودوج البندقية .

واعلم أن عيون الكثيرين كانت مركزة عليهم ، يتحرق أصحابها لمعرفة ماأسفر عنه الانتخاب ، فلما شرع الأسقف فى التكلم أصغى اليه الجميع فى صمت مطبق وتكلم نيابة عن الآخرين فقال :

« أيها السادة دعونا نشكر الرب إذ اتفقنا على اختيار الامبراطور ، ولقد أقسمتم كلكم على أن تقروا اختيارنا من غير مراجعة ، وقطعتم اليمين على أن تكونوا عونا للمختار ضد من يخالفه ، وإنا لنعلن اسمه الآن فى نفس الساعة التى ولد فيها السيد المسيح ، وذلك هو بلدوين كونت فلاندرز وهينولت »[١٦٢] .

٢٦١ – وإذ ذاك تجاوبت أرجاء القصر بصيحات الفرح ، ثم حملوا الكونت إلى خارج القصر ، وحمله معهم المركيز بونيفاس دى مونتفرات الى الكنيسة باذلا له كل مايستطيع بذله من مظاهر التعظيم .

على هذه الصورة تم انتخاب بلدوين كونت فلاندرز وهينولت إمبراطورا . وحددوا يوما لتَتْوِيجِه[١٦٣] جعلوه بعد ثلاثة اسابيع من عيد الفصح ، واعلم ان كثيرا من الخلع والثياب الغالية اعدت لهذا التتويج ولم تكن ثمّت حاجة لمال يدفعونه فى سبيل إعدادها[١٦٤] .

---

(١٦٢) اشار Wolff: op. cit Loc. cit Not. I إلى رواية بندقية متأخرة لم تطبع بعد ولكنها واردة فى حوليات كتبها أحد البنادقة تقول انه فى الجولة الأولى من الاختيار أجمع النقباء البنادقة الستة على ترشيح هنرى داندولو إمبراطورا ، ثم مالبث احدهم واسمه اكتافيان كيرنى Octavian Querini أن غير موقفه قائلا « ان انتخاب الدوق امبراطورا سوف يؤدى بجميع الفرسان القادمين من وراء جبال الألب لمغادرة الامبراطورية والتخلى عنها ممايؤدى إلى انهيارها » ، وتعليقنا على هذا الخبر أنه من العجيب ان يتم وقد كان فيه ستة من البنادقة ، ولايصدر البنادقة فيما يقررون ، الا عن توجيه من الدوق هنرى داندولو ، فلعل شيئا من ذلك كان من جانب الدوج أو بسكوت منه ، أو لعله كان رغبة من البنادقة ومن لف لفهم من رجال الاختيار أن تكون هديتهم الى الدوق هى انتخابه ، لكنا نعود فنستبعد ان يكون ذلك الامر مرضيا له ، سيما وهو لايسعى لمجد لنفسه بل كان همه خدمة المصالح البندقية . ثم ماذا يريد الدوق من وراء ان يكون امبراطورا والمملكة كلها تسير بأمره وينفذ أمره المسئولون من الفرنجة ؟ .

(١٦٣) أى يوم ١٦ مايو ١٢٠٤ (= الاحد ١٤ رمضان ٦٠٠هـ) .

(١٦٤) ذلك لأنها كانت ممااستولى عليه الصليبيون بعد استيلائهم على القسطنطينية فامتدت ايديهم إلى مافيها من غنائم وأسلاب كانت فى القصور الامبراطورية وقصور كبار رجالات الدولة ومتاحفها .

(٥٨)
بونيفاس يتزوج ارملة اسحق ويأخذ مملكة سالونيكا

٢٦٢ – ولكن قبل اليوم المحدد للتويج تزوج المركيز بونيفاس دى مونتفرات من الامبراطورة أرملة الأمبراطور إسحق وأخت ملك المجر ، وحدث فى هذه الفترة أيضا أن مات واحد من أكبر بارونات الجيش واسمه اودو دى شامبليت[١٦٥] الشمبانى فبكاه أخوه وليم وأصدقاؤه أشد البكاء ، وحزنوا عليه أعظم الحزن ، ودفن فى كنيسة الرسل فى احتفال عظيم .

٢٦٣ – وجاء يوم التتويج فتوج[١٦٦] الامبراطور بلدوين فى فرحة كبرى وحَفْلٍ فخم فى كنيسة سنت صوفيا ، سنة ألف ومائتين وأربعة من مولد عيسى المسيح . وليس ثمت داع للافاضة فى الحديث عن الاحتفالات والولائم التى أقيمت من أجل تلك المناسبة ، ويكفى البارونات والفرسان مجداً أن قاموا بكل ماستطاعوه ، كما أن ماركيز بونيفاس دى مونتفرات وكونت لويس دى بلوا وشارتر قطعا للامبراطور يمين الولاء .

ولما فرغ القوم من حفلات التتويج وأفراحه أخذوه فى أبهة عظيمة وساروا به فى موكب ضخم إلى قصر « بق الأسد » الرائع ، حتى اذا انتهت الولائم شرع فى ممارسة سلطته والقيام بمسئولياته .

٢٦٤ – ثم زاره بونيفاس مركيز دى مونتفرات طالبا منه تنفيذ ماالتفق عليه ومنحه الأرض الواقعة على الجانب الآخر من مضيق الدردنيل تجاه تركيا وجزيرة اليونان وفاءً بما التزم به من قبل ، فأقر الامبراطور بوعده وأبان له سروره بالوفاء به عن رضا وطيب خاطر .

فلما رأى المركيز بونيفاس استعداد الامبراطور للوفاء بما وعد التمس منه أن يخلع عليه – بدلا من تلك المنطقة – مملكة سالونيكا نظرا لقربها من بلاد ملك المجر الذى تزوج المركيز بأخته .

---

(١٦٥) ليس من شك فى ان اودوديشامبليت هذا كان من كبار رحالات الفرنجة والمقدمين فيهم ، وكان مقدما عند فيليب اوجستوس ملك فرنسا الذى يعهد اليه وإلى آخر بالاموال التى اودعها عنده فولك دى نى وهى الأموال التى كان قد جمعها لمعونة الصليبيين ، فقام بذلك اودو القيام المطلوب منه والمتوقع منه .

(١٦٦) كان تتويج بلدوين دى فلاندرز إمبراطورا قد تم وفق التقاليد البيزنطية التى كانت أوضح من الرسوم الفرنجية ، فقد ألبسوه مايعرف عند البيزنطيين بالاحذية القرمزية المقدسة ، وورصعوا عباءته بالنسور المحلاة بالجواهر الكريمة ، وصدر مرسوم التتويج مكتوبا « بالحبر المقدس » وكتبوه بأحرف يونانية وأوقفوا امامه واحدا اطلقوا عليه لفظ Protovestiaries اى « الحاجب » .

٢٦٥ – وطال الجدل وتشعبت مسالكه وتباينت الآراء حول هذه المسألة بين الاثنين ، غير أن الامبراطور وافق فى النهاية على إقطاعه مملكة سالونيكا ، ومن ثم أعلن المركيز تبعيته له ، وحينذاك عمت الغبطة الكبرى نفوس رجال الجيش وفاضت جذلا وفرحا ، وذلك لأن المركيز كان واحدا من أعظم الفرسان الذين شهدهم العالم وأدناهم إلى قلوب الفرسان ، اذ لم يعاملهم أحد بمثل ماكان هو يعاملهم به ، وهكذا بقى المركيز فى البلاد[١٦٧] كما سمعت دون ان يرحل .

(٥٩)
بلدوين يزحف لقتال مرزوفيلوس

٢٦٦ – ولم يكن الامبراطور مرزوفيلوس قد بعد عن القسطنطينية بأكثر من مسيرة أربعة أيام واصطحب معه الامبراطورة التى كانت زوجة الامبراطور الكسيوس الذى هرب من قبل ، كما اصطحب معها أيضا ابنته .

وكان هذا الامبراطور الكسيوس فى مدينة تدعى ميسينابوليس مع جميع رجالاته ، ولازال مسيطرا على شطر كبير من البلاد ورحل فى هذا الوقت طائفة من الرجال البارزين من اهل اليونان كما عبر الكثيرون منهم المضيق متوجهين شطر تركيا[١٦٨] واستولى كل منهم لنفسه على ماستطاع الاستيلاء عليه من أرض ، ووقع مثل هذا الامر أيضا فى بقية أجزاء الامبراطورية الأخرى .

٢٦٧ – ولم يلبث الامبراطور مرزوفيلوس ان استولى على مدينة تدعى « تشورلو » كانت قد استسلمت من قبل لمولاى الامبراطور[١٦٩] بلدوين ومن ثم فقد ضربها مرزوفيلوس وغنم كل ماوجده فيها ، فلما بلغ الخبر الامبراطور بلدوين تشاور مع البارونات ومع دوج البندقية واتفقوا على أن ينهض[١٧٠] بجميع من معه لفتح هذه

---

(١٦٧) يعنى بذلك أنه بقى فى المملكة اللاتينية ولم يغادرها إلى أوربا ، وكان خوف الصليبيين ان يرحل ويثير العداء ضد المملكة اللاتينية ، أو يذهب إلى المجر ويتخذ أرضها مركزا لمهاجمة المملكة .

(١٦٨) فى شو : « متوجهين إلى ذلك الشطر من الامبراطورية الواقع على تخوم تركيا » .

(١٦٩) يلاحظ ان هذه هى أول مرة يستعمل فيها فلهاردوان كلمة (مولاى) فى معرض كلامه عن الامبراطور بلدوين ، مماله دلالته على انه أصبح تابعا إقطاعيا له .

(١٧٠) المقصود بذلك الامبراطور بلدوين ، وبذلك يقوم بأداء ماهو مفروض فيه فى وضعه الجديد ، وماهو مفروض فيمن صاروا له أفصالا .

الناحية ، على أن يترك وراءه بالقسطنطينية حامية للدفاع عنها والاطمئنان عليها ، لاسيما وأنها لم تقع فى يده إلا منذ أمد قريب ، هذا بالاضافة الى أنها غاصة بالاغريق .

٢٦٨ – ولما استقر الرأى على هذه الصورة استنفروا الجيش ، واتفقوا على أىّ الرجال يظلون مقيمين فى القسطنطينية وأيهم ينضم للحملة مع الامبراطور بلدوين ، فكان ممن بقى بالقسطنطينية الكونت لويس دى بلوا وشارتر الذى لم يكن قد زايله حتى هذه اللحظة مرضه ، على أن يبقى معه أيضا دوج البندقية ، واتفقوا كذلك على أن يقيم كونون دى بيثون فى قصرى بلاشرناى وبق الأسد لحفظ المدينة وفى صحبته جودفرى[١٧١] مارشال شمبانيا وميلز البرابانتى دى بروفنس ومناسيس الجزرى وجميع رجالاتهم أما غير هؤلاء من الصليبيين فقد استعدوا للذهاب مع الامبراطور .

٢٦٩ – وقبل أن يغادر الامبراطور بلدوين القسطنطينية أمر أخاه هنرى[١٧٢] بالرحيل ، فصدع لأمره وخرج على رأس مائة من أحسن الفرسان وظل يزحف من مدينة إلى أخرى ، وكان كلما بلغ واحدة منها جاءه أهلها مقسمين يمين الطاعة والولاء للامبراطور ، وانتهى به الزحف إلى مدينة أدرنة الجميلة الغنية ، فتلقاه أهلها بالترحاب وأقسموا يمين الولاء للامبراطور ومن ثم أقام هنرى بها حتى قدمها الامبراطور بلدوين .

(٦٠)
رحيل مرزوفيلوس
وموقفه من ألكسيوس الثالث

٢٧٠ – فلما سمع الامبراطور بزحف الصليبيين عليه لم يجرؤ على انتظار مقدمهم فرحل ، وظل سابقهم على الدوام بمسافة مقدارها يومان أو ثلاثة أيام ، وأوغل فى السير قدما حتى قارب مسينا بوليس حيث كان الامبراطور الكسيوس[١٧٣] مقيما بها فبعث إليه الرسل مخبرا إياه باستعداده لمساعدته والانصياع التام لكل اوامره ، فرد عليه الامبراطور الكسيوس بأنه يرحب به ترحيبه بابنه ووعده أن يزوجه من ابنته ويتخذه ولدا له ، ومن ثم فقد عسكر الامبراطور مرزوفيلوس أمام مدينة مسينا بوليس وضرب هناك خيمة

---

(١٧١) المقصود بذلك فلهاردوان صاحب هذه المذكرات .

(١٧٢) كان أخوه هنرى من أوائل الرجال الذين أقطعهم الامبراطور إقطاعيات ، إذ منحه منطقة « ادراميث » فى آسيا الصغرى والقريبة من القسطنطينية .

(١٧٣) المقصود بذلك الامبراطور ألكسيوس الثالث .

وفساطيطه ، على حين كان الامبراطور الكسيوس معسكرا داخلها ، وتعددت مرات لقائهما وتشاورهما فيما بينهما ، ثم زوجه الامبراطور ألكسيوس ابنته ، وتحالف الاثنان واتفقا على أن يكونا يدا واحدة .

٢٧١ — بقى ألكسيوس و مرزوفيلوس على هذا الوضع أياما لا أعرف عددها ، قد أقام أحدهما فى معسكره خارج المدينة والآخر داخلها ، حتى كان يومٌ بَعَثَ فيه الامبراطور الكسيوس إلى الامبراطور مرزوفيلوس يدعوه لتناول الطعام معه ولمصاحبته إلى الحمامات ، فكان له ماأراده وجاء الامبراطور مرزوفيلوس فى فئة قليلة من رجاله ، حتى إذا صار داخل الدار استدعاه الامبراطور ألكسيوس إلى حجرة خاصة ثم طرحه أرضا وسمل عينيه .

والآن تستطيع ان تحكم بنفسك ، وقد تمت هذه الخيانة البشعة ، أيجدر أن تبقى البلاد فى أيدى مثل هؤلاء الناس بما انطبعوا عليه من وحشية تجاه بعضهم البعض ، وهل يَصحُّ أنْ تبقى البلاد فى أيديهم أم يجب اخذها منهم(١٧٤) !! .

ولما علم جند الامبراطور مرزوفيلوس بما جرى لمولاهم تفرقوا شذر مذر ، وهرب كل منهم الى ناحية غير الناحية التى هرب إليها الآخر ، بل إن بعضهم انضم إلى الامبراطور الكسيوس وانخرطوا تحت لوائه ودانوا لأوامره وأقاموا معه حيث اقام .

(٦١)
بلدوين يحارب الكسيوس ويتصل بالمركيز

٢٧٢ — تحرك الامبراطور بلدوين بعدئذ من القسطنطينية بجميع عسكره وتقدم إلى الامام حتى بلغ مدينة أدرنة حيث وجد بها أخاه هنرى بمن معه من فرسانه ، وكان أهالى جميع النواحى التى مر بها الامبراطور يأتونه على اختلاف مشاربهم وأهوائهم ، يلتمسون رحمته ، ويعلنون إليه دخولهم فى طاعته ، ويقرون حكومته فيهم .

وفى أثناء وجود رجالنا فى ادرنة جاءهم الخبر بأن الامبراطور ألكسيوس قد سمل عينى الامبراطور مرزوفيلوس ، فطال الكلام بينهم فى هذه المسألة ، وانتهوا كلهم إلى قرار أجمعوا عليه بأن الذين يخون بعضهم البعض على هذه الصورة الكريهة ليسوا أهلا لحكم البلاد ، وأجدر ألا يكون شىء من البلاد فى أيديهم .

---

(١٧٤) عبارة « ام يجب اخذها منهم » غير واردة فى نسخة « شو » ، لكن راجع آخر ماجاء فيما بعد فى الفقرة رقم ٢٧٢ .

٢٧٣ – ومن ثم عزم الامبراطور بلدوين على السير قُدُماً إلى « مسينو » حيث كان الامبراطور ألكسيوس ، فالتمس يونان أدرنة من بلدوين (باعتباره ولى امرهم ومولاهم) أن يترك بمدينتهم بعد مغادرته اياها حامية من رجاله دفعا لخطر جوهانيتزا ملك ولاشيا وبلغاريا الذى طالما كر عليهم مغيراً ومحاربا ، فاستجاب لهم الامبراطور بلدوين وترك لديهم حامية قوامها أربعون فارسا من خيرة الفرسان ومائة جندى من الخيالة ، وعهد بهذه الحامية إلى أستاش دى سبرويك من أهل فلاندرز ، وكان من الفرسان الأشاوس والمحاربين البسلاء .

٢٧٤ – ثم رحل الامبراطور بلدوين بعدئذ عن مدينة أدرنة ، وركب قاصدا مينابوليس ظنا منه انه واجد بها الامبراطور ألكسيوس ، وكان لايمر ببلد الا بادر أهله بالخروج اليه ومبايعته والاعتراف بحكومته ملتمسين منه ان يشملهم برحمته ، فلما رآى الامبراطور ألكسيوس هذا الأمر أسرع لائذا بأذيال الفرار وخرج بجنده من مدينة مينابوليس التى جاءها الامبراطور بلدوين فمضى إليه أهلوها وسلموها إليه .

٢٧٥ – حينذاك قال الامبراطور بلدوين انه سيقيم بها فى انتظار حضور بونيفاس مركيز دى مونتفرات الذى لم يكن قد انضم بعد الى الحملة ، إذْ لم يكن فى استطاعته مجاراة الامبراطور فى سرعة الزحف بسبب استصحابه زوجته[١٧٥] معه ، ومهما يكن الامر فقد ركب النهر حتى بلغ مينابوليس ، وأنزل جنده فى مخيماته التى نصبها هناك ، فلما كانت الغداة مضى إلى الامبراطور بلدوين لرؤيته والتحدث معه وتذكيره بماعاهده به .

٢٧٦ – وقال له : « مولاى لقد وافتنى الأنباء من سالونيكا ان أهالى تلك المنطقة[١٧٦] يريدون منى أن أعرف أنهم يرحبون بمقدمى حاكما لبلادهم ، ولما كنت تابعك الذى اقْطَعْتَه هذه الناحية وتسلمتُها منك ، فإننى التمس منك أن تأذن لى فى الذهاب إليهم ، حتى إذا أخذت مقاليد البلاد وأمور المدينة فى يدى أرفدتك بكل ماتحتاجه من المؤونة ، ووجدتَنى الملبى لأوامرك ، المنفذ لكل ماتشاؤه ، على الا تذهب إلى مملكتى وتخربها ، بل دعنا ننهض – إن شئت – لقتال جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا الذى يحتل قسما كبيرا من البلاد اغتصابا ويحتلها عنوة .

---

(١٧٥) نعتها « شو » بالامبراطورة ، باعتبار ماكان من شأنها قبل زواجها من المركيز ، راجع ماسبق فقرة رقم ٢٤٩ .

(١٧٦) فى شو : « إن أهالى مملكتى مستعدون وراغبون فى قبولى حاكما عليهم » .

(٦٢)
النزاع بين الامبراطور اللاتينى والمركيز

٢٧٧ – لست اعرف من الذى أشار على الامبراطور بأن يجيبه بأنه مصمم على الزحف على سالونيكا أولا ثم ينظر بعد ئذ فى مطالبه ، فقال له بونيفاس مركيز دى مونتفرات : « مولاى إننى أتوسل إليك – وأنا قادر على امتلاك أرضى بدونك – الا تدخل تلك البلاد ، فإن أَبَيْتَ الا اقتحامها عددت دخولك اياها عملا عدائيا نحوى ، ولتعلم أننى حينذاك لن أذهب معكم بل اننى سوف أنفصل عنكم » .
فأجابه الامبراطور إنه مصمم – رغم ذلك كله – على الزحف عليها .

٢٧٨ – وياللشقاء والتعاسة !!
ويالشؤم مانصحهما به أصحابهما !!
وماأفظع خطيئة من كان السبب فى هذا النزاع !!
ولولا رحمة الله بهما وتداركه اياهما لفقدوا كل الفتوحات التى تمت على أيديهم ، ولاصبحت النصرانية تواجه الدمار الذى يهددها بخطره ، ويكشر لها عن انيابه ، وهكذا شاء سوء الطالع وشؤم النصيحة الا ان تدب الفرقة بين إمبراطور القسطنطينية بلدوين وبين بونيفاس مركيز دى مونتفرات(١٧٧) .

٢٧٩ – زحف الامبراطور بلدوين برجاله وجميع محاربيه على سالونيكا . أما بونيفاس مركيز دى مونتفرات فقد كر راجعا وفى صحبته ثُلة كبيرة من أفاضل القوم أمثال جاك دافين ووليم دى شامبليت وهيج دى كوليمى وبرتولد كونت كاتزينلنبوجين ، وكان الفريق الأكبر من أولئك قد قدموا من إمبراطورية المانيا وانضموا الى المركيز . ومن ثم ركب المركيز عائدا حتى بلغ قلعة شديدة المناعة والتحصين جمة الثروة تسمى بقلعة ديموت(١٧٨) ، فسلمها إليه أحد يونان المدينة وشحنها بالمقاتلة . ولما كان إغريقها واغريق النواحى التى على مسيرة يوم أو اثنين منها يعرفون من قبل خبر الامبراطورة(١٧٩) وزواجها منه فقد بادروا بالحضور اليه والالتفاف حوله والاعتراف بحكومته عليهم .

---

(١٧٧) يلاحظ هنا أن فلهاردوان يذكر اسم المركيز دون أن يشير إلى أية علاقة له بسالونيك ، فلا يقول حاكمها ولاصاحبها ولاأميرها ، ذلك لأن المؤلف ضالع مع بلدوين الامبراطور الذى كان فى هذه اللحظة غاضبا من المركيز أو على الاقل مصمما على أن يزحف إلى سالونيك ، وهو مالايرضاه بونيفاس ، أنظر فيما بعد فقرة ٢٨٥ .

(١٧٨) وقد تسمى « ديموتيكا » أيضا ، وهى ترد باللفظين فى مراجع تلك العصور ، وليس ثم خطأ أن تسمى بهذا أو ذاك .

(١٧٩) يقصد بذلك الامبراطورة مرجريت .

٢٨٠ – أما الامبراطور بلدوين فقد تابع زحفه رأسا الى سالونيكا حتى بلغ قلعة اسمها خرستوبوليس وهى من أقوى قلاع العالم قاطبة فاستسلمت له ، وجاءه أهل مدينتها المجاورة لها مقسمين له يمين الطاعة باذلين له ولاءهم ، فلما فرغ من ذلك يمم وجهه شطر مدينة أخرى شديدة الحصانة ، عظيمة الثراء ، تعرف باسم بلاش فاستسلمت هى الاخرى له ، وقطع اهلوها يمين الولاء له ، ثم تابع زحفه الى مدينة ستروس الحصينة الغنية فدخلت فى طاعته وأقرت حكمه ، ثم مضى إلى مدينة سالونيكا وعسكر أمامها وأقام هناك ثلاثة أيام ، فاستسلم له من بها .

وكانت سالونيكا من أحسن مدن العالم المسيحى يومذاك وأكثرها ثروة ، وكان استسلامها له مشروطا بالابقاء على عادات أهلها وتقاليدهم التى أقَّرهم عليها الأباطرة اليونان فساروا عليها حتى اليوم .

(٦٣)
رسالة الصليبيين الى المركيز

٢٨١ – بينما كان الامبراطور بلدوين فى سالونيكا ، وبينما كانت المدن تستسلم واحدة بعد الأخرى لارادته وقيادته كان مركيز بونيفاس دى مونتفرات يزحف بكل رجاله وبالحشد الكثيف من اليونان الذين انضموا اليه على ادرنة وحاصرها ، ونصب خيمه وفساطيطه فيما حولها ، وكان بالمدينة استاش دى سوبرويك مع من تركهم الامبراطور هناك ، فتسلقوا الأسوار واحتلوا الابراج وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم .

٢٨٢ – ثم بعث استاش دى سوبرويك رسولين من ناحيته الى القسطنطينية فأغذَّا الركوب ليلا ونهارا حتى جاءا إلى دوج البندقية وكونت لويس ومن تركهم الامبراطور بلدوين فى المدينة ، وأخبراهم أن أستاش دى سوبرويك يحب أن يفضى اليهم ان الشحناء قد دبت بين الامبراطور والمركيز وتنازعا أمرهما فيما بينهما ، وأن بونيفاس استولى على قلعة ديموث التى كانت من أقوى الحصون فى بلاد الروم وأغناها ، وأنه محاصرهم الآن فى ادرنة ، فلما سمع من بالقسطنطينية هذا النبأ استبدَّ بهم الغضب وأسخطهم الأمر ادراكا منهم بما وراء هذه الأحداث من ضياع كل فتوحاتهم .

٢٨٣ – ومن ثم اجتمع فى قصر بلاشرناى دوج البندقية ولويس كونت بلوا وشارتر وبقية من كانوا بالقسطنطينية من البارونات ، وقد أحفظهم الغيظ واستوقدهم الحنق ، واشتد بهم السخط على من أوضعوا فى الفتنة وأضرموها بين الامبراطور والمركيز ، ثم

التمس دوج البندقية وكونت لويس من جوفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا أن يشخص الى أدرنة المحاصرة ويطفىء ثائرة الحرب ماستطاع إلى ذلك سبيلا لأنه كان أثيراً عند المركيز ، وكان المركيز به حفيا وله معظما ، ومن ثم اعتبروه اكثر تأثيرا من غيره على بونيفاس .

فقال لهم جودفروى فلهاردوان إنه مستجيب لرجائهم إياه ولحاجتهم الملحة إليه ، وأنه يرحب بالذهاب فيما ندبوه اليه . واستصحب معه مناسيس الجزرى أحد فرسان الحملة وأعظمهم احتراما .

٢٨٤ – ومن ثم غادر الاثنان(١٨٠) القسطنطينية وظلا راكبين أياما حتى بلغا ادريانوبوليس حيث كان الحصار لايزال مضروبا عليها ، فلما سمع المركيز بقدومهما غادر معسكره وخف لاستقبالهما وفى معيته جاك دافين ووليم دى شامبليت وهيج دى كوليمى واتودى لاروش ، وكلهم زعماء مجلس مشورته ، فلما أبصر المركيز الرسولين بالغ فى إكرامهما والاحتفاء بهما ، ورحب بمجيئهما .

٢٨٥ – واذ ذاك أَنَّبَهُ جود فرى المارشال تأنيبا بالغا ، رغم ماكان بينهما من مودة بالغة صادقة وثيقة العرى ، ولامه على الطريقة التى سلكها فى الاستيلاء على أرض الامبراطور ومحاصرته لشعبه فى ادرنة قبل ان يُعْلِمَ من بالقسطنطينية الذين كان لابد من أن يصلحوا ذات البين بما يرضيه لو أن الامبراطور كان اخطأ فى حقه ، وماكان لجهل بلدوين ان يبطر حلمه ، فأخذ المركيز يسرف فى تبرئة نفسه قائلا إنه ماحمله على ركوب هذا المركب غير المسلك الخاطىء الذى سلكه الامبراطور تجاهه .

٢٨٦ – هكذا نجح جودفرى مارشال شمبانيا الذى آتاه الرب من لدنه راشدا ، كما يعزى نجاحه الى البارونات ممن كانوا موضع ثقة المركيز الذى كان يختص جوفرى بمودته واشرب قلبه محبته ، وتجلى ذلك حين اكد له المركيز انه سيترك المسألة بين يدى دوج البندقية ، وكونت لويس دى بلوا وشارتر ، وكونون دى بيثون وجودفرى دى فلهاردوان المارشال يعالجونها بما يرون صوابا ، وليس فيهم الا من هو عالم علم اليقين بما بينه وبين الامبراطور من عهد وميثاق ، ومن ثم عقدت الهدنة بين من فى المعسكر ومن فى المدينة .

---

(١٨٠) يقصد المؤلف بذلك نفسه ومناسيس الجزرى الذى هو من جزيرة فرنسا : إيل دى فرانس Isle de France .

٢٨٧ – ويجب ان تعلم ان جوفرى المرشال ومناسس الجزرى كان موضع فرح كل من العسكر وسكان البلد ، اذ كان كلاهما راغبا فى السلام نَزَّاع النفس اليه .

ولم يعادل غبطة الفرنجة الا حزن اليونان الذين كانوا يتمنون أن يروا الصليبيين يقاتل بعضهم بعضا فيقتلون ، وينازع أحدهم الآخر فتفشل ريحهم ، ومن ثم رفع الحصار عن مدينة ادرنة وعاد المركيز بجميع رجاله إلى ديموس حيث كانت زوجته الامبراطورة .

(٦٤)
رسالة الصليبيين إلى بلدوين

٢٨٨ – عاد الرسولان إلى القسطنطينية وأخبرا القوم بماتم على أيديهما ، وكم كانت فرحة دوج البندقية وكونت لويس دى بلوا وشارتر وسواهم عظيمة أنْ عهدوا إلى هذين الرسولين بإجراء مفاوضات الصلح ، ومن ثم اختاروا رسلا كراما ، وكتبوا رسالة أنفذوها إلى الامبراطور بلدوين يخبرونه فيها أن المركيز قد وكل الأمر إليهم ووضع نفسه بين أيديهم ، مؤكد أنّه يترك لهم أن يقضوا بما يرون ، وأنه نازل على قضائهم بينهما ، وأن الامبراطور – والأمر كماترى – أكثر التزاما من المركيز بما ألزم به المركيز نفسه .

٢٨٩ – بينما كانت المسألة لاتزال موضع أخذ ورد كان الامبراطور بلدوين قد فرغ من إقرار الأمور فى سالونيكا على الوجه الذى يرضاه ، ثم رحل عنها تاركا فيها حامية من رجاله للمحافظة عليها برياسة أحد الفرسان الشجعان الصالحين ، وهو رينيه دى مونس ، ثم جاءته الانباء بأن المركيز قد استولى على ديموث ووطَّدَ موقفه فيها دون منازع له ، وأنه فتح شطرا غير قليل من البلاد التى حولها ، وأنه حاصر أهل ادرنة وهم رعية الامبراطور ، فاشتد الغضب بالامبراطور بلدوين وأسخطه ، وسعر نفسه سماعه هذه الانباء ، ونهض من لحظته هذه مغذا السير لرفع الحصار عن ادرنة وانزال كل مايستطيع من الضرر بالمركيز .

رباه !! أى نكبة كاد أن يؤدى اليها مابينهما من الشقاق المرير . ولولا عطف الرب ورحمته لكانت المسيحية فى غمرة الموت ولَتَصَرَّم أجلها يومذاك .

٢٩٠ – أغذ الامبراطور بلدوين السير يوما بعد يوم ، وألَمَّت نكبة نكباء بمن كانوا مرابطين أمام سالونيكا إذ أصاب المرض العضال اكثر رجالات الجيش فاقعد الكثيرين منهم عن الحركة ، فأقاموا حيث هم فى القلاع التى مر بها الامبراطور ، كما جيء بطائفةٍ غيرهم فى المحفات يرمضهم الالم المرير ، ومات الكثيرون فى منطقة ستروس ، فكان ممن

قضى نحبه فيها السيد جون دى نويون كاتب سر الامبراطور بلدوين ، وكان كاهنا صالحا حكيما طالما أدخل الطمأنينة على نفس الجيش لترديده كلمة الرب التى كان هو خير من يعظ بها ، ويجب أن تعلم أن خبر موته نزل نزول الصاعقة على الرجال الخيرين .

٢٩١ – لم تنقضِ فترة طويلة حتى حاقت بالجيش نكبة أخرى شديدة الوقع عليه بموت بطرس دامبين ، وكان ثريا نبيلا ، وفارسا شجاعا خَيّراً ، وأعلن الحزن عليه ابن عمه هيج دى سانت بول ، وكان وقع موته على الجيش أليما ، ولم يكد يوارى قَبْرَهُ حتى مات جيرار دى مانسيكورت الذى طار صيته كفارس بطل ، وجيل دى نوى وكثيرون غيرهم منْ الصالحين .

ولقد مات فى خلال هذه الرحلة أربعون فارسا أوْهَنَ موتهم الجيش وهنا كبيرا .

(٦٥)
رد بلدوين على رسالة الصليبيين

٢٩٢ – ظل الامبراطور بلدوين مسافرا حتى التقى بالرسل الذين قدموا لمقابلته والذين أوفدهم إليه الصليبيون المقيمون بالقسطنطينية ، وكان أحد هؤلاء الرسل فارسا من إقليم الكونت لويس دى بلوا ومن أحد أتباعه واسمه بيج دى فرانزور ، وكان خطيبا مفوها وحكيما ألمعيا فأفضى برسالة سيده وبقية البارونات إلى الامبراطور قائلا له :

٢٩٣ – « مولاى ياصاحبَ الجلالة : ان دوج البندقية وسيدى الكونت لويس وبقية البارونات الموجودين بالقسطنطينية يتمنون لك العافية[١٨١] ويبعثون اليك تحية المتبوع لسيده ، ويجأرون بالشكوى الى الله ويستصرخون بك من اولئك الذين اثاروا الفتنة بينك وبين المركيز دى مونتفرات ، ولولا موت هذه الفتنة لذهبت ريح النصرانية ، وانهم ليخبرونك بأنك قد سلكت سبيلِ الضلالة حين أصغيت إلى مثل هؤلاء النصحاء ، وأن سادتى لينبئوك بأن المركيز قد حكّمهم فيما بينك وبينه من نزاع ، وهم يتوسلون إليك – وأنت سيدهم الأعلى – أن تَكِلَ لهم أيضا هذا النزاع ليروا رأيهم فيه ، وأن تعدهم بالنزول عند حكمهم . وليكن معروفا لديك أنهم لن يقبلوا الحرب مهما كانت الظروف والمبررات » .

---

(١٨١)عبارة « يتمنون لك العافية » غير واردة فى شو .

٢٩٤ – انقلب الامبراطور بلدوين إلى مجلسه للمشاورة ، وقال إنه سيأتيهم بالرد بعد مشاورته رجاله ، وكان هناك كثيرون فى مجلس الامبراطور مِمَّن عملوا على بذر بذور الشقاق بين الاثنين ، ومن ثم كانوا كارهين لهذا البيان الذى أرسله مَنْ فى القسطنطينية فقالوا له : « يامولانا ، لقد سمعت ماقالوه لك من أنهم لن يخلوا بينك وبين الثأر من عدوك ، وأنهم منذروك بأن سوف يكونون إلْباً عليك إن لم تنزل عند أمرهم » .

٢٩٥ – طال النقاش بين أعضاء هذا المجلس وتشعبت مسالكه ، لكنهم اتفقوا فى النهاية على أن الامبراطور لايرضيه أبدا أن يفقد صداقة دوج البندقية والكونت لويس وسواهما ممن هم فى القسطنطينية ، بل هو حريص على جعل حبل هذه المودة موصولا ، وحينذاك قال الامبراطور للرسل : « لاأستطيع أن أعِدَكُم بإحالة النزاع إلى من بعثوكم إلىَّ ، ولكننى ماض إلى القسطنطينية دون ان أقوم بعمل يلحق الأذى بالمركيز » .

ثم ظل الامبراطور مسافرا ليله ونهاره حتى بلغ القسطنطينية ، فخفّ للقائه البارونات وغيرهم من كبار القوم ورحبوا بمقدمه ترحيبا يليق بمقامه فيهم : سيدا وإمبراطورا .

(٦٦)
الصلح بين الامبراطور والمركيز

٢٩٦ – فلما كان اليوم الرابع أدرك الامبراطور بجلاء ان من نصحوه بمحاربة المركيز قد ضللوا به ولم يمحضوه النصيحة الكريمة ، فجاءه دوج البندقية وكونت لويس وقالا له : « مولانا إننا نلتمس منك أن تعهد إلينا بهذه المسألة كما فعل المركيز من قبل » .

فرحب الامبراطور بما طلباه ترحيبا صادقا ، وعندئذ عمد القوم إلى اختيار جماعة من الرسل راحوا فى طلب المركيز وإحضاره ، وكان من بينهم جرفيه دى شاتيل ، ورينييه دى تريت وجوفرى مارشال شمبانيا ، أما دوج البندقية فقد أرسل اثنين من رجاله .

٢٩٧ – اغذ الرسل السير حتى قدموا « ديموث » فوجدوا المركيز مع زوجته الامبراطورة فى جمع كثيف من أفاضل الناس ، فأنبأه رجال الوفد أنهم قدموا من أجله ، واذ ذاك سأله جوفرى المارشال أن يفى بوعده له بالمجىء الى القسطنطينية لعقد الصلح على الصورة التى يقرها من وكل إليهم موضوعه ، ووعده فلهاردوان باسمه وباسم من معه من الرسل بأنه[١٨٢] واجد الامان له ولمن يستصحبهم معه .

---

(١٨٢) الضمير هنا عائدا على بونيفاس مركيز دى مونتفرات .

٢٩٨ – استشار المركيز رجاله فكانوا فريقين : احدهما يحبذ الذهاب ، وآخر ينهاه عنه ، وانتصر أصحاب الرأى الأول ، فمضى مع الرسل الى القسطنطينية واصطحب معه مائة فارس وظلوا راكبين حتى بلغوا المدينة فلقيهم أهلها بالسرور العظيم ، وخرج لاستقبالهم كونت لويس دى بلوا وشارتر ودوج البندقية وكثيرون غيرهما من أفاضل القوم ، لأن المركيز كان محبوبا اشد الحب من رجال الحملة .

٢٩٩ – ثم عقد اجتماع استعاد فيه حاضروه ماأبرم من عهد ومواثيق بين الامبراطور بلدوين ومركيز بونيفاس الذى ردوا عليه سالونيكا وماحولها من البلاد ، فعمد بونيفاس إذ ذاك الى وضع ديموت (التى كان قد استولى عليها) فى يدى جودفرى مارشال شمبانيا الذى تعهد له بالمحافظة عليها حتى يصل الى عِلْمِه – عن طريق رسول موثوق به أو خطابات مختومة ان المركيز قد دخل سالونيكا ، فيرد اذ ذاك « ديموث » إلى الامبراطور أو من ينيبه عنه ، وهكذا تم الصلح بين الامبراطور والمركيز كما علمت .

وعمت الفرحة الشاملة كافة رجال الحملة إذ كانوا يتوقعون أن يتمخض هذا الشقاق عن أسوأ أنواع الشر .

(٦٧)
المركيز يسترد سالونيكا
وتقسيم البلاد إقطاعيا بين كبار الصليبيين

٣٠٠ – استأذن المركيز القوم بعد ذلك فى العودة إلى سالونيكا هو وجماعته وزوجته ، وصحبه فى خروجه هذا رسل الامبراطور الذين راحوا يسلمونه باسم الامبراطور كل قلعة يمرون بها ويعلنون سيادته عليها ، فلما بلغ سالونيكا سلمه إياها اولئك الذين كان الامبراطور قد أقامهم فيها حُرَّاسا ، وكان الحاكم الذى عهد إليه بلدوين بها واسمه رينييه دى مونز – قد مات ، وكان رجلا فاضلا وكان موته كارثة عظمى .

٣٠١ – شرعت الارض والبلاد فى الاستسلام للمركيز ، ودخل تحت حُكْمِه جزء كبير غيرها ، إلا أنّ أحد كبار الشخصيات اليونانية واسمه ليون سيجور داخله الغرور فأبى الدخول فى طاعة المركيز ، إذ كان قد استولى على مدينتى[١٨٣] كورنثة ونابولى المطلتين

---

(١٨٣) وذلك فى المنطقة التى تصل بين المورة ووسط بلاد اليونان .

على البحر ، وكانتا من أحصن مدن العالم وأمنعها ، ومن ثم أبَى الاستسلام وأسرع فى محاربته وانضم إليه كثير من الاغريق .

وكان هناك يونانى آخر اسمه ميخائيل(١٨٤) ممن جاءوا من القسطنطينية مع المركيز الذى كان يحسبه صديقا له ، ولكنه رحل فجأة ودون أية كلمة ومضى إلى مدينة اسمها ارثا(١٨٥) وتزوج من ابنة ثرى اغريقى من أتباع الامبراطور ، وتملك ميخائيل اقطاعا ثم اخذ يشن الحرب على المركيز .

٣٠٢ — بسط الهدوء طنبه على البلاد الممتدة من القسطنطينية الى سالونيكا ونَعِمَ الناس بالسلم ، ورفرف الأمان على جميع الطرق حتى اصبح القوم قادرين على الغدو والرواح آمنين فى سربهم لايستشعرون فزعا ولاهم يخافون شيئا فى تنقلهم من مدينة الى اخرى ، وكان بين المدينتين مسيرة اثنى عشر يوما ، وكان قد انقضى زمن طويل علينا حتى اصبحنا فى مستهل(١٨٦) سبتمبر (١٢٠٤) وكان الامبراطور بلدوين فى القسطنطينية والبلاد هادئة ناعمة بسلطانه ، وحينذاك مات فيها فارسان طيبان هما استاش دى كانتيلو وايمرى دى فيلليروا ، وكان موتهما خسارة فادحة نزلت بأصدقائهما .

٣٠٣ — شرعنا بعد ذلك فى تقسيم البلاد ، فأخذ كل من البنادقة والحجاج نصيبه ، حتى إذا أصبح فى قدرة كل من الجانبين الذهاب إلى منطقته ابى الطمع الدنيوى — وهو أس كل الشرور — الا ان يفسد ماينعمون به من هدوء ، اذ اخذ كلاهما يسلك مسلكا دنيئا فى ارضه على درجات متفاوتة ، فكرههم اليونان ، وخشنت صدورهم ، وعشش الحقد فى قلوبهم عليهم .

٣٠٤ — ثم أَقْطَعَ الامبراطور بلدوين دوقية نيقية لكونت لويس ، وكانت(١٨٧) من اعظم مقاطعات ولاية الروم وتقع تجاه تركيا على العدوة الاخرى من المضيق ، وهى

---

(١٨٤) يقصد بذلك ميخائيل دوكاس أنجيلوس ، ويعرف بميخائيل الأول ، وكان ابن عم الامبراطور إسحق الثانى أنجيلوس ، وكان صاحب السلطة فى إبيروس من بلاد اليونان فيما بين ١٢٠٤ و١٢١٤ ، وكان الكسيوس الثالث قد فر إليه ، ويلاحظ ان ميخائيل هذا هو الذى وقف الى جانب المركيز دى مونتفرات ، ثم تركه وتخلى عنه ومضى إلى مدينة « أرتا » حيث تزوج من فتاة قيل ان أباها كان حاكما لاحدى نواحى تلك الجهات ، مما مهد له لأن يكون صاحب أملاك كبيرة هناك ، وكان رجلا طماعا لايحافظ على عهده ، تمادى إلى قتال بينه وبين هنرى اخى بلدوين فيما بعد .

(١٨٥) وتقع فى جنوب إبيروس قرب الساحل الغربى الجنوبى لشبه جزيرة البلقان .

(١٨٦) فى شو « ختام » .

(١٨٧) فى شو : « وكانت واحدة من أعظم المقاطعات فى الامبراطورية » .

العدوة التى لم تكن اراضيها قد استسلمت للامبراطور بل كانت ثائرة ضده خارجة عليه .

كما خلع دوقية فيليبوبوليس بعدئذ على رينيه دى تريت .

٣٠٥ – لذلك ارسل كونت لويس قرابة مائة وعشرين فارسا من رجاله لفتح أرضه ، وجعل عليهم بطرس دى براسيو وباين الأرليانى ، فغادروا القسطنطينية يوم عيد جميع القديسين(١٨٨) وعبروا مضيق سنت جورج بالقوارب وأرسو فى ابيدوس(١٨٩) ، ثم خرجوا منها الى مدينة اسبيجال الواقعة على البحر والتى يسكنها اللاتين ، ثم شرعوا فى مقاتلة الاغريق .

(٦٨)
إعدام مرزوفيلوس

٣٠٦ – حدث فى تلك الايام أن الامبراطور مرزوفيلوس الذى سملت عيناه – وهو نفس الرجل الذى اغتال مولاه ابن الامبراطور اسحق واعنى به الامبراطور الكسيوس (الرابع) الذى جاء به الحجاج معهم – اقول : حدث فى تلك الايام ان هرب الامبراطور مرزوفيلوس سرا فى فئة قليلة عابرا المضيق(١٩٠) ملتجأ الى ماوراءه ، فلم يخف الأمر على تييرى دى لوس اذ انبأه القوم بفرار مرزوفيلوس ، فألقى القبض عليه(١٩١) ، وجاء به الى الامبراطور بلدوين فى القسطنطينية فسر بذلك سرورا زائدا ، وراح يستشير رجاله فيما ينبغى عليه عمله ازاء رجل أجرم فى حق مولاه باغتياله إياه .

---

(١٨٨) وهو أول نوفمبر ١٢٠٤م (= الاثنين ٦ ربيع الأول سنة ٦٠١هـ) .

(١٨٩) لم ترد فى « مز » عبارة : « وأرسوا فى ابيدوس » .

(١٩٠) لم ترد فى « شو » عبارة « ملتجئا الى ماوراءه » .

(١٩١) جاء فى كلارى بشأن إلقاء القبض على مرزوفيلوس « ان كونت تيرى دى لوس كان ماضيا إلى مقاطعته فالتقى صدفة بمرزوفيلوس الذى كان مستصحبا معه السيدات والآنسات وكثيرا غيرهن ، وكان يركب فى أبهة رائعة وفخامة بالغة كأنه أحد الاباطرة فى طائفة ضخمة من الخلق ، فماكان من تيرى الا أنْ قَصَدَه راكبا ونجح فى امساكه بالقوة فلما صار فى قبضته جاء به الى القسطنطينية وأسلمه الى الامبراطور بلدوين الذى ماكاد يراه حتى أمر بزجه فى الحبس وبتشديد الحراسة عليه » أنظر فتح القسطنطينية على يد الصليبيين لروبرت كلارى ، ترجمة حسن حبشى ص ١٤٧ – ١٤٨ .

٣٠٧ – كان فى وسط مدينة القسطنطينية عمود رخام(١٩٢) من أطول وأحسن الأعمدة التى رأتها العين ، فاتفق الرأى على أخذ مرزوفيلوس الى قمته والقائه منه الى الارض على مشهد من الجميع ، اذ ينبغى أن يرى الناس كلهم تطبيق هذا الحكم الرادع(١٩٣) ومن ثم فقد ساروا بالامبراطور مرزوفيلوس الى ذلك العمود واصعدوه الى قمته ، وتقاطرت الناس افواجا من كل حدب وصوب تسوقها اللهفة الى رؤية هذا الحدث ، ثم دفعوا به من عَلٍ حتى اذ بلغ الارض كانت اوصاله قد تمزقت إربا وتهشمت عظامه .

٣٠٨ – والآن إليك عجيبة كبرى !

كان محفورا على هذا العمود الذى اسقطوا مرزوفيلوس من فوقه صور مختلفة ، منها

---

(١٩٢) الذى ذكره كلارى ورآه هو أنه كان هناك عمودان ، يسميهما الناس بعمودى النساك ، وكان قطر كل واحد منهما « امتداد أذرع ثلاثة رجال ، ولا يقل ارتفاع كل منهما عن ثلاثمائة قدم ، وقد اعتاد النساك أن يعيشوا فوق قمة هذين العمودين فى قلايات صغيرة موجودة هناك ، وكان بالعمودين أبواب يستطيع المرء الصعود منها » .

ثم يصف كلارى مانقش على هذين العمودين من الصور والرسوم ويقول : « دونت نبؤة كل الأحداث والفتوحات التى المت بالقسطنطينية أو التى كان مقدرا لها أن تقع ، لكن لم يكن ثم فرد يستطيع فهم واحد من هذه الاحداث حتى يقع الحادث ، وإذ ذاك يهرع الناس إلى هناك ويمعنون النظر فيما يرون فيطالعون الحدث ويفهمون – لأول مرة خبر ماجرى » ، ويقول كلارى : « بل إن فتح الفرنسيين هذا كان مدونا ومرسوما على العمودين ، وكذلك السفن التى استعملوها فى الاغارة على المدينة واستولوا بها عليها ، ولكن الاغريق لم يستطيعوا لها فهما قبل وقوع الواقعة ، فلما جرت ذهبوا إلى حيث يقوم العمودان ، وتأملوا فيما عليهما من الكتابة وصور السفن فاذا بها تقول : ان قوما قصار الشعور ، ذوو أسياف حديدية سيأتون من الغرب لغزو القسطنطينية » ، انظر روبرت كلارى : نفس المرجع ص ١٣١ – ١٣٢ فقرة رقم ١٨٤ ، ١٨٥ وانظر هنا الفقرة التالية .

(١٩٣) يستفاد من هذا أن إلقاء مرزوفيلوس من قمة العمود كان بغرض ان يرى الناس كيف يكون عقابه الرادع ، على حين أن كلارى ، وكان هو الآخر شاهد عيان لحادث القتل يذكر رواية ليس من شك فى أنها كانت سائدة بين العسكر الصليبى ، وهى فى الواقع تفصح عما كان يعتقده ويحسه ويدركه هذا العسكر من أن الكلمة العليا كانت لدوق البندقية هنرى داندولو ، وأن مايقوله هو الفيصل ، فيقول كلارى (فتح القسطنطينية ص ١٤٨ ، فقرة ١٤٨) « انه حين صار مرزوفيلوس فى السجن بعث الامبراطور بلدوين ذات يوم إلى جميع باروناته ووجوه الرجال الموجودين فى القسطنطينية طالبا إليهم القدوم إلى القصر ، فجاءه دوق البندقية وكونت لويس ، وكونت سانت بول وغيرهم ، فلما صاروا بحضرته أخبرهم الامبراطور كيف صار مرزوفيلوس فى حبسه وسألهم عما يشيرون به عليه فيما يصنعه به ، فأشار البعض بشنقه ، وقال آخرون : بل يجر فى الشوارع ، وأخيرا تكلّم دوج البندقية فقال : « ان مرزوفيلوس كان رجلا اعظم من أن يموت شنقا ، وانه لينبغى ان يتناسب جلال موته مع عظمته كامبراطور ، ولذلك سأخبركم عما تفعلونه به .. انه يوجد فى هذه المدينة عمودان باسقان ، يبلغ ارتفاع كل منهما ثلاثمائة أو ثلاث مائة وستين قدما ، فعلينا أن نصعد به الى قمة أحدهما ثم نقذف به إلى الأرض » .

واحدة تمثل إمبراطوراً يسقط منكس الرأس ، إذ كانت هناك نبؤة قديمة تقول بأنه سوف يرمى من قمة هذا العمود أحد أباطرة القسطنطينية . وهكذا تحققت النبوءة .

٣٠٩ – وحدث فى هذا الوقت أيضا أن كان المركيز بونيفاس دى مونتفرات على مقربة من سالونيكا ، فألقى القبض على الامبراطور الكسيوس الذى سمل عينى اخيه[١٩٤] الامبراطور إسحق ، كما القى المركيز القبض على زوجته الامبراطورة معه ، ثم بعث بونيفاس بحذاء الكسيوس القرمزى وثيابه الملوكية إلى مولاه الامبراطور بلدوين بالقسطنطينية ، فَعَدَّ الامبراطور هذا العمل لفتة طيبة كريمة ثم مالبث المركيز أن بعث بالامبراطور الكسيوس وزوجته الامبراطورة إلى مونتفرات ليسجنا .

(٦٩)
استيلاء الصليبيين على بعض المدن . لاسكاريس والامبراطورية

٣١٠ – بعد الاحتفال[١٩٥] بعيد من القسطنطينية هنرى أخو الامبراطور بلدوين وركب المضيق مبحرا الى ابيدوس ، وفى صحبته قرابة مائة وعشرين فارسا من الفرسان الأشاوس ، وعبر البوغاز من ناحية باب المدينة التى يدعونها « أفى » فوجد فيها كافة مايحتاجه المرء من قمح ومؤونة ولحوم فاستولى على المدينة واقام بها ثم شرع فى محاربة الاغريق الذين كانوا فى مواجهته .

كان بهذه الناحية كثرة من الارمن الذين سرعان ماانضموا اليه لشدة مايضمرونه من الكراهية لليونان .

٣١١ – وفى هذه الاثناء كان رينيه دى تريت قد غادر القسطنطينية متجهاً شطر فيلوبوبوليس التى كان الامبراطور أقطعه[١٩٦] اياها من قبل ، وأخذ معه قرابة مائة وعشرين فارسا من خيرة الفرسان ظل راكبا بهم حتى جاوزوا ادرنة وبلغ فيلوبوبوليس التى خرج اهلوها للترحيب به ، وبذلوا له الطاعة والولاء ، وكانوا فى مسيس الحاجة إلى نجدة تأتيهم ، لأن جوهانيزا – ملك ولاشيا – كان يراوحهم بغاراته وحروبه التى

---

(١٩٤) كلمة « أخيه » غير واردة فى شو .

(١٩٥) وذلك يوم ١١ نوفمبر ١٢٠٤ (= ١٦ ربيع الاول ٦٠٠هـ) .

(١٩٦) راجع ماسبق فقرة رقم ٣٠٤ .

ضرستهم وانهكتهم ، ومن ثم ساعدهم رينيه خير مساعدة ، واستولى على قسم كبير من الأرض ، واذ ذاك انقلب على جوهانيزا معظم من كانوا فى صفه وانضموا إلى جانب رينيه ، واستمرت الحرب ضارية بين الفريقين هناك .

٣١٢ – بعث الامبراطور قرابة مائة فارس عبر مضيق الدردنيل المواجه للقسطنطينية بقيادة مركيز دى سنتماينهولد ومعه : ماتيو والينكورت وروبرت دى رونسوى ، وركبوا إلى مدينة تدعى نيقوميديا واقعة على لسان من البحر وتبعد عن القسطنطينية مسيرة يومين ، فلما سمع اليونان بزحفهم عليها رحلوا عن المدينة وخلفوها خاوية ، فدخلها الحجاج واستقَرُّوا بها ، وأقاموا فيها حامية لحراستها وللدفاع عنها وحصنوا أسوارها ، وأخذوا فى اضرام الحرب ضدهم فى هذه الناحية ايضا .

٣١٣ – كان يتولى أَمْرَ البلاد الواقعة على الجانب الآخر من المضيق رجل يونانى اسمه تيودور[١٩٧] لاسكاريس هو زوج ابنة الامبراطور الكسيوس ، فاتخذ من هذا الزواج حجة يدعم بها ادعاءه فى امتلاك تلك البلاد .

وهذا هو الكسيوس الذى طرده الفرنجة من القسطنطينية والذى سمل عينى اخيه .

واخذ لاسكاريس على عاتقه مقاتلة الفرنجة فى كل مكان نزلوا به بالجانب الآخر[١٩٨] من المضيق .

٣١٤ – اما الامبراطور بلدوين وكونت لويس فقد لبثا فى القسطنطينية مع شرذمة قليلين من المحاربين ، وأقام معهم كذلك كونت دى سنت بول الذى أقعدته العلة اذ

---

(١٩٧) ويعرف بتيودور لاسكاريس الأول ، وكان من أباطرة إمبراطورية نيقية البيزنطية فيما بين عامى ١٢٠٨ ، ١٢٢٠م بل هو مؤسسها ، وكان الشخصية التى تجمعت حولها الآمال الوطنية البيزنطية بعد الفتح اللاتينى ، وكان له صراع مع اللاتين فى ذلك الوقت انهزم فى أول هزيمة فى وقعة « بريمانيون » التى سقط بعدها الكثير من مدن اقليم بيثينيا فى أيدى الدخيل ، على أن ذلك لم يضعف من عزيمة تيودور لاسكاريس ولا الوطنيين البيزنطيين حتى لقد قام هنرى فلاندرز بعقد هدنة سلام معه سنة ١٢٠٧ ، ولقد كان تجمع الوطنيين فى نيقية ناقلا الثقل البيزنطى إلى اسيا الصغرى حتى إن لاسكاريس يمدّ يد الاتحاد إلى ليون الثانى ملك أرمينيا الصغرى فى قيليقيا لمواجهة الخطر السلجوقى ممثَّلا فى سلاجقة الروم الذين وجدوا الفرصة مواتية لهم لمضاعفة جهودهم ضد اللاتين بهروب ألكسيوس الثالث الى البلاط السلجوقى ، وكذلك قام السلطان السلجوقى غياث الدين كيخسرو بمطالبة تيودور لاسكاريس بترك عرش نيقية لأبى زوجته ألكسيوس الثالث . ومن ناحية اخرى نجد ان لاسكاريس هذا قد اصبح له اسطول بيزنطى حتى لقد فكر فى مهاجمة القسطنطينية به وضرب اللاتين هناك ، انظر عنه وتاريخ هذه الامبراطورية الجديدة A. Gardner : The Lascaradis of Niceae, The Story of An Empire In The Exile, Lond, 1912; & J. Longnon: L'Empire latin de Constantinople et la principaute de Moreè, Paris 1949.

(١٩٨) يعنى بذلك نواحى آسيا الصغرى .

استحكم النقرس فى ركبتيه وقدميه ، كما بقى معهم دوج البندقية الذى لم يكن يرى شيئا .

(٧٠)
الامدادات من الشام ووفاة زوجة بلدوين

٣١٥ – حدث بعد هذا بقليل أنْ جاءت من بلاد الشام فئة كبيرة ممن كانوا قد انفصلوا من الحملة مؤثرين على البندقية غيرها من الموانى ، وجاء مع هذه الطائفة ستيفن دى بيرش ورينولد دى مونتميريل وهما من أبناء عمومة الكونت لويس الذى أكرم وفادتهما ولم يكتم فرحته بمجيئهما ، كذلك رحب الامبراطور بلدوين ومن معه بهما لانهما كانا من اكثر القوم مالا ورجالا .

٣١٦ – وجاء من بلاد الشام هيج من اهل طبريا واخوه راؤل وتييرى دى تينريموند وكثيرون من اهل تلك البلاد من فرسان وخيالة خفيفة وسرجندية ، فأقطع الامبراطور بلدوين دوقية فلادلفيا(١٩٩) الى ستيفن دى بيرش .

٣١٧ – وتلقى الامبراطور بلدوين وسط هذه الاحداث خبرا أحزنه وغمه يتعلق بزوجته الكونتس مارى(٢٠٠) .

وكان الكونت قد تركها فى فلاندرز يوم رحيله للمشاركة فى الحملة الصليبية للحرب ، وكان هو يومذاك لايزال كونتا ، وكان الذى أقعدها عن مصاحبته انها كانت حاملا ، فوضعت له بنتا ، فلما اخذت فى النقاهة اعدت العدة للسفر واللحاق بزوجها فيما وراء البحار .

وابحرت من ميناء مرسيليا ، وماكادت تصل الى عكا(٢٠١) وترسو بها حتى جاءتها الاخبار من القسطنطينية مع الرسل الذين انفذهم زوجها اليها ينبؤونها بسقوط المدينة فى يد الفرنجة وأن زوجها اصبح امبراطورا ، مما يسعد كل بلاد النصرانية .

---

(١٩٩) وهى مدينة فى تركيا وتعرف بعلى شهر .

(٢٠٠) هى الكونتس مارى ابنة هنرى كونت شمبانيا ، وأمها مارى ابنة فيليب اوجستوس ملك فرنسا .

(٢٠١) الواقع أن الذى جاءها بخبر تتويج زوجها إمبراطوراً هو بوهيمند الرابع صاحب أنطاكية الذى كان إذ ذاك فى صراع مع ليون ملك ارمينيا ، وأراد أن يزيد فى نكاية الملك الأرمنى فجاء إلى الكونتس وأعلن تبعية أنطاكية لها تزلفا إلى زوجها الامبراطور ، وكان هذا العمل من جانبه معطيا الأسرة الجديدة اللاتينية حقا شرعيا كان من قبل لبيزنطة ، وهو حق السيادة على أنطاكية .

٣١٨ - فلما سمعت السيدة هذا النبأ رأت المبادرة بالرحيل إليه ، غير أنها مرضت مرضا أدّى الى وفاتها ، فاغتم النصارى كلهم لموتها وتأسفوا عليها ، فقد كانت سيدة فاضلة وامرأة تقية موقرة .

وحمل من جاءوا معها الى الامبراطور بلدوين نبأ موتها فاشتد الكرب به وبالبارونات الذين كانوا يريدونها ان تكون سيدة مجتمعهم الاولى .

(٧١)
هزيمة تيودور لاسكاريس

٣١٩ - فى هذا الوقت كان الذين ذهبوا الى مدينة اسبيجال برياسة بطرس دى براسيو وبابين الأرليانى قد حصّنوا قلعة تدعى قلعة بالرمو Palermo وتركوا بها حامية من رجالهم ثم تقدموا هم لفتح البلاد ، فجمع تيودور لاسكاريس كل من استطاع جمعه من الناس ، حتى اذا كان يوم(٢٠٢) الاحتفال بعيد القديس نقولا السابق لعيد(٢٠٣) الميلاد التقى الجمعان المتحاربان فى السهل الواقع عند سفح قلعة يسمونها بيومانينون Poemaninon ولم تكن المعركة فى صالح جماعتنا لكثرة عدد الطائفة الأخرى كثرة عجيبة اذ لم يكن عندنا غير مائة وأربعين فارسا دون إشارة الى الخيالة .

٣٢٠ - لكن سيدنا اراد القتال بما يرضيه ، فقد تمكن الفرنجة برحمة الله وعونه من إنزال الهزيمة بالاغريق وتكبيدهم خسائر بالغة الفداحة ، حتى لقد دان لنا أغلب البلاد فى مدى أسبوع واحد ، فاستسلمت قلعة بيومانينون الحصينة ومدينة لوبيز التى كانت من أحسن مدن تلك الناحية وحذت حذوها فى الاستسلام مدينة بوليناك الواقعة على بحيرةٍ يستقى الناس منها الماء عذبا قراحا ، أما القلعة فكانت من أقوى وأحسن القلاع التى يمكن وجودها .

واعلم أن رجالنا سلكوا مسلكا رائعا وحققوا رغبتهم فى هذه الأراضى بمعونة الرب .

٣٢١ - بعد ذلك بقليل انصاع هنرى أخو بلدوين إمبراطور القسطنطينية لنصيحة الأرمن فخرج من مدينة آفى(٢٠٤) بعد أن ترك بها حامية من رجاله وركب إلى مدينة

---

(٢٠٢) وذلك يوم ٦ ديسمبر ١٢٠٤م (= جمادى الاول سنة ٦٠١هـ)

(٢٠٣) فى « شو » الذى يسبق عيد العذراء المبجلة .

(٢٠٤) دأبت نسختا « شو » و « مز » على كتابة « ابيدوس » مكانها .

تدعى « أندريميت » وهى تطل على البحر وتبعد عن مدينة آفى مسيرة يومين ، فخضعت له هى الأخرى فنزلها ، واستسلم له جزء كبير من البلاد التى حولها ، فوجد فيها وفرة كبيرة من الغلة والطعام والمؤونة ، ومن ثم شرع فى محاربة إغريق تلك النواحى وماتاخمها .

٣٢٢ – أما تيودور لاسكاريس الذى كان قد هزم فى بيومانينون فقد جمع أكثر من استطاع جمعه من الناس وحشد حشدا كثيفا من المحاربين ، وعهد بقيادتهم جميعا الى أخيه قسطنطين وكان من أحسن الاغريق فى رومانيا(٢٠٥) وركب هو بعدئذ قاصدا مباشرة مدينة اندريميت . وترامى الى علم هنرى – أخى الامبراطور بلدوين – عن طريق الارمن ان هناك جيشا يزحف عليه فاستعد لملاقاته ونظم صفوفه ، وكان فيهم جماعة من أحسن الرجال من أمثال بلدوين دى بلفوار ونيكولا دى ميللى وانو دى كايو وتيرى دى لوسى وتيرى دى بيتر موند .

٣٢٣ – فلما كان يوم السبت السابق للصوم الكبير ١٩ مارس ١٢٠٥ وقف قسطنطين لاسكاريس بجيشه الضخم امام اندريميت ، فلما عرف هنرى بمقدمه استشار كبار قادته وقال لهم لايجب أبدا ان يغلق على نفسه وجيشه فى المدينة حتى لاينكب ولكنه سوف يخرج لصد العدو ومقاتلته . ومن ثم تقدم البيزنطيون بكامل جندهم من الفرسان والمشاة الكثيرين ، فهب رجالنا لقتالهم ، وشرعوا فى محاربتهم وبدأت المعركة .

اشتد القتال شدة عنيفة بين الجانبين حتى لقد تماسكوا بالأيدى ، ولكن كانت الغلبة بفضل الرب للفرنسيين فظهروا على الاغريق وردُّوهم على اعقابهم خاسرين قد دبت الفوضى فى صفوفهم ، وراح الكثيرون منهم مابين قتيل وأسير ، وفاضت أيدى الفرنجة بالغنائم ، فاطمأن بالهم وكثرت الميرة عندهم كما جاءهم بها من انضموا إلى جانبهم من أهالى تلك النواحى .

(٧٢)
المركيز يهاجم سيجور وفلهاردوان ينضم اليه

٣٢٤ – لنترك الكلام عمن بالقسطنطينية ولنعد الى المركيز بونيفاس دى مونتفرات الذى ذهب كما علمت إلى سالونيكا ثم ركب من هناك لمحاربة ليون سيجور الذى كان

(٢٠٥) يقصد بها آسيا الصغرى .

قد احتل نابولى وكورنثه ، وهما من أشهر مدن العالم مَنَعَةً ، فحَاصرَهما بونيفاس فى وقت واحد ، وبقى جيمس دافينى – مع كثير من الرجال – امام كورنثة على حين عسكر الباقون امام نابولى وضربوا عليها الحصار .

٣٢٥ – والآن دعنى أقص عليك عن أمر وقع فى تلك الناحية فى نفس ذلك الوقت ، وأعنى ماجرى لجوفرى دى فلهاردوان الصغير ابن اخى جوفرى فلهاردوان الذى أصبح الآن مارشال رومانيا وشمبانيا ، ذلك أنه غادر بلاد الشام فى صحبة أولئك الذين وصلوا إلى القسطنطينية منذ قريب ، وشاءت المقادير أن تهب الريح قوية فتحمل السفينة التى كان بها الى مينا « مودون » وتعطب عطبا كبيرا ، حمله على قضاء الشتاء فى تلك الناحية ، وعرف خبره أحد كبار سادتها اليونان فجاء اليه وأكرم وفادته غاية الاكرام ، وقال له : « سيدى العزيز ، لقد فتح الفرنجة القسطنطينية ونصّبوا من بينهم امبراطورا عليهم ، فان حالفتنى عاملتك بكل اخلاص وخرجت أنا وأنت لفتح كثير من هذه الأراضى » .

ومن ثم تحالف اليونانى وجوفرى فلهاردوان مؤكدين اتفاقهما بالأيمان الغليظة ، وقاما بفتح قسم كبير من البلاد ، ووجد فلهاردوان(٢٠٦) فى حليفه الاغريقىّ رجلا كبير الوفاء .

٣٢٦ – لكن مشيئة الرب أجرت الأحداث على ماأرادت ، إذ مالبث الاغريقى ان مرض مرضا أسلمه الى القبر ، فحركت الخيانة ابنه ضد جوفرى فلهاردوان ، كما تمردت على جودفرى حامية كان قد أقامها بإحدى القلاع ، وحدث إذ ذاك أن سمع فلهاردوان الصغير بأن المركيز قائم على محاصرة نابولى فخف إليه باكبر عدد من الرجال استطاع جمعهم ، وظل راكبا بهم مدة ستة أيام وهو يقاسى الأخطار الجسام ، حتى بلغ معسكر المركيز الذى تلقاه هو ومن معه أحسن لقاء ، وأكرموا وفادتهم غاية الاكرام ، وكان محقا فى ذلك لأن جودفرى كان فارسا مغوارا ، ومحاربا باسلا .

(٧٣)
مغامرات فلهاردوان الصغير فى المورة

٣٢٧ – أراد المركيز أن يُقْطِعَ جوفرى فلهاردوان الصغير ارضا بالمال رجاء بقائه معه ، لكنه رفض عرضه وذهب إلى وليم دى شامبليت وكان من أعز أصدقائه وقال له :

---

(٢٠٦) هو فلهاردوان الصغير ابن أخى مؤرخنا صاحب هذه المذكرات .

« سيدى وليم ، لقد جئت من بلاد عظيمة الثراء وتدعى بلاد المورة ، فهيا اجمع من الرجال أكثر من تستطيع جمعه ، واترك هذا الجيش ، ولنذهب إلى تلك البلاد ونفتحها مؤملين فى عون الله ، وسأعتبر كل ماتمنحنى إياه من الأراضى التى أفتحها أنا وأَنْت اقطاعا منك يُلزمنى بالتبعية لك » .

واذ ذاك نهض وليم دى شامبليت الذى كان شديد الثقة بجوفرى فلهاردوان وعظيم الحب له ، ومضى الى المركيز واخبره بالقصة فسمح لهما المركيز بالذهاب(٢٠٧) .

٣٢٨ – ومن ثم ترك وليم دى شامبليت وجوفرى فلهاردوان الصغير الجيش ، وأخذا معهما قرابة مائة فارس وعددا كبيرا من الجنود الخيالة ودخلوا بلاد المورة ، وظلوا راكبين حتى دخلوا مدينة مودون ، وسمع ميخائيل بدخولهما المورة فى شرذمة ضئيلة ، فجنَّد حشدا كثيفا من الناس بلغ من الضخامة حدا عجيبا وساقهم أمامه سوقا يخيل معه لرائيهم أنهم أسراه وملك يمينه .

٣٢٩ – فلما سمعا بنبأ قدومه عليهما أعادوا ترميم حصون « مودون » التى كانت قد انهارت منذ أمد بعيد ، وتركوا بها أمتعتهم وجماعة لايعتد بهم ، وظلوا يتابعون زحفهم مدة يوم ، ثم نظموا صفوف من معهم ، ولم يكن لديهم أكثر من خمسمائة رجل من الخيالة ، على حين كان فى الجانب الآخر أزيد من خمسة آلاف خيال ، غير أن الاحداث جرت وفق مشيئة الرب ، إذ حارب رجالنا الاغريق وظهروا عليهم(٢٠٨) ، ومُنِىَ اليونان بخسائر فادحة ، على حين أصاب رجالنا غنيمة طيبة من السلاح والكراع والميرة وغير ذلك من الغنائم الضخمة ، ومن ثم عادوا إلى مدينة مودون يعلوهم البشر وتصفق فى قلوبهم الفرحة .

٣٣٠ – ثم ركب رجالنا بعدئذ إلى مدينة تدعى « كورون » على ساحل البحر وحاصروها ، فلم تثبت طويلا أمام الحصار بل سرعان مافتحت أبوابها عن طواعية ،

---

(٢٠٧) يلاحظ هنا أنه على الرغم من أن المركيز بونيفاس يعتبر تابعا إقطاعيا لبلدوين الأول إمبراطور المملكة اللاتينية ، إلا ان التماس فلهاردوان الصغير ووليم دى شامبليت من المركيز الاذن بفتح ارض جديدة فى اليونان يشير إلى أن مكانة بلدوين كإمبراطور لم تكن راسخة فى نفوس بعض الفرنجة ، ومن ثم نجد أن هناك امارات جديدة تظهر فى جنوب شبه جزيرة المورة لاتتبع الامبراطورية تبعية مباشرة بل يدين أمراؤها (وهم من الفرنجة) بولائهم لبونيفاس دى مونتفرات صاحب سالونيكا .

(٢٠٨) كان هذا بدء قيام امارة اخايا Achaia الفرنسية أو « أكايا » أو كما تسمى احيانا « موريا » ، وإذا قارنا بينها وبين غيرها من الامارات المستجدة وجدناها اقواها جميعا وأهمها ، وكانت فى الوقت ذاته أوربية الطابع ، ليس فيها شيء من الروح البيزنطية .

فأقطعها وليم[٢٠٩] لجوفرى الصغير الذى أصبح فصلا له ، وشحنها برجال من عنده .

ثم مضيا بعدئذ الى قلعة اسمها « شاليت » وكانت قلعة حصينة منيعة فحاصروها . ولكنها عزت عليهم زمنا طويلا فظلوا مقيمين على حصارها حتى فتحت أبوابها لهم اخيرا ، ممأادى الى استسلام عدد من الاغريق اكبر ممن استسلم من قبل .

(٧٤)
حصار نابولى وكورنث وتحالف الاغريق وجوهانيزا

٣٣١ – حاصر مركيز دى مونتفرات نابولى ولكنه لم يستطع عمل شيء ما هناك لشدة حصانة المكان ، وكابد رجاله كثيرا من المشاق ، وفى الوقت ذاته استمر جيمس دافين مقيما على حصار كورنثة منذ أن خلفه فيها المركيز .

أما ليون سيجور الذى كان فى كورنث والذى كان رجلا فطنا داهية فقد رأى قلة مَن فى صحبة جيمس دافين وضعف حراستهم ، ومن ثم فقد تخير فجر يوم خرج فيه من المدينة وتسلل إلى أطراف المعسكر وباغت الكثيرين من العسكر فأرداهم قَتْلى قبل أن يتمكنوا من امتشاق أسلحتهم .

٣٣٢ – وكان من بين القتلى « درو من أهل استروين » ، وكان رجلا معظما باسلا فاشتد البكاء عليه ، وتسعّرت نفس قائد الحامية جاك دافينى لمصرع فارسه فظل يقاتل حتى أصابه جرح خطير فى ساقه ، ويشهد الذى حضروا القتال يومذاك أنهم يدينون بالفضل فى سلامتهم إلى بسالته ، إذ يجب أن تعلم أنهم كادوا أن يهلكوا عن بكرة أبيهم ، ولكنهم استطاعوا بمعونة الرب أن يردُّوا بالقوة عسكر البيزنطيين على أعقابهم إلى القلعة .

٣٣٣ – اما الاغريق الذين كانوا مطبوعين على عدم الاخلاص فقد عَشَّشَتِ الخيانة فى قلوبهم وزكى عودها ، فلما رأوا أن الفرنجة موزعون فى شتى أرجاء البلاد لانشغال كل منهم بشئون نفسه ومافى يده ظنوا أن هذا أحسن وقت للغدر بهم ، فاختاروا سرا جماعة من الرسل من جميع مدن البلاد ، وبعثوا بهم الى جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا الذى كان منذ أمد بعيد ولازال فى حرب معهم ، ولوحوا له أنهم مُنَصّبُوه إمبراطورا

---

(٢٠٩) أى وليم شامبليت ، وقد أقطعه اياها بناء على الاتفاق المبرم بينهما والذى أشارت اليه هذه المذكرات فى الفقرة رقم ٣٢٧ . ويلاحظ هنا أن فلهاردوان الصغير أصبح تابعا اقطاعيا لوليم دى شامبليت الذى هو تابع اقطاعى للمركيز ، الذى كان هو ايضا تابعا لبلدوين ، وبذلك كان الاقطاع الاوربى واضحا كل الوضوح هنا ، ولم يكن معروفا على هذه الصورة فى بيزنطة الوطنية الامبراطورية .

عليهم وواقفون معه على بكرة أبيهم وفاتكون بالفرنجة والبنادقة أجمعين ، وأقسم هؤلاء الرسل له الايمان المغلظة نيابة عن الاغريق بالطاعة التامة له . على أن يلتزم هو بحمايتهم حماية ولى الأمر لرعيته ، فصادق الطرفان على هذا الاتفاق .

(٧٥)
الاغريق فى ديموتيقا وأدرنة وهزيمتهم فى أركاديا

٣٣٤ — حدث فى هذا الوقت بالقسطنطينية خطب جسيم ، فقد مات كونت هيج دى سنت بول الذى طال به داء النقرس وألح عليه حتى ألزمه الفراش ، فكان موته مدعاة حزن عميق ونكبة جسيمة ، وبكاه رجاله وأصدقاؤه أَحَرَّ بكاء ، ودُفن فى احتفال عظيم فى كنيسة القديس جورج دى مانيانا .

٣٣٥ — كان كونت هيج قد استولى فى حياته على قلعة ديموت[٢١٠] القوية الغنية وشحنها بطائفة من فرسانه وجنوده ، لكن ماكاد خبر موته يذاع حتى وثب اليونان عليهم وعلى من معه وفاءً بيمينهم التى قطعوها لملك ولاشيا على ان ينزلوا الضرر بالفرنجة ويقتلوهم[٢١١] ، ومن ثم كان وثوبهم الغادر عليهم فى تلك القلعة ، فأكثروا فيهم الذبح والاسر ، ولم ينج من الفرنجة الا القليلون الذين لاذوا بالفرار إلى مدينة تدعى ادرنة كانت فى يد البنادقة يومذاك .

٣٣٦ — ثم مالبث إغريق أدرنة أن تحركوا بالثورة وهرعوا إلى أسحلتهم وامتشقوها ، فغادر البلد القائمون بحمايته ومن به من رجالنا اذ أحدق بهم الخطر الداهم ، فلما سمع بخبرهم الامبراطور بلدوين وكونت لويس دى بلوا (وكانا بالقسطنطينية فى فئة قليلة) تبلبلت خواطرهما وخواطرُ من معهما وجزعوا جزعا ضاقت به عليهم المذاهب ، لاسيما وقد أخذت الانباء المحزنة تترى كل يوم مشيرة إلى ثورة اليونان فى كل فج ، وقَتْلِهم الفرنجة حراس البلاد أنَّى وجدوهم .

٣٣٧ — أما الذين تركوا أدرنة من رجالنا ومن البنادقة فقد جاءوا إلى مدينة اسمها « تشورلو » وكانت تابعة للامبراطور بلدوين ، فوجدوا وليم دى بلانفيل قائما على حراستها نيابة عنه ، فمد إليهم وليم هذا يد المساعدة وطمأن خاطرهم وأنهض معهم

---

(٢١٠) وقد يقال لها ايضا ديموتيكا .

(٢١١) راجع فقرة ٣٣٣ من هذه المذكرات .

طائفة كبيرة من رجاله ، ومن ثم استطاعوا العودة إلى مدينة تبعد عنه بمسافة تقرب من اثنى عشر فرسخا فى « اركاديا » التابعة للبنادقة فوجدوها خالية فدخلوها ، وأقاموا بها حامية منهم للدفاع عنها .

٣٣٨ — فلما كان اليوم الثالث تجمع إغريق تلك البلاد امام اركاديا عند انبثاق الفجر وأحكموا الحصار عليها ، ثم أخذوا يراوحونها بالغارات من كل جانب ، وكان هجوما ضاريا وحشيا ، فاستبسل رجالنا فى الدفاع عن أنفسهم ، ثم فتحوا الابواب واندفعوا منها بكل قواتهم على العدو يذيقونه كيف تكون ضراوة القتال ، ثم شاءت إرادة الرب أن تدور الدائرة على الاغريق حيث مضى رجالنا يتعقبونهم ويصرعونهم وطاردوهم مسافةً تقرب من فرسخ وقتلوا الكثيرين منهم ، وامتلأت أيديهم بما وقع فيها من الجياد والغنائم .

٣٣٩ — ومن ثم عاد الفرنجة إلى أركاديا مستبشرين بما أوتوا من فوز عظيم ، وبعثوا بأنباء نصرهم هذا إلى الامبراطور بلدوين بالقسطنطينية ، فامتلأت نفسه فرحا بما جرى . ولكن على الرغم من ذلك فإن جماعتنا الصليبية لم تستطع الاحتفاظ بمدينة أركاديا بل تركوها غداة الهجوم وعادوا الى مدينة شارلوت وقد استبد الفزع الاكبر بهم وتملكهم الشك ، لايطمئن جانبهم إلى اليونان ممن بداخل المدينة أو خارجها ، لأنّهم كانوا قد اشتركوا هم أيضا فى القَسَمِ لملك ولاشيا ، وأصبحوا ملتزمين بمعونته وخيانة الفرنجة الذين لم يجرؤ الكثيرون منهم على البقاء فى البلد فانفلتوا هاربين إلى القسطنطينية .

(٧٦)
الدعوة للزحف على أدرنة وحملة المؤلف

٣٤٠ — حينذاك أخذ الامبراطور بلدوين ودوج البندقية وكونت لويس يتشاورون فيما بينهم بعد أن رأوا أنهم يوشكون أن يفقدوا كل الأراضى التى فتحوها ، فانعقد إجماعهم على أن يأمر الامبراطور أخاه هنرى ، وكان فى ادرميت بالتخلى عن كل مافتحه والقدوم لنجدتهم .

٣٤١ — كما أرسل كونت لويس من جانبه إلى بابين الأرلياني وإلى بطرس دى براسيو وإلى جميع من معهما وكانوا فى « اولوباد »[٢١٢] يأمرهم بترك كل ماستولوا عليه من

---

(٢١٢) هذا هو اللفظ التركى لكلمة Lopadium القديمة .

ارض عدا مدينة سبيجال الساحلية ، بل يقيمون بها حامية للدفاع عنها ، اما هم فيبادرون بالمجىء الى القسطنطينية لنجدة من بها من الصليبيين .

٣٤٢ – كذلك طلب الامبراطور من ماكيز دى سنت مينهولد وماتيو دى والنكورث وروبرت دى رونسوى – وكانوا فى نيقوميديا فى قرابة مائة فارس – أن يتركوها وأن يعودوا لنجدتهم .

٣٤٣ – وخرج جودفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا ورومانيا من القسطنطينية امتثالا لأمر الامبراطور بلدوين مستصحبا معه ماناسيس الجزرى ومعهما أكبر عدد مستطاع من الرجال وإن كانوا جمعا ضئيلا ، وقد رأوا البلاد بأجمعها تضيع من أيديهم ، وركبوا إلى مدينة شيرلوت التى تبعد عن القسطنطينية مسيرة ثلاثة أيام ، فوجدوا بها وليم بلانفيل ومن معه فى أشد حالات الفزع الذى زال عن نفوس أكثرهم حين اطمأنت قلوبهم لمقدم فلهاردوان وجماعته ، فأقاموا بها مدة أربعة أيام ، ثم قام الامبراطور بلدوين فأرسل فى أعقاب جوفرى فلهاردوان كل من استطاع ارساله من الوافدين على القسطنطينية ، حتى إذا كان اليوم الرابع لاقامتهم فى شيرلوت بلغ عدد الفرسان ثمانين فارسا .

٣٤٤ – بعدئذ تقدم جودفرى فلهاردوان إلى الأمام هو ومناسيس الجزرى وجماعتهما ، وظلوا راكبين حتى بلغوا مدينة اركاديا وعسكروا بها مدة يوم واحد ثم رحلوا بعدئذٍ الى مدينة « برجاروفيل » التى كان الاغريق قد أخلوها ، فنزلها الفرنسيون يومهم هذا ، حتى إذا كانت الغداة زحفوا الى مدينة اسمها « نيكيس » وكانت رائعة الجمال خصبة ومجهزة بكل شيء ، فوجدوا أن الاغريق قد أخلوها هى الأخرى وذهبوا الى ادرنة التى تبعد عنهم مسافة تسعة فراسخ فرنسية وقد تجمع بها وجوه البيزنطيين وكبارهم ، فصمم الفرنجة على البقاء حيث هم حتى يفد عليهم الامبراطور بلدوين .

(٧٧)
رينيه يتركه ابنه ومعظم رجاله

٣٤٥ – والآن فإن هذا الكتاب يروى أحد الأحداث الخطيرة . ذلك أن رينيه دى تريت كان فى مدينة فيليبوبوليس التى تبعد عن القسطنطينية مسيرة تسعة أيام ، وكان معه مالايقل عن مائة وعشرين فارسا ، فتخلى عنه ابنه ريجنالد وأخوه جيل ، وابن أخيه

جاك دى بونديز وأكارد دى فيردان زوج ابنته ، وأخذوا معهم نحو ثلاثين فارسا من فرسانه للذهاب إلى القسطنطينية ، ولك أن تتصور مدى الخطر الداهم الذى تركوه فيه ، وكان ظن هؤلاء أنهم بالغو القسطنطينية فى أمان ودعة ، ولكنهم وجدوا أهل الناحية كلهم فى ثورة عارمة عليهم فحاربوهم ، فدارت عليهم الدائرة ووقعوا أسرى فى أيدى الاغريق الذين أسلموهم إلى ملك ولاشيا الذى مالبث أن أطاح رءوسهم جميعا .

واعلم أن الناس لم يحزنهم أمرهم كثيرا لأنهم سلكوا سبيلا ضالا إزاء رجل كانوا مرتبطين بخدمته .

٣٤٦ – ولما رأى بعض فرسان رينيه الآخرين أن قد تخلى عنه من هم أَحَقّ من غيرهم ومنهم بالتزام الوفاء له فقد زايلهم الخجل ، وانصرف عنه منهم قرابة ثمانين وسلكوا طريقا أخرى ، ومن ثم بقى رينيه دى تريت فى وسط كله من الاغريق وليس معه غير طائفة قليلة جدا لم تَعْدُ خمسة عشر فارسا يغشى بهم كل انحاء فيليبوبوليس ، فأقام فى استانيماك ، وكانت من أحصن قلاع الناحية التى وقعت فى يده ، ولكنه حوصر فيها حصارا طويلا .

(٧٨)
بلدوين يحاصر أدرنة

٣٤٧ – سنمسك الآن عن الكلام عن رينيه دى تريت ونعود إلى الامبراطور بلدوين الذى تركناه بالقسطنطينية فى فئة قليلة جدا وقد اشتد به الغضب والحزن ، وبقى بها فى انتظار أخيه هنرى وجميع رجالاته الذين على الجانب(٢١٣) الآخر من المضيق ، فكان أول القادمين عليه ماكير دى سنت مينيسهولا ، وماثيو دى والنكورت ، وروبرت دى رونسوى ، ومعهم مائة فارس جاءوا كلهم من نيقوميديا الواقعة على الساحل الآخر من المضيق .

٣٤٨ – فلما رآهم الامبراطور فرح بهم فرحا عظيما وأخذ فى مشاورة لويس الذى كان كونت بلوا وشارتر ، واتفقا على أن يزحفا من موضعهما هذا بالقسطنطينية بأكثر من يستطيعون من الرجال فى أعقاب جوفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا الذى سبقهم فى الخروج .

---

(٢١٣) يعنى بذلك الموجودين فى آسيا الصغرى .

لكن وآسفاه !! وياللخسارة الكبرى التى ترتبت على عدم تريثهم حتى ينضم إليهم جميع الموجودين على الجانب الآخر من المضيق ، لأنهم كانوا يعلمون قلة عددهم ، ويدركون خطورة المخاطرة التى يزمعون الاقدام عليها .

٣٤٩ – ومن ثم فقد خرجوا من القسطنطينية فيما يقرب من مائة وأربعين فارسا وتابعوا زحفهم حتى بلغوا حصن نيكليس حيث كان جوفرى المارشال معسكرا هناك ، وراحوا يتشاورون فيما بينهم تلك الليلة ، فاتفق رأيهم فى النهاية على أن يزحفوا غدا لمحاصرة أدرنا ، ومن ثم أخذوا فى تنظيم كتائبهم واستطاعوا بهذه القلة القليلة من الرجال أن يبلغوا أعظم مايتوقع منهم .

٣٥٠ – وماكادت شمس الغد تشرق حتى صاروا أمام أدرنة فوجدوها محصنة خير تحصين ، وأبصروا أعلام جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا تخفق فوق أسوارها وأبراجها ، وكانت المدينة قد بلغت الغاية : قوة وثراء وازدحاما بالسكان ، فلم يَثْنِهِم ذلك عن مهاجمتها بجمعهم القليل ، فهاجموها من ناحيتين ، وكان ذلك يوم الثلاثاء السابق لأحد الزعف(٢١٤) وظلوا أمامها ثلاثة أيام فى جهد شديد ومشقة بالغة بسبب ماكانوا فيه من العدد القليل .

(٧٩)
الحصار يستمر بلاجدوى

٣٥١ – ثم انضم إليهم هنرى داندولو – دوق البندقية – وكان كهلا عجوزا كفيفا(٢١٥) ، وعسكر أمام احد الأبواب وأحضر معه أكثر من استطاع جمعه من الرجال الذين كافأ عددهم عدد من قدموا صحبة الامبراطور بلدوين وكونت لويس معا .

فلما كان الغد انضمت اليهم فئة من الجنود الخيالة الذين أظهروا يومذاك من البراعة أعظم مما أظهروه فى أى يوم آخر ، ولم يكن مع الجيش من الذخيرة إلا الشىء التافه لعدم

---

(٢١٤) أى يوم ٢٩ مارس ١٢٠٥م ويقصد به فى تاريخ المسيحية الاولى يوم الأحد السابق لعيد الفصح ، وفيه يخرج المسيحيون فى مواكب كبيرة ، يحملون امامهم زعف النخيل إشارة إلى حمل المسيح عليه السلام اياه حين دخل مدينة القدس .

(٢١٥) قل ان تفوت فلهاردوان الاشارة (كلما ورد اسم الدوق) الى شيخوخته وكبر سنه وكف بصره ، وليس ذلك من قبيل الاطالة من فلهاردوان ، ولكن يعمد إلى ذلك قاصدا أن يصور للقارىء بسالة الدوق وإيثاره الصالح الصليبى العام ، حتى يقول القارىء لهذه المذكرات قد كان حريا بالدوق أن يقيم فى دعة لا أن يخرج للقتال ومتاعبه .

تمكن التجار من الحضور معهم ، ولعدم استطاعتهم هم أنفسهم أن يَعْتَادوا تلك النواحى طلبا للعلف ، وقد عاقهم عن ذلك انتشار الاغريق هناك انتشارا كبيرا .

٣٥٢ — كان جوهانيزا ملك ولاشيا قادما لنجدة من فى أدرنة ورفع الحصار عنها ، وكان الملك فى جيش شديد الكثافة لأنه جلب معه الولاشيين والبلغاريين وأربعة عشر ألفا من الكومان الذين لم يُعَمَّدُوا(٢١٦) ابدا . واضطر كونت لويس دى بلوا وشارتر ان يخرج فى طلب الكلأ ، وكان خروجه يوم أحد الزعف ... اضطرته لذلك ندرة مالديهم من المئونة والطعام ، وذهب معه ستيفن دى بيرش اخو جوفرى كونت دى بيرش ورينولد دى مونتميرابل أخو هوفيه دى نيفيز ، وجرفيس دى شاتل ، واكثر من نصف رجال الجيش .

٣٥٣ — فيمموا شطر قلعة يدعونها بيوتاكس Peutaces فوجدوا الاغريق قائمين بالدفاع عنها وتحصينها ، فهاجموها بقوة كبيرة وفى عنف شديد ، لكنهم لم ينالوا منها شيئا ما ، بل صمدت أمامهم صمودا حملهم على الارتداد على أعقابهم صفر الايدى من الغنائم ، وأقاموا اسبوع العيدين(٢١٧) يرتبون شتى انواع الالآت التى معهم ، وكلفوا واضعى الالغام بملغمة الأسوار ، وعلى هذه الصورة كان احتفالهم بعيد الفصح(٢١٨) أمام مدينة أدرنة ، وقد تضاءل عددهم وقلت ذخيرتهم .

(٨٠)
حضور ملك البلغار لانقاذ ادرنة

٣٥٤ — ثم جاءت الأخبار بأن جوهانيزا(٢١٩) ملك ولاشيا زاحف عليهم لتخليص المدينة ، فتأهّبوا لصده ، ورتبوا امرهم فيما بينهم ترتيبا وكلوا فيه إلى جوفرى المارشال ومناسيس الجزرى حراسة المعسكر ، وأن يخرج الامبراطور بلدوين وبقية رجال الحملة الصليبية إذا قدم جوهانيزا لمحاربتهم .

---

(٢١٦) يقصد بذلك أنهم لم يدخلوا المسيحية ، أما من كان منهم مسيحيا فإنه لايعتبر كذلك لأنه لم يُعمد ، والتعميد من أول واجبات التنصر .

(٢١٧) أى الاسبوع الممتد من احد الزعف حتى عيد الفصح .

(٢١٨) وقد وافق ذلك يوم ١٠ ابريل .

(٢١٩) ورد فى بعض المصادر والمراجع الموثوق بها باسم « كالوجان » .

٣٥٥ — ومن ثم فقد بقوا حيث هم حتى يوم الاربعاء[٢٢٠] من اسبوع عيد الفصح ، وكان جوهانيزا فى ذلك الوقت قد اقترب منا كل الاقتراب ، حتى إنه كان معسكرا على مسافة خمسة فراسخ منا ، وإذ ذاك بعث بعض من معه من جماعة الكومان يراوحون عسكرنا بالهجوم ، فنودى فى معسكرنا بحمل السلاح ، وانطلق رجالنا وقد اختلط الحابل بالنابل ، وأخذوا فى اقتفاء آثار الكومان مسافة فرسخ ، وكان ذلك منهم خطة غبية ، ذلك لأنهم حينما أرادوا الرجوع إلى قواعدهم أخذ العدو فى رميهم بسهامه رميا محكما شديدا ، وعطل بالجراح عددا كبيرا من جيادهم .

٣٥٦ — هكذا عاد رجالنا إلى المعسكر ، فاستدعى الامبراطور بلدوين إلى مخيمه البارونات ، وأخذوا يقلبون وجوه الرأى فيما بينهم ، فأجمعوا على أنهم ارتكبوا غلطة شنيعة فى تعقبهم قوما متخففين من السلاح ، ثم استقر الرأى أخيرا على أنه إذا جاء جوهانيزا مرة أخرى خرجوا وصفُّوا صفوفهم للحرب أمام المعسكر ، وقالوا إن الواجب يقتضيهم الانتظار وألا يتركوا أماكنهم هذه ، وأعلنوا بين الجند جميعا ألَّا يتجاهل أحد هذا القرار ، أو ينتقل من مكانه مهما طرق سمعه من صراخ وضجة ، كذلك اتفقوا على أن يقوم جوفرى المارشال مع مناسيس الجزرى بحراسة هذا الجانب من المدينة .

٣٥٧ — ومن ثم أمضوا تلك الليلة حتى صباح الخميس من أسبوع الفصح ، حيث حضروا سماع القداس وتناولوا القُرْبَان ، فجرى الكومان إلى خيمهم ، وارتفعت صرخة عالية فهبوا إلى أسلحتهم ، وانطلقوا من المعسكر صافِّين صفوفهم حسبما اتفقوا عليه من قبل .

(٨١)
هزيمة الصليبيين أمام البلغار ووقوع بلدوين فى اسرهم

٣٥٨ — كان كونت لويس أول الخارجين بكتيبته ، وبعث برسالة يستحث الامبراطور فيها للمجىء وراءه ، ثم شرع فى تعقب الكومان ... لكن واأسفاه !

---

(٢٢٠) أى يوم ١٣ ابريل ١٢٠٤م .

ماكان هناك أحد أقل من رجالنا فى الالتزام بالخطة التى اتفقوا عليها فى الليلة السابقة ، ذلك انهم بدلا من البقاء فى معسكراتهم خرجوا وراء الكومان يَقُصُّون آثارهم حتى بعدوا مسافة لاتقل عن فرسخين واشتبكوا معهم فى القتال وراحوا يطاردونهم ويتعقبونهم مسافة طويلة ، واذ ذاك ارتد عليهم الكومان وكروا عليهم كرة ضارية ، ونبلوهم بالسهام وهم يصرخون فى وجوههم صرخات تبث الرعب فى النفوس .

٣٥٩ — وكان بين كتائبنا قوم لادراية لهم بالحرب ولايحمل السلاح ، ومنهم من لم يتمرسوا طويلا بالقتال ولم يخوضوا المعارك من قبل ، ومن ثم طارت نفوسهم شعاعا حين حمى الوطيس واشتد بهم الفزع ، وانكسروا .

أما كونت لويس الذى كان أول من شرع فى الهجوم فقد جُرح جرحين بليغين ، وأخذ الكومان والولاشيون فى مهاجمة فِرَقِنا ، فوقع الكونت لويس من على جواده ، فترجل أحد فرسانه واسمه جون دى فريز عن حصانه واركبه اياه ، وقال كثيرون من رجال الكونت لويس له : « اذهب من هنا يامولانا وارجع الى المخيم لأن جراحك خطيرة وهى فى مكانين فى جسمك » . ولكنه أجابهم بقوله : « لو فعلت ذلك لَحَقَّتْ على غضبة الله ، لأنه سوف يلعننى ويعنفنى بأننى هربت من الميدان وتخليت عن سيدى الامبراطور » .

٣٦٠ — أما الامبراطور الذى كان فى كرب شديد فقد عاود استدعاء جماعته إليه وأخبرهم أنه لن يتراجع عن القتال ، وطلب إليهم البقاء معه !

ويشهد من حضر القتال يومذاك أنه لم يدافع فارس عن نفسه احسن من دفاع الامبراطور عن ذاته ، واستمرت هذه المعركة مدة طويلة ، واستبسل البعض أشرف استبسال يومئذ ، على حين انطلق آخرون فارِّين من المعركة ، وشاء الرب ان تحيق الهزيمة بنا ، وبقى فى الميدان الامبراطور بلدوين الذى لم يرض أبدا بالفرار وكونت لويس ، اما « بلدوين » فقد أَسَره العدو ، واما الكونت فقد وجد بين القتلى .

٣٦١ — وانكبتاه ! ماكان أعظم خسارتنا فى ذلك اليوم[٢٢١] !

لقد هلك يومذاك بطرس اسقف بيت لحم ، وستيفن دى بيرش اخو كونت

---

(٢٢١) راجع معركة ذلك اليوم بالتفصيل وصورة وقوع بلدوين فى الأسر وهلاك لويس كونت بلوا فى : J. Longnon: L'Empire latin de Constantinople et la principaute de Moreé, Paris 1949; pp 78 ff., Runciman: A History of the Crusades, Vol III. p. 127

وانظر ايضا رواية مشاهد العيان فى كلارى : فتح القسطنطينية ص ١٥٠ فقرة رقم ٢٣٧ .

جودفرى ، ورينو دى مونتميريل اخو كونت نيفير ، وماتيو دى والنكورت ، وروبرت دى رونسوى ، وجون دى فريز وولتر دى فيلكى وميزى دى اير ، واخوه جون ، واستاش دى هيمونت واخوه جون ، وبلدوين دى نيفيل وكثيرون غيرهم ممن لايتضمن أسماءهم هذا الكتاب ، أما الذين استطاعوا إلى الفرار سبيلا فقد انطلقوا خفافا إلى المعسكر .

(٨٢)
الصليبيون يرفعون الحصار عن ادرنة

٣٦٢ — جاء خبر هذه المصيبة إلى سمع جوفرى مارشال شمبانيا وهو قائم بحراسة أحد أبواب المدينة فخَرَج من معسكره بأسرع مايمكن بكل من معه من الرجال ، وأصدر أمره لمناسيس الجزرى الذى كان يقوم بحراسة أحد الأبواب الاخرى بأن يتبعه ، أما هو فقد ركب فى جميع من معه وأغذوا السير بأقصى سرعة وأحسن تنظيم ، وذلك لمقابلة اللاجئين الذين التفوا كلهم حوله ، وانطلق فى آثاره للانضمام إليه مناسيس الجزرى بكل رجاله بأسرع مافى قدرتهم ، ومن ثم تألفت من الاثنين فرقة قوية ، ثم ضَمّا إلى صفوفهما كل من عاد من الهزيمة ومن حِيلَ بينهم وبين الفرار .

٣٦٣ — وقعت هذه الكسرة مابين الظهر والغروب ، وكان الجانب الأغظم من الهاربين جد مذعورين ، قد استبد بهم الهلع ففروا وانقلبوا إلى الخيم والمعسكرات . وبذلك انتهت هذه الهزيمة كما علمت حين كف الكومان — ومعهم الولاشيون والاغريق — عن مطاردتهم ، ولكن هؤلاء الآخرين مازالوا ينقضُّون على رجالنا بسهامهم وقسيهم ، وظل رجالنا يطالعوننا بوجوههم ولايتحركون ، واستمر الجانبان على هذه الصورة حتى أرخى الليل سدوله حيث أخذ الكومان والولاشيون فى الارتداد .

٣٦٤ — بعدئذ قام جودفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا ورومانيا فبعث برسالة إلى دوج البندقية بالمعسكر وكان — رَغْمَ كهولته وكف بصره[٢٢٢] — حكيما فاضلا وشجاعا صنديدا — يسأله فيها الحضور إليه حيث يقف هو ورجاله فى المعركة ، فاستجاب الدوج إلى سؤاله ، فلما رآه المارشال دعاه للتشاور معا على انفراد وقال له :

---

(٢٢٢) راجع حاشية رقم ٢١٥ فيما سبق .

« ياسيدى الدوج : هاانت ذا ترى النكبة التى أَلَمَّتْ بنا ، لقد فقدنا الامبراطور بلدوين وكونت لويس والقسم الأكبر من رجالنا ، وكذلك طائفة كبرى من أحسن مَن فى صفوفنا من المحاربين الأشاوس ، فدعنا نقلب الأمر بيننا ونتدبر كيف ننقذ البقية الباقية منهم ، لاننا لابد هالكون عن بكرة أبينا إن لم يتحنن علينا الرب برحمته » .

٣٦٥ — وتَمَّ الاتفاق فى النهاية على ان يعود الدوج الى المعسكر ويعمل على تقوية عزائم الناس ، ويأمر كل محارب ان يلبس لامته ، ويحمل سلاحه ، ويبقى فى معسكره لايبرحه حتى يصدر إليه الأمر .

اما جوفرى المارشال فيقف وجنده أمام معسكرهم وقد رتبوا صفوفهم ترتيبا يحسبه الناظر أنهم خارجون للقتال ، فاذا أرخى الليل سدوله ولف المساء الكون فى طياته رحلوا عن المدينة وقد سبقهم دوج البندقية ، ومن بعده جوفرى المارشال ورجاله .

(٨٣)
ارتداد الصليبيين

٣٦٦ — أقام الجيش فى انتظار دخول الليل ، فلما جاء الليل غادر دوج البندقية المعسكر حسب مااتفق عليه من قبل ، ثم تبعه من بعده جودفرى المارشال ، وساروا فى خطى بطاء واستصحبوا جميع من معهم من الرجال مشاة كانوا أم خيالة ، وكذلك الجرحى والأصحاء ، لم يتركوا أحداً ماوراءهم ، ويمموا وجههم شطر مدينة واقعة على البحر اسمها « رودستو » وهى على مسيرة ثلاثة ايام كاملة من أدرنة .

وهكذا رحلوا من أدرنة كما علمت ، وقد حدثت هذه المخاطرة فى عام ألف ومائتين وخمس من مولد عيسى المسيح .

٣٦٧ — وحدث فى الليلة التى غادر الجيش فيها أدرنة أن انفصلت فئة من الجيش عنا أملا منها فى ان تصل الى القسطنطينية فى وقت مبكر ، ومضت قدما غير ملقية بَالًا إلينا ، فسلقها الناس بألسنة حداد ، وكان فى هذه الطائفة احد كونتات لمبارديا واسمه جيرار[٢٢٣] ، جاء من املاك المركيز دى مونتفرات ، وصحبه فى هذا الهروب أوتو دى هام من فيرماندوا وجون دى ماسيرول ، وانضم إليهم مايقرب من خمسة وعشرين فارسا يأبى هذا الكتاب أن يورد أسماءهم .

---

(٢٢٣) سقط اسمه من ترجمة « شو » .

٣٦٨ – أغذَّ هؤلاء الرجال السير الذى تعجلوه إثر الاندحار الذى نزل برجالنا مساء يوم الخميس ، وأسعفتهم السرعة فدخلوا القسطنطينية مساء السبت ، رغم أنها رحلة تستغرق فى العادة خمسة أيام ، وافضوا بنبأ ماحدث إلى الكردينال دى كابوا الذى كان موجودا هناك بأمرٍ من بابا روما وإلى كونون دى بيثون القائم بحراسة المدينة وإلى ميلز البرابانتى وإلى غيرهم من الافاضل الموجودين بها . الذين يجب أن تعلم ان الالم المُمِضّ قد ارمضهم لسماعهم هذا النبأ السيء ، واعتقدوا ان البقية الباقية الموجودة امام ادرنة لابد وان تكون قد هلكت عن بكرة أبيها ، ورَسَّخَ فيهم هذا الاعتقاد عدمُ وصول اخبار منهم اليهم .

(٨٤)
بطرس وباين يقابلان الجيش المرتد

٣٦٩ – اما الآن فسوف لانذكر شيئا عمن كانوا فى قلق شديد بالقسطنطينية ، ولكنا نعود إلى دوج البندقية وجودفرى المارشال اللذين ظلا سائرين ومن معهما طوال تلك الليلة التى غادروا فيها ادِرْنة حتى فجر اليوم التالى حيث بلغا مدينة اسمها « بانفيل » .

واصغ الآن الى لتسمع الأحداث التى قضت بها ارادة الرب .
لقد أمضى الليل فى تلك المدينة بطرس دى براسيو وباين الأرليانى وجميع الرجال القادمين من بلاد كونت لويس ومالايقل عن مائة من أحسن الفرسان ، ومائة وأربعين من الجنود الخيالة ممن جاءوا من الجانب الآخر من المضيق عساهم ينضمون إلى الجيش فى أدرنة .

٣٧٠ – فلما رأوا الجيش قادما خفوا سراعا إلى أسلحتهم ظنا منهم أنهم بيزنطيون . واستعدوا للقتال ، ثم بعثوا بربيئة من لدنهم تستطلع من تكون هذه الجماعة القادمة ، وأى جماعة هى ، فاكتشف رسلهم أنها الطائفة التى لاذت بأذيال الفرار بعد الهزيمة وهاهى ذى قد عادت لتخبرهم بوقوع الامبراطور بلدوين فى الأسر وانه فى عداد المفقودين ، وأعلموهم بما حل بمولاهم كونت لويس وكانوا من بلده ومن أتباعه .

٣٧١ – لم يكن ثم نبأ أفجع وقعا على سمعهم ونفوسهم من هذا النبأ ، فكنت ترى الدموع وقد انهمرت انهمارا ، وأخذوا يعصرون أكفهم حزنا وأسى ، وساروا جميعهم فى طريقهم وهم فى كامل عدتهم حتى جاءوا إلى حيث كان جوفرى فلهاردوان مارشال

شمبانيا قائما بحراسة مؤخرة الجيش ، فوجدوه فى أقصى حالات القلق والاضطراب لأن جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا كان قد جاء عند انبلاج الصباح إلى أدرنة فى كل جنده وكتائبه ، فلما وجد المدينة خالية من رجالنا لمغادرتهم إياها من قبل حضوره ركب فى آثارهم وظل يغذ السير ، حتى إذا انتصف النهار ولم يعثر لهم على أثر اشتد حزنه .
والحمد للرب العلى أنه لم يجدنا ، إذ لو وجدنا لكنا من الهالكين إلى الأبد .

٣٧٢ — وحينذاك قال بيتر دى براسيو وباين الأرليانى إلى جوفرى المارشال : « مولانا : ماذا تريد منا أن نعمل ؟ إننا رهن إشارتك ؟ » .
فأجابهما المارشال : « هاأنتما تريان ماآلت إليه أمورنا وكيف سارت الأمور معنا ، ولما كنتما نشيطين غير مجهدين وكذلك الشأن إزاء جيادكما فهلا قمتما مكانى بحراسة المؤخرة لأذهب أنا إلى الطليعة التى سبقتنا من رجالنا الذين استبد بهم اليأس حتى راحت نفوسهم شعاعا ، وأصبحوا فى مسيس الحاجة إلى كلمة تشد أزرهم وتثبت جنانهم ، فأعيدهم إلينا ؟ » .
فاستجابا له عن رضا وطيب خاطر ، وذهبا فى الحال الى المؤخرة وقاما بحراستها خير قيام ، لأنهما كانا فارسين بارعين ورجلين شريفين يتمسكان بالوفاء بما يقولانه .

(٨٥)
وصول الجيش الى رودوستو

٣٧٣ — ركب جوفرى المارشال فى المقدمة وقاد رجال الحملة الذين ظلوا يزحفون حتى بلغوا مدينة اسمها « كريوبوليس » ، فلما رأوا الجياد وقد أنهكها التعب ، واستبد بها الجهد بسبب سيرها طول الليل دخلوا المدينة وناموا بها ، حتى اذا كانت الظهيرة استيقظوا ونهضوا فقدموا العلف لخيولهم ، وأكلوا هم انفسهم ماقدّرَ لهم أن يجدوه ، وإن كان الذى وجدوه قليلا جدا .

٣٧٤ — وأقاموا طول يومهم حتى المساء بهذه المدينة ، ولما كان جوهانيزا ملك ولاشيا قد ظل فى آثارهم يتعقبهم طول اليوم بكل قواته ، ولما كان قد عسكر على بعد فرسخين منهم ، فإنهم وجميع المحاربين الذين بالمدينة حملوا سلاحهم ، وماكاد الليل يدخل حتى رحلوا عنها ، وكان على الطليعة المقدّمة جوفرى المارشال فسار بها ، وسارت المؤخرة خلفه وظلوا راكبين ليلتهم هذه واليوم التالى[٢٢٤] وهم فى خوف شديد

(٢٢٤) أى يوم ١٦ ابريل .

وضيق عظيم ، حتى بلغوا مدينة « رودوستو » وهى مدينة منيعة غنية ، غاصة بالاغريق الذين لم تواتهم الشجاعة فى الدفاع عن أنفسهم ، فدخلها رجالنا وعسكروا بها وأمنوا فيها على أنفسهم .

٣٧٥ – على هذه الصورة كانت – كما علمت – نجاة الصليبيين فى أدرنة ، وحينذاك عقد مجلس فى مدينة رودوستو ، وقرر المجتمعون أن خوفهم على القسطنطينية أكثر من خوفهم على أنفسهم ، ومن ثم التمسوا جماعة من الرسل بعثوهم بحرا وأمروهم بمتابعة سفرهم ليلا ونهارا ، حتى إذا بلغوا المدينة نصحوا من بها ألا تضطرب نفوسهم خوفا أو لايحزنوا ، إذ أنهم عائدون إليهم على جناح السرعة فكتبت لهم النجاة .

(٨٦)
سبعة آلاف حاج مسيحى يهجرون الحملة

٣٧٦ – فى الوقت الذى وصل فيه الرسل إلى القسطنطينية كان بها خمس سفن من سفن البنادقة الضخمة الرائعة ، محملة بجمهور غفير من الحجاج والفرسان الذين أزمعوا مغادرة هذه البلاد والعودة إلى أوطانهم ، وكان منهم بهذه السفن الخمسة قرابة سبعة آلاف رجل مسلح من بينهم وليم نائب بيثون وبلدوين دوبيجين وجون دى فرسين الذى كان من بلد كونت لويس ومن أتباعه الاقطاعيين ، هذا الى جانب مائة فارس آخرين او يزيدون ممن لا يتضمن هذا الكتاب أسماءهم .

٣٧٧ – حينذاك نهض بطرس دى كابوا الكاردينال الذى عَيَّنَهُ انوسنت بابا رووما وكونون دى بيثون الذى كان قائما بحراسة القسطنطينية وميلز البرابانتى وعدد كبير من أعيان القوم وانطلقوا ، الى السفن الخمسة مستصرخين مَن بها – بين الآهات والدموع – ومتوسلين اليهم أن ترق قلوبهم عطفا على النصرانية ورحمة بها وبساداتهم الذين فقدوا حياتهم فى المعركة ويسألونهم أن يدعوا الرحل جانبا ويبقوا معهم محبة فى الرب وفى سبيل نصرته ، ولكنهم لم يصيخوا السمع لكلمة واحدة ، بل انطلقت بهم سفنهم وغادروا الميناء وساروا فى طريقهم كمارسم الرب ، فدفعتهم الريح إلى ميناء رودوستو ، وكان ذلك فى اليوم التالى(٢٢٥) لليوم الذى جاء فيه من قُدِّرَتْ لهم النجاة من الاندحار .

---

(٢٢٥) أى يوم ١٧ ابريل .

٣٧٨ - أخذ من فى رودوستو يتوسلون إليهم باكين ذارفين الدموع كما فعل الذين من قبلهم معهم بالقسطنطينية ، وطلب إليهم جوفرى المارشال وأصحابه أن تأخذهم الشفقة بالبلاد فيبقو حيث هم لأنهم لم يعودوا أبدا قادرين على إنقاذ أية ارض فى مثل هذه الحاجة الملحة ، فأجابوه بأنهم سيتشاورون فيما بينهم وسوف يردون عليهم غدا .

والآن استمع الى ماجرى فى تلك الليلة بهذه المدينة .

٣٧٩ - كان هناك فارس من مقاطعة كونت لويس اسمه بطرس دى فروفيل ، وكان يتمتع بشهرة مدوية واسم شريف ، ولكنه هرب تحت جنح الظلام وخلّف وراءه كل متاعه ورجاله ، وركب سفينة جان دى فيرسان الذى كان هو الآخر من مقاطعة لويس كونت بلوا وشارترز .

أما الذين كانوا بالسفن الخمس والذين اتفقوا على أن يوافوا جوفرى المارشال ودوج البندقية فى الصباح بما استقر رأيهم عليه فإنهم ماكادوا يطالعون تباشير النهار حتى فردوا قلاع سفنهم وانطلقوا بها راحلين ، لم يكلموا أحداً ولم ينطقوا ببنت شفة ، فلامهم من كانوا هنا ومن كانوا بالنواحى التى مروا بها أشد اللوم ، وكان بطرس دى فروفيل أكثر القوم الذين سلقهم الناس بألسنة حداد ، واشتدوا فى تقريعهم ، لأنه كان أسوأ مشير وأفسد ناصح ، حمله جبنه وخوفه من الهلاك على ماستحق به المعرة إلى الأبد .

(٨٧)
الاجتماع الصليبى العام والمناداة بهنرى وصيا

٣٨٠ - والآن لن أحدثك عن هؤلاء ولا عن الجيش الذى كان مرابطا عند رودوستو ، ولكن سوف أقص عليك ماكان من خبر هنرى أخى بلدوين إمبراطور القسطنطينية الذى ترك اندريميت - وكان قد فتحها من قبل - وعبر البسفور مسرعا عند مدينة « أفى » فى طريقه إلى أدرنة لنجدة أخيه الامبراطور بلدوين ، وصَاحَبَه فى هذا الخروج أرمن تلك البلاد الذين وقفوا إلى جانبه ضد الاغريق كراهية منهم لهم ، وقد قرب عددهم من عشرين ألف أرمنى ومعهم نساؤهم وأطفالهم إذ لم يجسروا على البقاء - حيث هم - من بعد رحيله .

٣٨١ - جاء بعدئذ إلى هنرى جماعة معينة من الاغريق الذين قُدِّرت لهم النجاة إثر الهزيمة التى حاقت بجيشنا ، ونعوا إليه مَصْرَع أخيه الامبراطور بلدوين وهلاك الكونت

لويس وغيره من البارونات ، ثم وافاه بعدئذ نبأ الذين كانوا فى رودوستو ولكن قُيِّضت لهم النجاة وسألوه أن يَهُبَّ إلى نجدتهم على جناح السرعة .

ولما كان الكونت هنرى أحرص مايكون على أن يصل إليهم مبكرا ماأمكنه البكور ، فقد ترك وراءه الأرمن الذين مضوا فى إثره مشاة مستصحبين معهم عرباتهم التى حمَّلوها متاعهم ونساءهم وأطفالهم ، وإذ كان الكونت يدرك أنهم لن يستطيعوا مجاراة من معه فى سرعة الزحف ، ويظن أنهم سوف يكونون آمنين على أنفسهم ومامعهم فى سفرتهم هذه لايعرض لهم خطر فى الطريق ، فقد أَغَذَّ هو السير فسبقهم حتى بلغ قرية اسمها « كارتوبوليس » فعسكر عندها .

٣٨٢ – وجاء فى هذا اليوم ذاته أنسو دى كورسيل ابن أخى جوفرى المارشال ، وكان مجيئه استجابة لطلب عمه الذى بعث إليه يستقدمه من بلاد « ماكريه » و « تريونوبوليس » و « باى » التى كانت كلها إقطاعا له وملك يمينه ، وانضمت إليه فى هذا القدوم جماعة من ارض فيليبوبوليس كانت قد تَخَلَّت من قبل عن رينيه دى تريت ، وهى مؤلفة من مائة فارس من الفرسان الأشاوس وخمسمائة جندى خيالة ، خرجوا كلهم ميممين شطر ادرنة لنجدة الامبراطور بلدوين .

٣٨٣ – لكن وافتهم الأخبار – كما وافت الآخرين – أن دائرة السوء قد دارت على الامبراطور ومن معه لذلك اتجهوا إلى رودوستو ، وبلغوا فى مسيرهم قرية كارتوبوليس ، فأرادوا النزول بها وضرب مخيماتهم هناك ، وكان معسكرا بها إذ ذاك هنرى أخو الامبراطور بلدوين ، فلما رآهم رجال هنرى(٢٢٦) قادمين عليهم ظنوهم يونانا ، وظن الآخرون بهم نفس الظن ، ومن ثم تقدم كل من الجانبين نحو الآخر لمواجهته وقتاله ، فلما تبين كل منهم حقيقة صاحبه ، خفقت القلوب بالفرحة ، وشعر الجميع بالسلامة ، ورفرفت عليهم الطمأنينة ، وأقاموا ليلتهم هذه فى تلك القرية .

٣٨٤ – فلما كانت الغداة غادروا « كارتوبوليس » وركبوا قاصدين مدينة رودوستو التى بلغوها ليلا ، فوجدوا بها دوج البندقية وجوفرى المارشال وجميع من نجوا من القتل يوم دارت الدائرة على الصليبيين ، وفرحوا لرؤيتهم إياهم ، وذرفوا الدموع السخينة حزنا على من هلك من أصحابهم .

يارباه !

---

(٢٢٦) فى « مز » : « رجال بلدوين » وهو خطأ وقع فيه المترجم ، وذلك لاقتصار الاصل على كلمة « رجاله » فظن المترجم الضمير هنا عائدا على بلدوين .

يالشقوة الصليبيين أن لم يكن هؤلاء الرجال المجتمعون الآن موجودين فى أدرنة مع الامبراطور بلدوين !! ، فلو كانوا هناك لما هلك أحد ، ولكنها إرادة الرب ، شاء ماشاء فلم يكن إلاّ الذى شاءه .

٣٨٥ — أقام الجميع فى رودوستو اليوم التالى ومابعده ، وأخذوا فى معالجة أمورهم وتدبير حالهم ، فساقوا الوصاية والحكم فى الامبراطورية إلى هنرى مكان أخيه الامبراطور بلدوين .

أما الأرمن الذين كانوا قادمين وراء هنرى أخى الامبراطور بلدوين فقد أَلَمَّتْ بهم نكبة نكباء ، حين تجمّع سكان تلك الناحية التى كانوا يمرون بها وهاجموهم من كل حدب وصوب ، وأحدقوا بهم إحداقا راح الأرمن معه مابين أسير وهالك .

(٨٨)
الرجوع إلى العاصمة والاستنجاد بالبابا وبفرنسا وموت دوج البندقية

٣٨٦ — كان جوهانيزا ملك والاشيا وبلغاريا قد استصحب معه كل محاربيه ، واحتل جميع المنطقة ، واستسلمت له البلاد والمدن والقلاع قاطبة ، واجتاح أصحابه الكومان كل مافى طريقهم من الأراضى حتى بلغوا القسطنطينية ، وكان هنرى وصى الامبراطور ودوج البندقية وجوفرى المارشال لايزالون فى رودوستو التى تبعد عن القسطنطينية رحلة قدرها ثلاث مراحل ، فتشاوروا فيما بينهم ، واستقر رأيهم على أن يقيم الدوج حامية من البنادقة فى رودوستو لأنها كانت تابعة لهم ، وأن يهيئوا باقى قواتهم ، حتى إذا كان الغد ركبوا قاصدين القسطنطينية .

٣٨٧ — فلما بلغوا مدينة « سلمبريا » الواقعة على مسيرة يومين من القسطنطينية والتابعة للامبراطور بلدوين أقام أخوه هنرى دى فلاندرز بها شحنة من رجاله لحراستها ، وأغذ الباقون السير حتى بلغوا العاصمة ، فتلقاهم من كان من الصليبيين بالفرحة الغامرة ، بسبب ماكانوا فيه من هلع استبد بنفوسهم ، ولاعجب فى ذلك لأنهم فقدوا جميع البلاد الواقعة فيها وراء القسطنطينية ماعدا رودوستو وسلمبريا ، كما وقع معظم الاقليم فى يد جوهانيزا ملك والاشيا وبلغاريا ، كما انه لم يعدلهم على الجانب الآخر من مضيق الدردنيل سوى قلعة إسبيجال . أما بقية الاقليم فكانت فى يدى تيودور لاسكاريس .

٣٨٨ – أجمع البارونات عزمهم بعدئذ على أن يبعثوا إلى إنوسنت بابا روما وإلى فرنسا وإلى فلاندرز وإلى بقية الأقطار الأخرى فى طلب النجدة ، وعهدوا بهذه المهمة الى نيفيلون أسقف سواسون ونيقولا دى ميللى وجون بليود رسلا من لدنهم إلى من ذكرنا ، وأقام الباقون فى القسطنطينية فى كرب شديد خوفا من ضياع الاقليم كله وسقوطه فى أيدى عدوهم . وطال بقاؤهم حيث هم حتى عيد العنصرة(٢٢٧) .

* * *

وألمت بهم فى هذه الآونة داهية دهياء إذ مرض هنرى دندولو مرضا مالبث أن هلك فيه ، فخرجوا فى احتفال كبير وأودعوا جثمانه قبرا فى كنيسة أياصوفيا(٢٢٨) .

٣٨٩ – وماحل يوم عيد العنصرة حتى كان جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا قد حقق مايطمع فيه فى تلك البلاد الا ماكان من جماعة الكومان الذين لم يستطع كبح جماحهم ، وفشل فى السيطرة عليهم ، فانفصلوا عنه وانقلبوا عائدين إلى ديارهم لما يعرفونه فى أنفسهم عن عجزهم عن القتال فى فصل الصيف الحار . حينذاك زحف(٢٢٩) جوهانيزا بمن معه من البلغاريين والاغريق على سالونيكا لقتال المركيز الذى كان قد ذهب إليها بعد رفعه الحصار عن نابولى إثر سماعه باندحار الامبراطور بلدوين ، وكان المركيز قد ذهب الى سالونيكا بأكثر من استطاع جمعه من الرجال ، وشرع فى حمايتها والدفاع عنها .

---

(٢٢٧) وذلك يوم ٢٩ مايو ١٢٠٥م .

(٢٢٨) يورد المؤرخ الروسى فازيلييف (بناء على رواية وردت عند أحد المؤرخين الالمان) إنّ جثمان هنرى داندولو ظل مدفونا فى هذه الكنيسة حتى الفتح العثمانى للقسطنطينية عام ١٤٥٣ ، إذ يقال إن السلطان محمد الفاتح أمر بالنبش عنه وإخراجه ، وهى رواية لاندرى مدى الصحة فيها ، راجع Vasiliev: History of the Byzantine Empire, Vol II, p.510 & note II.

(٢٢٩) يشير هذا الزحف إلى ان جوهانيزا أصبح صاحب السلطة الحربية فى كثير من ارجاء المملكة اللاتينية أو كما يقول احد المؤرخين ان مستقبل إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية أصبح لفترة معينة منذ ذلك التاريخ « اى هزيمة الصليبيين فى ادرنة » فى يد الملك البلغارى . انظر : Vasiliev: op. cit. loc. cit. d'aprés H. Jelzer: Abriss der Byzantinischen Kaisergeschichte, p. 1042.

(٨٩)
انتصارات الوصى على الاغريق
الملك البلغارى يقبل استسلام سيريس

٣٩٠ – زحف هنرى أخو بلدوين امبراطور القسطنطينية بأكبر عدد استطاع جمعه من الرجال على البيزنطيين فى مدينة اسمها « شيرلون » تبعد عن القسطنطينية بمسافة ثلاثة أيام ، فاستسلمت له المدينة وأقسم له إغريقها يمين الطاعة ، لكنهم لم يكونوا بالقوم الذين يحترمون اليمين التى يقطعونها فى ذلك الوقت .

ثم زحف هنرى من شيرلوت إلى اركاديا فوجدها خالية ، إذ لم يجسر الاغريق على البقاء فيها مخافة قدومه عليهم ، فركب منها مرة أخرى إلى مدينة بيزيه فاستسلمت له هى أيضا رغم شدة حصانتها وكثرة من بها من الاغريق الموكول إليهم الدفاع عنها .

ثم ركب بعدئذ إلى مدينة « ابروس »[٢٣٠] التى كان البيزنطيون قد شحنوها بالرجال والمقاتلين دفاعا عنها .

٣٩١ – وبينما كان رجالنا على وشك الاغارة عليها إذا بمن فيها من اليونان يبعثون سفارة من جانبهم إلى رجالنا لمفاوضتهم فى تسليمهم إياها ، على أنه حدث فى اثناء المفاوضات أن تمكن رجال الجيش من دخول المدينة من الجانب الآخر دون أن يعرف هذا الخبر هنرى وصى الامبراطورية ، أو اولئك الذين كانوا يفاوضونه ، وجَرَّ هذا الدخول أفظع النوائب على الاغريق ، إذ عمد الفرنجة الذين انسلوا الى المدينة إلى ذبح سكانها اليونان والاستيلاء على مالهم من متاع وتجارة ، ونهبوا كل ماوصلت إليه أيديهم ، وهكذا هلك الكثيرون من الاغريق الذين كان من سلم منهم القتل وقَعَ فى الأسر .

وعلى هذا المنوال تم الاستيلاء على مدينة ابروس ، واستباحها الجيش مدة ثلاثة أيام هى مدة إقامته بها ، وأنزلت هذه المذبحة الخوف فى نفوس أهلها اليونان فغادروا جميع مدن الاقليم وقلاعه ، وفرّوا ملتمسين النجاة فى مدينتى أدرنة وديموت المنيعين العظيمتين .

---

(٢٣٠) هذا اسم اخر لمدينة نابلى Napoli التى صادفناها كثيرا فى هذه المرحلة من الحرب .

(٩٠)
الملك البلغارى يقبل استسلام سيريس ثم يَغْدُر بالمستسْلمين

٣٩٢ – حدث فى هذه الاثناء أنْ زحف جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا بجميع جيشه ضد المركيز تجاه مدينة يسمونها « سيريس لاسيرا » التى كان المركيز قد أقام فيها حامية قوية ، عهد بها للفارس العظيم ذى المنزلة الرفيعة « هيج كوليمى » ، وجعل معه مارشاله وليم آرليس وجماعة من أحسن رجاله ، فحاصرهم جوهانيزا ملك ولاشيا ولم يقم طويلا على حصار الضاحية إذ مالبث أن استولى عليها بالقوة لأنّ هيج دى كوليمى كانت قد أصابته ضربة فى عينيه أودت بحياته .

٣٩٣ – فلما قتل هيج – وكان أحسن الجميع – استشعر رجال الحامية الخوف المفزع فارتدُّوا إلى الحصن الذى كان شديد المناعة ، فحاصرهم جوهانيزا به ونصب آلات رميه ومجانيقه ، فلم يطل أمد محاصرته إياهم إذ بادروا إلى مفاوضته فى الاستسلام الذى لامهم الناس من أجله فيما بعد ، وعنَّفوهم عليه أشد التعنيف ، وقبلوا هم ان يسلموا القلعة لجوهانيزا الذى أمر بأن يبرز اليهم خمسة وعشرون من أعظم رجالاته مرتبة ، وأرفعهم مكانة ، ليقسموا لهم اليمين بالمحافظة عليهم هم وخيولهم وجميع أسلحتهم وأمتعتهم فى خروجهم إلى أى واحدة شاؤوها من البلاد الثلاثة : سالونيكا أو القسطنطينية أو المجر .

٣٩٤ – هكذا استسلمت مدينة لاسيرا ، وإذْ ذاك أمر جوهانيزا باخراج المدافعين عنها من القلعة وان يقيموا على مقربة منه[٢٣١] فى الصحراء ، وعاملهم معاملة طيبة فى بادىء الأمر ، حتى لقد وصلهم بكثير من الهدايا ، وظل مقيما على هذا الوضع معهم ثلاثة أيام وهو لاينفك عن رعايتهم الرعاية الجميلة ، ثم انقلب عليهم كدأبِه على الغدر ، ناكثا عهوده التى قطعها على نفسه لهم ، فأمر بإلقاء القبض عليهم ، وسلبهم كل مالديهم من متاع ، وساقهم إلى ولاشيا عراة حفاة ، لم يمكن أحدا منهم من ظَهْرٍ يركبه ، بل رحلوا كلهم رجالا .

ثم بعث فقراءهم وعامتهم ومن ليسوا بذوى خطر إلى المجر ، أما من بقى بعدئذ فقد قطع رءوسهم .

---

(٢٣١) فى شو : « الى جوار جيشه » .

وهكذا أدان ملك ولاشيا نفسه بهذه الخيانة الفظيعة ، وحاقت بالجيش خسارة كانت من أفدح الخسائر التى لقيها ، ولم يكد جوهانيزا يفرغ من هدم القلعة والمدينة وتسويتهما بالارض حتى زَحَفَ مقتفيا أثر المركيز وراح يطلبه .

(٩١)
الوصى يحاصر ادرنة

٣٩٥ — خرج هنرى وصى الامبراطورية على رأس كل من معه من الجند زاحفا بهم على ادرنة وضرب عليهم الحصار ، والواقع انه بهذا الخروج زج بنفسه وبمن معه فى موقف اكتنفه فيه الخطر الداهم ، إذ جابهه من كانوا بالمدينة وخارجها ، وكانوا كثرة كثيفة ، ومنعوهم من مغادرة معسكراتهم لشراء مايحتاجونه من الميرة أو العلف لدوابهم ، ومن ثم فقد أحاطوا معسكرهم بالاسلاك والمدافع ، وأعدُّوا بعض رجالهم لحماية الذين فى الوراء ، بينما أخذ الباقون فى مهاجمة المدينة .

٣٩٦ — وأعدوا الالآت المختلفة وهيأوا السلالم وغيرها من الآت القتال ، وصمموا على أخْذِ المدينة ولكنهم عجزوا عن ذلك لشدة مناعتها وتجهيزها خير جهاز بمايكفل لها الدفاع عن نفسها ، ومن ثم سارت الامور على غير مايشتهيهِ رجالنا ، وأصيب الكثيرون منهم بالجروح الدامية ، وأصاب حجر منجنيق جبهة احد فرساننا البارعين واسمه بطرس دى براسيو حتى أشرف على الهلاك ، ثم شاءت ارادة الرب ان يشفى فشفى ، فحمله رفاقه فى محفة بعيدا عن القتال .

٣٩٧ — ولما تبين لرجالنا عجزهم عن التغلب على المدينة ، رحل هنرى الوصى على رأس الجيش الفرنسى ، فلاقوا مضايقة كبيرة على أيدى سكان الناحية والاغريق ، فلم يمنعهم ذلك من متابعة السير يوما بعد يوم حتى وصلوا أخيرا إلى مدينة بانفيل ، فحطوا رحالهم فيها وأقاموا بها مدة شهرين ، وشنوا منها كثيرا من الغزوات من أجل المئونة فأغاروا على ديموث وماحولها ، ورجحت كفتهم ، وعلت يدهم ، حيث أصابوا وفرة من الماشية والغنائم الجمة ، مماحمل الجيش على الاقامة هنا حتى مستهل الشتاء ، وكانت الامدادات والمئونة تصلهم تباعا من رودوستو وغيرها من المدن الساحلية .

(٩٢)
جوهانيزا يدمر فيليبوبوليس

٣٩٨ – والآن دعنا نترك الكلام عن هنرى وصى الامبراطورية ، ولنتحدث مَلِيًّا عن جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا الذى استولى – كما علمت من قبل – على لاسيرا ، وغدر[٢٣٢] بمن استسلموا له مطمئنين الى أمانِه الذى أعطاهم اياه .

لقد زحف جوهانيزا بعد ذلك على سالونيكا وأقام بها فترة طويلة معملا يد الفساد والتخريب فى جزء كبير من تلك المنطقة .

* * *

أما المركيز بونيفاس دى مونتفرات فكان مقيما بسالونيكا تضطرم نفسه غيظا ، ويرمضه الأسى على هلاك مولاه الامبراطور بلدوين وسواه من البارونات وعلى مصرع رجاله ، ويتحسر أيضا على ضياع قلعة « لاسيرا » من يده .

٣٩٩ – ولما رأى جوهانيزا أنه قد بلغ غايته من سالونيكا ، ولم يعد يستطيع أن ينزل بها أكثر مماأنزله ، انكفأ عائدا بجميع قواته إلى بلادهم .

أما من كان من البيزنطيين فى فيليبوبوليس التى كانت فى حوزة رينيه دى تريت اذ أقطعه اياها الامبراطور فقد سمعوا بهلاك الامبراطور بلدوين وكثير من باروناته وبضياع لاسيرا من يد المركيز ، وعلموا أيضا بماجرى لرينيه دى تريت من انصراف ابنه وابن اخيه عنه ومعهما ثلة من اتباعه ، وأنه لم تبق معه الا شرذمة ضئيلون ، اقول انه لما عرف البيزنطيون ذلك ايقنوا ان لن تقوم للفرنجة قائمة ولن يعودوا الى سابق بأسهم ، كما انصرف جزء كبير من جماعة البوليكان الى جوهانيزا واعلنوا استسلامهم له قائلين له : « ياصاحب الجلالة ، انك ان تركب الى فيليبوبوليس او تبعث اليها جيشك ، سلمناك المدينة بأجمعها ، وجعلناها ملك يمينك » .

٤٠٠ – فلما ترامى نبأ ذلك إلى عِلْم رينيه دى تريت الذى كان مقيما بالمدينة أيقن أنهم لابد مسلموها إلى جوهانيزا ، لذلك خرج بأكبر عدد استطاع جمعه وغادرها عند مطلع النهار ، وجاء الى ضاحية منها يسكنها البوليكان الذين انضموا إلى جوهانيزا ، وأضرم النار فى تلك المحلة ، فأتى الحريق على أكثرها .

---

(٢٣٢) راجع فيما سبق فقرة رقم ٣٩٤ .

ثم غادر فيليبوبوليس بعدئذ الى قلعة استانيماك التى كانت تبعد عنها مسافة ثلاثة فراسخ فدخل[٢٣٣] الناحية برجاله واحتل القلعة ، فأقام العدو على حصاره فيها زمنا طويلا قارب الثلاثة عشر شهرا ، ذاق فيها رينيه دى تريت ومن معه مرارة البؤس الشديد والجوع الضارى ، حتى حملتهم المجاعة الى أكل لحوم خيلهم ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا على مسيرة تسعة فراسخ من القسطنطينية ، ومن ثم لم يكن هناك أدنى أمل فى الوقوف على أخبار من كان بالقلعة والمدينة .

٤٠١ — أرسل جوهانيزا بعد ذلك جيشه إلى مدينة فيليبوبوليس التى لم يطل وقوفه أمامها لاستسلام من كانوا بها إليه بعد ان وعدهم بالابقاء على حياتهم ، ولكن كان أول شىء عمله بعد هذا الاستسلام أن أمر بقتلهم ، وكان أول من قتله منهم رئيس أساقفة المدينة ، ثم أمر أن تسلخ جلود كبار رجالاتها وهم أحياء ، وألقى بعضهم حيا فى النيران ، وقطع رءوس البعض الآخرين .

أما من بقى بعد ذلك فساقهم مصفدين فى الأغلال ، ثم أمر بهدم المدينة هى وأبراجها وأسوارها وتسويتها بالأرض ، وحرق قصورها العالية وبيوتها الغنية وخرّبها عن آخرها ودمرها تدميرا .

وهكذا خربت مدينة فيليبوبوليس العظيمة : إحدى أجمل ثلاث مدن فى امبراطورية القسطنطينية .

(٩٣)
الوصى يقيم الحاميات فيما بيده من الاماكن

٤٠٢ — والآن خلّنا جانبا من الكلام[٢٣٤] عمن كانوا فى فيليبوبوليس وعن رينيه دى تريت الموجود فى استانيماك ولنعد إلى هنرى أخى الامبراطور بلدوين الذى ظل مقيما فى بانفيل حتى مطلع الشتاء ، فاعلم انه أخذ فى التشاور مع رجاله وباروناته ، فاستقر بينهم الرأى على إقامة حامية فى مدينة اسمها روسيوم وكانت تقع فى بقعة غنية خصبة وسط

(٢٣٣) كان دخوله إياها يوم ٥ يونيو ١٢٠٥ (أى يوم الأحد ١٥ شوال سنة ١٦٠١هـ) ويلاحظ أن قلعة « استانيماك » هذه تقع فى بلغاريا ، كما يلاحظ من ناحية أخرى أن فيلوبو بوليس كانت من الإقطاعيات التى أخذ بلدوين – بعد تتوجه – يوزعها على كبار الصليبيين فكانت من نصيب « رينه دى تريت ». وهى تقع فى الإقليم البلغارى وانظر فى وجود تريت فى سناتيماك فقرة٤٣٥ فيما بعد .

(٢٣٤) وردت هذه العبارة فى « شو » على النحو التالى : بهذا اختم قصة فيلوبو بوليس ، وأترك رينيه دى تريت محاصرا فى ستانيماك ، لأعود إلى هنرى [الوصىّ] أخى الإمبراطور بلدوين ».

الاقليم . ووكل أمر هذه الحامية الى تييرى دى لوس الذى عهد اليه بحكومة المدينة[٢٣٥] ، ووكل الى بيير دى تيرموند بأن يكون الكونستابل ، وأمدهما هنرى وصى الامبراطورية بمالايقل عن مائة واربعين فارسا وكثير من الجنود والخيالة ، وأمرهما بمتابعة الحرب ضد الاغريق لحماية النواحى الواقعة على التخوم .

٤٠٣ — أما هو ذاته فقد مضى مع بقية رجاله الى مدينة بيزيه[٢٣٦] وأقام بها شحنة بقيادة انسودى كايو ، وعهد اليه بمالايقل عن مائة وعشرين فارسا وبعدد كبير من الجنود الخيالة .

وأقام البنادقة حامية فى مدينة اخرى هى اركاديوبوليس .

أما مدينة أبروس فقد أعادها اخو الامبراطور بلدوين الى تيودور براناس زوج اخت[٢٣٧] ملك فرنسا ، وكان تيوردور هذا اغريقيا وقف الى جانبنا موقفا كريما لم يَقِفه احد من البيزنطيين سواه .

ودأب مَن كانوا فى هذه المدن على محاربة الاغريق واكثروا من شن الغارات عليهم ، على حين عاد هنرى ذاته مع بقية رجاله إلى القسطنطينية .

٤٠٤ — أما جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا فلم ينس أبدا أطماعه رغم ثرائه واتساع ممتلكاته ، بل ألّف قوة ضخمة من جماعة الكومان والولاشيين ، حتى إذا مضت ثلاثة اسابيع على عيد الميلاد بعث بهؤلاء الرجال إلى رومانيا نجدة لمن فى ادرنة وديموت ، فاشتد ساعد أعدائنا ، وازدادوا جرأة وجسارة ، وازدادت ثقتهم بأنفسهم حتى أخذوا فى شن الغارات على رجالنا .

---

(٢٣٥) وأصبح بمصطلح هذا العصر الاقطاعى « الصنجال » Senechal اما « الكونستابل » Constable فهوفى الغالب قائد الحامية .

(٢٣٦) هذا هو الاسم اليونانى وكذلك التركى ، ولكنها تعرف عند اللاتين باسم Vizya وانظر فى ذلك K. Setton: A History of the Crusades, Vol II, (Gazetteer). وتقع بيزية هذه فى إقليم تراقيا قرب أسوار القسطنطينية ، ويبدو أن هذه المدينة ظلت فى أيدى اللاتين حتى سنة ١٢٢٨ حيث يرد ذكرها فى الاتفاقية المعقودة بين تيودور لاسكاريس واللاتين ، وقد نصَّت الاتفاقية على حرية مرور التجار فى هذه المدينة .

(٢٣٧) هى أجنس أخت فيليب اوجستوس ملك فرنسا .

(٩٤)
هزيمة الفرنجة عند روسيوم

٤٠٥ — قام الكونستابل تييرى دى تيرموند بغزوة فى اليوم الرابع السابق لعيد[٢٣٨] سيدتنا القديسة مارى كاندلماس[٢٣٩] ، وظل راكبا طول الليل ومعه مائة وعشرن فارسا ، تاركا روسيوم فى رعاية حامية قليلة ، فلما دنت طلائع الفجر بلغ قرية يعسكر بها الكومان والولاشيون ، ولم يعرف أهل القرية بمجيئه هو ومن معه فأخذهم بغتة من حيث لايشعرون ، وهكذا نجح الفرنجة فى قتل كثير من الكومان والولاشيين ، وتم لهم الاستيلاء على مايقرب من أربعين حصانا كانت للعدو ، فلما فرغوا من ذلك كله انكفؤا راجعين إلى روسيوم بما أصابوا من نصر وغنيمة .

٤٠٦ — وفى هذه الليلة بالذات ركب الكومان والولاشيون فى سبعة آلاف مقاتل يزيدون أو ينقصون قليلا ، وكان هدفهم إلحاق الأذى بنا ، ولم يطلع عليهم الصباح حتى كانوا امام روسيوم التى عمدت حاميتها — وكانت قليلة العدد — إلى غلق أبوابها وتسلق اسوارها ، فلما رأى الكومان والولاشيون ذلك تراجعوا إلى الوراء ، حتى إذا صار بينهم وبين المدينة ميل ونصف ميل صادفوا طائفة من الفرنسيين بقيادة تييرى دى تيريموند الذى لم يكد يرى العدو يتقدم نحوه حتى قسم من معه من الفرنسيين أربعة أقسام ، أملا فى أن يدخل واياهم روسيوم فى أقصر وقت ، وإدراكا منهم أنهم ببلوغهم إياها برحمة من الرب وفضل منه سوف تظللهم السكينة ويغشاهم الأمان .

٤٠٧ — حينذاك زحف عليهم الكومان والولاشيون ، وانضم إليهم الاغريق من أهل تلك الناحية ، فصاروا فى حشد كثيف وقوة بالغة ، وكروا على مؤخرة الفرنجة التى كان قوامها رجال « تييرى دى لوس » الصنجال ، الذى قد عاد إلى القسطنطينية فحل محله فى القيادة أخوه فيللان ، فأخذ الكومان والولاشيون وحلفاؤهم الاغريق فى تضييق الخناق على الصليبيين ، وأصْمُوا بالسهام كثيرا من جيادهم حتى نفقت من تحتهم ، وتعالت الصرخات مدوية تشق أجواء الفضاء ويردد الأفق صداها ، وأكثروا من القتل فى رجالنا وتدميرهم ، واستطاعوا بأعدادهم الضخمة ان يتغلبوا على قوات اندريه دى برواز وجان دى شويزى ، فارتد الفرنسيون على أعقابهم مدبرين ، متكبدين الخسائر الجسيمة .

---

(٢٣٨) أى يوم ٣٠ يناير ١٢٠٦م (= الاثنين ١٨ جمادى الثانية ٦٠٢هـ) .

(٢٣٩) راجع فيما سبق حاشية رقم ١٤٠ .

٤٠٨ – عاودت الأحزاب المعادية هجومها كأقسى مايكون الهجوم ، وأضرى ماتكون الوحشية فى القتال ، حتى لقد استطاعوا أن يحملوا أدنى الفرنجة إليهم على الفرار إلى كتيبة تيريموند الكونستابل ، وزادوا فى تَتَبّعِهم إياهم حتى ألزموهم جميعا على الهروب إلى كتيبة شارل دى فرين .

ارتد الفرنجة على أعقابهم مكلومين ، واتجهوا نحو روسيوم التى أصبحوا يرونها رأى العين ، و لم يبق بينهم وبينها غير نصف ميل ، لكن ذلك لم يمنع عدوهم من مضاعفة الالحاح عليهم بالمضايقة والضغط عليهم أكثر فأكثر ، حتى أصبح الوقوف فى وجهه أمرا مستحيلا ، وشالت كفة قومنا ، وكثرت الجراح فيهم ، وهلك أكثر جيادهم ، فنفذ معين صبرهم ، ولم يعودوا يحتملون تتابع الأحداث السيئة التى راحَتْ تلاحقهم ويأخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، فدارت عليهم الدائرة ، وزاد من ذلك أنهم كانوا مثقلين بالسلاح ، على حين أن عدوهم كان متخففا منه فأكثر من القتل فيهم وأعمل فيهم مذبحة ضارية .

٤٠٩ – وآسفـــاه !

ماكان أشأم طالع المسيحية واتعس حظها فى ذلك اليوم !! .

لقد راح المائة وعشرون فارسا فى هذا اليوم مابين هالك وأسير ، لم ينج منهم غير عشرة انطلقوا لواذا إلى روسيوم وانضموا الى جماعتهم .

كان بين القتلى تيير دى تينريموند الكونستابل وأورى الجزرى وكان فارسا بارعا معظما ، وجون دى بومبون ، وأندرو دى أربواز ، وجان دى شويزى ، وجى دى كونفلان وشارل دى فرين ، وفيللين أخو تيير السنكال ، ولايستطيع هذا الكتاب ان يذكر أسماء جميع من هلكوا وأسروا .

هكذا شهد هذا اليوم فاجعة من أنكى الفجائع ، ونائبة من أدهى النوائب التى حلت بالمسيحية فى أرض ولاية رومانيا .

٤١٠ – ارتد كل من الكومان والاغريق والولاشيون الى بلده بعد أن انجزوا ماأرادوه بالمنطقة وبلغوا ماأمَّلوه منها ، واستحوذوا على كثير من الجياد ، وقد حدثت هذه النكبة فى اليوم(٢٤٠) السابق لليلة عيد سيدتنا القديسة مارى كاندلماس .

اما الذين قدرت لهم النجاة من هذه المجزرة فقد هربوا من مدينة روسينو هم ومن

---

(٢٤٠) أى يوم ٣١ يناير ١٢٠٦ (= الثلاثاء ١٩ جمادى الثانية ٦٠٢هـ) .

كانوا بها حالما أرخى الظلام سدوله ، وظلوا مدلجين طول ليلهم حتى بلغوا مدينة رودوستو صباحا .

(٩٥)
جوهانيزا يعاود الهجوم ويخرب نابولى

٤١١ – سمع هنرى وصى الامبراطورية بهذا الخبر المفجع وهو ماض فى موكبه الى هيكل سيدتنا بلاشرناى يوم الاحتفال بعيد سيدتنا القديسة مارى كاندلماس .

ويجب أن تعلم أن اليأس استولى اذ ذاك على الكثيرين ممن فى القسطنطينية ، واعتقدوا – وحق لهم أن يعتقدوا – أن هذه البلاد لابد ضائعة من أيديهم ، وحينذاك عزم هنرى وصى الامبراطورية على وضع شحنة فى مدينة سلمبريا التى كانت على مسيرة يومين من القسطنطينية ، وأرسل إلى هناك ماكيردى سنت مينهولد مع خمسين فارسا لحمايتها .

٤١٢ – فرح جوهانيزا ملك ولاشيا أشد الفرح حين جاءه نبأ مافعله قومه من قتل وأسْرِ الجانب الاكبر من أحسن رجال الجيش الفرنسى ، لذلك بعث إلى كافة أرجاء بلاده حاشرين ينادون بجمع أكثر من يستطاع جمعه من الرجال ، وألَّف جيشا ضخما من الكومان والاغريق والولاشيين ودخل بهم منطقة رومانيا ، فاستسلم له الجانب الأعظم من مدنها ، ودانت له كل قلاعها ، وأصبح الجميع فى صفه حتى بلغ جيشه من القوة والبأس ، مايجاوز كل تصور ووصف .

٤١٣ – فلما سمع البنادقة بقدوم جوهانيزا على رأس هذا الحشد الكثيف تركوا أركاديا ، وزحف هو بكل جيشه حتى جاء إلى ابروس[٢٤١] التى كان يقوم على حراستها الاغريق واللاتين معا ، وكانت تابعة لفيرناس زوج الامبراطورة اخت ملك فرنسا .

أما اللاتين فكانوا بقيادة الفارس بيج دى فرانسورز وهو من منطقة بوفيزيه ، فأمر جوهانيزا ملك ولاشيا بمهاجمة المدينة فهاجمها عسكره واستولوا عليها عنوة .

٤١٤ – وصحب هذا الاستيلاء مذبحة كبيرة قتل فيها قوم كثيرون جاوزوا كل عد ، واقتيد بيج دى فرانسورز أمام جوهانيزا الذى أمر بقتله فى الحال هو وجميع من معه من وجوه الاغريق واللاتين ، أما من دونهم من الرجال والنسوة وكذلك الاطفال

(٢٤١) او نابولى كما فى بعض النسخ .

فقد أمر بأن يساقوا مكبلين فى الأصفاد إلى ولاشيا . فلما فرغ من هذا كله قرر أن تهدم تلك المدينة الرائعة الجميلة وتخرب ويجعل عاليها سافلها ، فكان له ماأراد ، وسويت مدينة أبروس بالأرض .

وأعلم أن خرابها كان على هذه الصورة .

(٩٦)
تخريب مدينة رودوستو

٤١٥ – كانت مدينة رودوستو تبعد عن سيف البحر اثنى عشر فرسخا ، وهى شديدة المناعة والحصانة ، بالغة الثراء ، كبيرة الاتساع ، قد حصَّنها البنادقة بحامية قوية فأحسنوا تحصينها ، ثم زاد من ذلك كله قدوم طائفة من العسكر الأشداء لحمايتها ، فأربوا على الألفى رجل ، فلما تناهى إلى سمعهم سقوط ابروس فى يدى جوهانيزا وأخذه إياها قسرا ، وفتكه بجميع من فيها استبد بهم الفزع الشديد ، واختلت صفوفهم ، واضطربت امورهم(٢٤٢) وكأن الرب أراد زيادة بلواهم فاندفع البنادقة الى سفنهم يسابق كل منهم رفيقه ، واختلط الحابل بالنابل ، وراحوا يتدافعون بغير نظام ، حتى لقد أغرق البعض منهم البعض الآخر . أما الجنود الخيالة الذين جاءوا من فرنسا وفلاندرز وغيرهما من الأقطار فقد هاموا على وجوههم فى البلاد يطلبون الحياة فى الفرار .

٤١٦ – والآن ألق إلىّ انتباهك وسمعك لتعلم أن ذلك لم يكن ذا جدوى عليهم ، ولِتَعْلَمَ أىَّ نكبة أدى اليها فرارهم(٢٤٣) .

كانت المدينة شديدة المناعة ذات أسوار قوية وابراج حصينة ، لايجرؤ أحدا أبدا على الاقدام على غزوها ، بل إن جوهانيزا ذاته لم يكن يفكر فى الذهاب اليها ومنازلتها ، ولكنه زحف عليها حين سمع – وهو على مسيرة يوم منها – بهرب هؤلاء القوم ، فحمله ماسمع على الركوب اليها فجاءها ، فاستسلم من ظل مقيما بها من الاغريق ، فأمر بأخذهم جميعا – صغيرهم وكبيرهم – إلاّ من استطاع إلى الفرار سبيلا ، وقادهم أسرى إلى ولاشيا ، وأمر بتخريب المدينة وتسويتها بالارض .

---

(٢٤٢) جاء بعدها فى شو : « وأدى بهم الفزع إلى التخلى عن القتال قبل أن يبدأ ».

(٢٤٣) لم ترد هذه العبارة فى نسخة شو ولكن جاء بعدها « يالله ... ما أعظم الخطب الذى لم يكن ثم داع أبدا لحدوثه ».

فواحرباه لتلك الخسارة الفادحة وذلك الدمار المروع !! .

لقد كانت مدينة رودوستو هذه من أحسن مدن الامبراطورية وأجملها موقعا وأكثرها عمرانا .

(٩٧)
جوهانيزا يتابع الفتح والتدمير

٤١٧ – كان على مقربة من رودوستو هذه مدينة أخرى تدعى « بانيدور » استسلمت له ، فأمر بتخريبها هى أيضا تخريبا تاما ، وقضى على أهلها بما قضاه على أهل رودستو فأخذهم أسرى الى ولاشيا .

ثم زحف بعدئذ الى مدينة هرقلة المطلة على البحر ، وكانت ميناء من أحسن الموانى ، وهى فى حوزة البنادقة الذين لم يتركوا بها الا حامية صغيرة ضعيفة ، أغرت جوهانيزا بمهاجمتها فهاجمها ، واستولى عليها بحد السيف ، وأعمل فيها مذبحة كبيرة . أما الذين قُدِّرَت لهم النجاة من القتل فسيقوا أسرى الى ولاشيا كما أراد ، ثم أمر بالمدينة أن تدمر فدمرت كأخوات سابقات لها من قبل ، وجرى عليها ماجرى عليهن من خراب .

٤١٨ – ثم زحف بعد ذلك الى مدينة « دنيوم DAONIUM » الرائعة وكانت مدينة حصينة لكن لم يجرؤ سكانها على مقاومته والوقوف فى وجهه والدفاع عن أنفسهم ، ومع ذلك فقد أمر بهدمها وتسويتها بالأرض .

فلما فرغ منها تابع سيره إلى مدينة شيرلوت التى كانت قد استسلمت له من قبل ، وأمر بهدمها هى الأخرى أيضا وتسويتها بالأرض وأخذ أهلها أسرى .

هكذا كان يفعل بكل قلعة أو مدينة تستسلم له حتى ولو كان استسلامها له بأمان أعطاها إياه ، اذ كان يأمر بهدم المبانى واسترقاق الرجال و سَبْيِ النساء . لم يؤثر عنه أبدا أنه احترم عهدا قطعه ، أو أمانا منحه ، أو اتفاقا أبرمه .

٤١٩ – أخذ الكومان والولاشيون فى اعقاب ماذكرت لك فى اكتساح المنطقة طولا وعرضا حتى صاروا أمام أبواب القسطنطينية حيث كان بها وقتذاك هنرى الوصى ينتظرهم بمن تحت يده ممن استطاع ان يجمعهم ، وكان الغم قد بلغ به مُنْتَهاه ، وأسخطه غاية السخط عجزُه عن أن يجمع من الرجال من يكفى للدفاع عن أرضه ، فلم يجد الكومان من يدفعهم عن الاستيلاء على الماشية فأخذوها أنى وجدوها ، وأسروا الرجال

والنساء والأطفال ، وخربوا المدن والقلاع وكانوا سبب الدمار والوحشية اللتين لم يسمع الناس أبدا بأفظع منهما .

٤٢٠ – بلغ الكومان والولاشيون مدينة اسمها نتورا Natura الواقعة على بعد اثنتَىْ عشرة مرحلة من القسطنطينية وكان هنرى اخو الامبراطور اقطعها لبايين الأرليانى ، وقد ازدحمت بسكانها حتى ضاقت بهم بسبب من فَرّ اليها من اهالى الضواحى التى حولها فأغار عليها الكومان وأخذوها قسرا . وجرت مذبحة لم يحدث مثلها ابدا فى أى مدينة من المدن التى دخلوها من قبل .

ويجب أن تعلم أن جميع القلاع والمدن التى استسلمت لجوهانيزا بعهد أمان قد خربت وسويت بالأرض ، واقتيد أهلها أسرى إلى ولاشيا على الصورة التى علمتها .

٤٢١ – واعلم أنه لم يبق حول القسطنطينية فى مساحة قدرها رحلة خمسة أيام مكان لم يصله التخريب ، سوى مدينتى بيزيه وساليمبريا اللتين كانتا فى حراسة الفرنسيين .

أما مدينة بيزيه فكان بها انسو دى كايو فى مائة وعشرين فارسا ، واما ساليمبريا فقد اقام بها ماكير دى سنت مينيهولد فى خمسين فارسا ، أما هنرى أخو الامبراطور بلدوين فقد أقام فى القسطنطينية مع بقية الجيش .

ولتعلم أن قد قَلَّتِ المئونة عندهم حتى كادت ان تفنى لأنهم لم يكونوا يملكون خارج القسطنطينية اكثر من هاتين المدينتين .

(٩٨)
الاغريق ينضمون للصليبين وجوهانيزا يحاصر ديموتيكا

٤٢٢ – رأى الاغريق الذين فى جيش جوهانيزا – وهم الذين باعوا أنفسهم له وثاروا ضد الفرنجة – أقول رأى هؤلاء الاغريق مدى تخريبه قلاع بلادهم ومدنها ، ولمسوا فيه عدم احترامه أى عهد من العهود التى أبرمها معهم ، فاعتبروا أنفسهم مخدوعين ، وأنهم أسلموا أنفسهم للهلاك ، وراحوا يقلبون الأمر فيما بين بعضهم والبعض الآخر وقالوا إن جوهانيزا سينزل من الدمار بأدرنة وديموت – حين يعود إليهما – ماأنزله من قبل ببقية المدن الأخرى . وأنه اذا خربت هاتان المدينتان فقد ضاعت رومانيا إلى الابد .

٤٢٣ – لذلك اختاروا من بينهم فى السر جماعة من الرسل بعثوا بهم الى برناس فى القسطنطينية ، يلتمسون منه ان يتوسل إلى هنرى – أخى الامبراطور بلدوين – وإلى

البنادقة لعقد الصلح معهم ، وأن يكونوا جميعا يدا واحدة ، ويخبرونهم أنهم بدورهم سيردون أدرنة وديموث إلى الفرنجة ، ويعدونهم بوقوف الاغريق عن بكرة أبيهم الى جانب هنرى حتى يعيش البيزنطيون والفرنجة فى وفاق : لُحْمَتُه الصداقة وسداه المودة .

لذلك عقد فى القسطنطينية مجلس تناول المجتمعون فيه الموضوع من شتى نواحيه ، فكانوا بين مؤيد ومعارض ، وأخيرا اتفقوا على أن تمنح مدينتا ادرنة وديموث وماحولهما لبرناس وزوجته الامبراطورة اخت فيليب ملك فرنسا(٢٤٤) وان يكون برناس فى خدمة الامبراطور والامبراطورية(٢٤٥) .

هكذا كان الاتفاق(٢٤٦) الذى ارتضاه الجميع ، وهكذا عقد السلم بين الاغريق والفرنجة .

٤٢٤ — أما جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا الذى أقام طويلا فى رومانيا وظل يعيث فسادا فى الاقليم طول أيام الصوم الكبير وفترة طويلة بعد عيد الفصح(٢٤٧) ، فقد يمم وجهه بعدئذ شطر أدرنة وديموث ، مُجْمِعًا عزمه على أن يوقع بهما ماأوقعه ببقية مدن الاقليم الأخرى من قبل .

فلما رأى من معه من الاغريق أنه سالك الطريق المؤدى به الى ادرنة اخذوا فى التسلل من جيشه ليلا ونهارا فى طوائف تضم الواحدة منها عشرين شخصا أو ثلاثين أو أربعين ، بل ومرة أخرى مائة شخص .

٤٢٥ — ولما وصل جوهانيزا إلى أدرنة ووقف أمام أبوابها طلب ممن بها أن يفتحوها ليدخلها كما دخل أخواتٍ لها من قبل ، ولكنهم رفضوا سؤاله وقالوا له : « ايها الملك حين استسلمنا لك وثرنا ضد الفرنجة أقسمت بكل مقدس أن تحمينا وتبسط علينا ظل

---

(٢٤٤) عبارة « الإمبراطورة أخت فيليب ملك فرنسا » غير واردة فى « شو » .

(٢٤٥) جاء بعدها فى نسخة شو : « ورسم القوم خطوط هذا الاتفاق وأمضاه الجانبان ، ومن ثم انعقد السلام بين الاغريق والفرنجة » .

(٢٤٦) كانت دواعى هذا الاتفاق هى ما أبداه جوهانيزا من وحشية فى حربه ، ومن طغيان فى تدميره للمدن والقرى حتى لقب بجزار اليونان ، كما لقب بازيل الثانى بجزار البلغار ، ومن ثم عمد أهالى « ديموتيكا » و « أدرنة » الى الاعتراف بثيودور براناس (او فرناس كما تسميه بعض المراجع) رئيسا أعلى حتى ان البندقية ذاتها تنازلت رسميا عن حقوقها فى أدرنة لتيودور هذا ، وكان لهذا الاتجاه من اللاتين والبنادقة والاغريق أثره فقد قام تيودور براناس بتجنيد خمسمائة محارب جعلهم فى خدمة اللاتين ، وقام من جهته بحماية البنادقة فى ناحيته ، ثم كان أهم ماتمخض عن ذلك الاتفاق هو أن جوهانتزا فشل فى حصاره ديموتيكا وقام هنرى الوصى بدفع الولاشيين الذين فروا امامه الى العمق من بلغاريا ، راجع Robert Lee Wolff : The Latin Empire of Constantinople 1204 – 1261, (in : Setton : op. cit. Vol II), pp. 203—204.

(٢٤٧) وذلك يوم ٢ ابريل ١٢٠٦م (= ٢٧ شعبان ٦٠٢هـ).

الأمن ، ولكنك لم تبر بقسمك بل خربت كل بلادنا ، ونحن موقنون تمام اليقين أنك فاعل بنا مافعلته بسوانا » .

فلما سمع جوهانيزا قالتهم هذه ضرب الحصار على ديموت ، ونصب حولها ستة عشر منجنيقا كبيرا وغير ذلك من شتى آلات الحصار وراح يعيث فسادا فيما حولها .

٤٢٦ – وبعث من فى ديموت أدرنة برسل من قبلهم إلى القسطنطينية لمقابلة هنرى وصى الامبراطورية وفيرناس ، طالبين منهما – من أجل خاطر الرب – المبادرة إلى إنقاذ ديموت التى كانت تعانى إذ ذاك أهوال الحصار ، فلما سمع من بالقسطنطينية هذه الأخبار أجمعوا رأيهم على النهوض لنجدتها .

غير انه كان هناك كثيرن لم يجرؤا ان يشيروا بالخروج من القسطنطينية ، ممايؤدى إلى وضع الأقلية المسيحية الباقية بها موضع الخطر ، ومهما يكن الأمر فقد استقر الرأى فى النهاية – كما علمت – على النهوض للحرب والزحف على سالمبريا .

٤٢٧ – أخذ الكردينال الذى كان البابا قد عينه نائبا عنه بالقسطنطينية فى الدعوة بين الصليبيين لمحاربة العدو ، ووعد الذين يخرجون منهم لقتاله فيُقتلون بالغفران التام .

ومن ثم خرج هنرى من القسطنطينية ومن كان تحت قيادته وطوع أمره من الرجال ، ومن استطاع جمعه منهم ، وزحف بهم على مدينة سلمبريا ، حتى إذا بلغها ظل معسكرا أمامها ثمانية أيام بلياليها . وكانت الرسل تأتيه كل يوم من أدرنة ملتمسين منه العطف عليهم والرحمة بهم فينهض لانقاذهم ، لأنهم لامحالة هالكون عن بكرة أبيهم اذا لم يسرع هو لنجدتهم .

(٩٩)
زحف اللاتين لنجدة ديموت

٤٢٨ – حينذاك عقد هنرى مجلسا مع باروناته وأخذ يتشاور واياهم فى الأمر وماذا يفعلون ، فاتفقوا على الذهاب إلى مدينة بيزيه العظيمة الحصينة ، ومن ثم نفذوا ماأجمعوا أمرهم عليه ، وجاؤها فعسكروا أمامها ليلة[٢٤٨] الاحتفاء بعيد مولد سيدنا يوحنا المعمدان .

---

(٢٤٨) وذلك يوم ٢٣ يونيو ١٢٠٦م (= الجمعة ١٥ ذو القعدة ٦٠٢هـ).

وفى اليوم الذى عسكروا فيه أمام المدينة جاءتهم رسل من ادرنة قالوا لهنرى أخى الامبراطور بلدوين : « مولانا ، ليكن معلوما لديك أنك إن لم تنجد مدينة ديموث فإنها لن تستطيع المقاومة أكثر من ثمانية ، وَستَتَسْلُمِ لجوهانيزا الذى نقبت مجانيقه أسوار البلد فى أربعة مواضع ، واستطاع رجاله الصعود مرتين عليها » .

٤٢٩ — حينذاك استشار هنرى جماعته أن يُشِيروا بما ينبغى عليه اتخاذه ، فتكلم الكثيرون من هنا وهناك ، وتشعبت بهم الأقوال شعابا متباينة ولكنهم قالوا فى النهاية له : « مولانا بلدوين ، أما وقد جئنا ووصلنا إلى هذا الحد فسوف يكون لنا العار الابدى الذى يلاحقنا ولن نقدر على الفكاك منه اذا نحن لم نَمْضِ قُدُماً لنجدة ديموث . فمر أمرك بأن يمضى كل واحد منا الآن ، ويعترف ، ويتناول قربانه ، ثم نرتب بعد ذلك صفوفنا ونزحف بها للقتال » .

* * *

وشرعوا يحصون من معهم فكانوا أربعمائة فارس لايزيدون عن ذلك واحدا ان لم يكونوا دون هذا العدد قليلا ، ولذلك استدعوا إليهم الرسل الذين كانوا قد قدموا عليهم من أدرنة وسألوهم عن كيفية وضع الأمور بها ، وعن عدد الرجال الذين مع جوهانيزا ، فأجابوهم إن معه مالايقل عن أربعين ألف جندى فى كامل سلاحهم ، سوى المشاة الذين لايعرفون لهم عدا .

٤٣٠ — فيارباه .. اى معركة خطيرة تلك التى تقابل فيها فئة قليلة فئة كثيرة !! .

لامشاحة فى أنها معركة يكتنفها الخطر من كل جانب ، ومع ذلك فقد بادر الجميع صباح يوم عيد القديس يوحنا المعمدان وانجزوا اعترافهم وتناولوا القربان ، حتى اذا كان(٢٤٩) الغد أخذوا فى الزحف على البلد .

كان على المقدمة جوفرى مارشال رومانيا وشمبانيا ومعه ماكير دى سنت مينيهولد .

أما الفريق الثانى فكان بقيادة كونون دى بيثون وميلز البرابانتى .

وأما الفريق الثالث فكان بقيادة بابين الأورليانى وبطرس دى براسيو .

وأما الفريق الرابع فكان بقيادة أنسو دى كايو .

وأما الفريق الخامس فكان بقيادة بلدوين دى بوفوار .

وأما الفريق السادس فكان بقيادة ميتز .

---

(٢٤٩) أي يوم ٢٥ يونيو ١٢٠٦م (= الأحد١٧ ذو القعدة ٦٠٢هـ).

وأما الفريق السابع فكان بقيادة هنرى أخى الامبراطور بلدوين .
وأما الفريق الثامن فكان مؤلفا من المحاربين الفلمنكيين بقيادة ولتر دى أسكورناى .
أما تييرى دى لوس السنكال فكان على مؤخرة الجيش .

٤٣١ – وخرجوا على هذا الترتيب راكبين جيادهم ومغذين الزحف مدة ثلاثة أيام ، ولم يُعرف جيش قبله يتقدم للقتال يطلبه ويسعى إليه وهو محاط بمثل هذا الخطر الذى يحيط بهؤلاء المحاربين اذ كان الخطر يتهددهم من جهتين :
اما الأولى فقلة ماهم عليه من العدد مع كثرة رجال عدوهم كثرة هائلة .
وأما الثانية فعدم ثقتهم بأن يفى الاغريق الذين حالفوهم بالأمس القريب بما عاهدوهم به من نصرتهم إياهم ومدهم بالمساعدة الصادقة التى عاقدوهم عليها .
واستبد بهم الفزع وأوجسوا فى أنفسهم خيفة من أن ينضم الاغريق – وقت حاجتهم إليهم – إلى صف جوهانيزا الذى كان – كما علمت – موشكا على أخذ ديموث .

(١٠٠)
الصليبيون يتعقبون جوهانيزا فى ارتداده

٤٣٢ – حين سمع جوهانيزا أن الفرنجة قادمون لم يجسر على الوقوف حيث هو ، بل عمد إلى تدمير مامعه من آلات الحرب ، وقَوَّض معسكره وانسحب من أمام ديموث .
وأعلم أن الدنيا بأجمعها عَدَّت هذا الأمر معجزة كبيرة .
فلما كان اليوم الرابع من هذا الحادث وصل هنرى وصى الامبراطورية أمام ادرنة وضرب معسكره على مقربة من نهرها ، وكان نزوله وجنده فى مرج من أحسن مروج العالم ، ولما رأى أهل البلد جيشه قادما عليهم هبوا للقائه مهطعين رافعين أمامهم صلبانهم ، واظهروا من السرور مالامزيد عليه ومالم ير مثله من قبل أبدا ، وحق لهم السرور لأنهم كانوا حتى هذه اللحظة فى وضع يتهددهم الخطر فيه من كل جانب .

٤٣٣ – ثم جاءت الأخبار إلى الصليبيين بأن جوهانيزا قد أنزل عسكره عند قلعة تسمى بقلعة رودوستو ، فلما طلع الصباح خرج جيش الفرنجة زاحفا إلى تلك الناحية طلبا للقتال ، فلما علم جوهانيزا بخبرهم قوض خيمه وارتد على أعقابه إلى مملكته ، ولكن الفرنجة ظلوا يتعقبونه مدة خمسة أيام وهو لايتوقف عن المضى قدما فى ارتداده .
حتى إذا كان اليوم الخامس عسكر الفرنجة فى بقعة جميلة جدا تجاور قلعة اسمها فريم ، وأقاموا عندها ثلاثة أيام .

٤٣٤ – وحدث فى هذا المكان ان انفصل عن الجيش فريق منه كانوا قد أبلوا البلاء الحسن من قبل ، وانضمت إليهم طائفة من الرجال الشجعان ، لشجار كان قد دب بينهم وبين هنرى أخى الامبراطور بلدوين ، وتَزَعَّم هذه الطائفة المنشقة بلدوين دى بوفوار ، وانضم إليه هيج دى بيوميتز ، ووليم دى جومينيز ، ودرو دى بورين ، وبلغ عدد الفرسان الذين انفصلوا مع هذه الجماعة قرابة خمسين فارسا ، دون أن يفكروا أبدا فى ماقد يؤدى إليه انشقاقهم من أن الذين خلفوهم وراءهم قد لايجدون الجرأة على البقاء بعد ذلك فى هذه الأرض وسط عدو متربص بهم .

(١٠١)
خلاص رينيه وانقاذه

٤٣٥ – حينئذ أخذ هنرى وصى الامبراطورية فى مشاورة من بقى معه من البارونات ، فاتفقوا على متابعة الزحف ، فعاودوه مدة يومين ، حتى أدركوا واديا رائعا كأجمل ماتكون الروعة ، نزلوه قرب قلعة يدعونها موناك استسلمت لهم طوعا فأقاموا عندها خمسة ايام .

ثم قالوا إنهم ماضون لانقاذ رينيه دى تريت الذى كان محاصرا فى ستانيماك مدة طالت حتى بلغت ثلاثة عشر شهرا ، ولذلك بقى هنرى وصى الامبراطورية فى المعسكر مع الجزء الأكبر من جيشه ، على حين مضى الباقون قدما لتخليص رينيه دى تريت فى ستانيماك .

٤٣٦ – ويجب أن تعلم أن هؤلاء الذين ساروا قدما ، إنما كان يكتنفهم الخطر الشديد ، وقلَّ أن حدث أن خرجت مثل هذه النجدة فى مثل هذه الظروف السيئة ، تكشر لها الأهوال من كل جانب عن أنيابها ، وظلوا يتابعون زحفهم ثلاثة أيام بلياليها عبر بلاد أعدائهم .

كان فى هذه الطائفة التى خرجت للنجدة كونون دى بيثون وجوفرى فلهاردوان مارشال رومانيا وشمبانيا وماكير دى سنت مينيهولد ، وميلز البرابانتى ، وبطرس دى براسيو ، وبابين الأرليانى ، وانسو دى كايو ، وتييرى دى لوس ، ووليم دى بيرشوا ، وجماعة من البنادقة بقيادة أندرو فالير ، وظلوا سائرين حتى بلغوا قلعة ستانيماك وأصبحوا جد قريبين منها قربا يَسَّرَ عليهم رؤيتهم إياها(٢٥٠) .

---

(٢٥٠) كان ذلك فى يوليو ١٢٠٦م (= ذو الحجة ٦٠٢هـ).

٤٣٧ – كان رينيه دى تريت على الأسوار فشاهد الطليعة التى كانت بقيادة جوفرى المارشال وغيرها من الكتائب تتقدم فى أحسن نظام ، ولم يكن يعرف من هى ولايدرى من هم هؤلاء القادمون ، ولاعجب إن هوشك فى أمرها إذ مضت عليه حقبة طويلة لم يسمع فيها خبرا ما عَنّا ، وتبادر إلى ذهنه الظن بأننا جماعة من البيزنطيين قادمون لحصاره .

٤٣٨ – حينذاك ندب جوفرى مارشال رومانيا وشمبانيا فئة معينة من التركوبول[٢٥١] وطائفة من رماة السهام للتقدم امامنا لاستطلاع خبر الحصن ، لاننا كنا لاندرى أأحياء من بداخله أم أموات طواهم الردى ، إذ لم نسمع شيئا قط من أخبارهم التى عميت عنا زمنا طويلا ، فلما بلغوا القلعة وصاروا أمامها عرفهم رينيه دى تريت وجماعته ، ولعلك تدرك مقدار ماانتابهم جميعا إذ ذاك من الفرح والغبطة التى غمرتهم ، والتى تجلت فى خروجهم سراعا للقاء أصدقائهم ، وخفقت القلوب سرورا بلقاء بعضهم البعض الآخر .

٤٣٩ – استقر البارونات فى مدينة طيبة جدا واقعة عند سفح القلعة التى كانوا قد حاصروها من قبل ، وقالوا حينذاك إنهم طالما سمعوا بقوم يتحدثون بأن الامبراطور بلدوين مات فى أَسْرِ جوهانيزا ولكنهم لايعتقدون فى صحة هذا الخبر .

ولكن رينيه دى تريت كان عنده الخبر اليقين والنبأ الصادق فأخبرهم بأن لامبراطور قد مات[٢٥٢] وحينذاك علموا حقيقة الامر ، فحزنوا عليه حزنا شديدا ووجدوا للفاجعة مسا أليما ولوعة موجعة وطال بكاؤهم عليه ، ولكن ماكان لحزنهم أن يرد الراحل .

٤٤٠ – وأمضوا ليلتهم هذه فى المدينة ، ثم رحلوا عنها فى الغد وخلفوا ستانيماك ، وظلوا راكبين مدة يومين حتى إذا كان اليوم الثالث وصلوا الى المعسكر الواقع تحت قلعة مونياك الواقعة على نهر أرتا حيث كان فى انتظارهم هنرى أخو الامبراطور ، ففرح الجيش بنجاة رينيه دى تريت الذى خلص من حبسه ، ويرجع الفضل الأكبر فى ذلك إلى من عادوا به لأنهم ذهبوا إليه غير آبهين بجسامة الأخطار التى تهددهم .

---

(٢٥١) التركوبول هم الجماعات المولدة من آباء أتراك وأمهات يونانيات .

(٢٥٢) فى هذه اللحظة فقط تأكد عند اللاتين أن الإمبراطور بلدوين دى فلاندرز قد مات فى أسر جوهانتزا ، وكان الظن به حتى الآن أنه قد يكون فى الأسر ، ومن ثم سيصبح أخوه هنرى الوصى إمبراطورا مكانه منذ العشرين من أغسطس ١٢٠٦ م ، ويقال إن جوهانيزا أصرّ على قتله بيده واتخذ من جمجمته كأسا يشرب فيه الخمر .

(١٠٢)
تتويج هنرى امبراطورا وخروجه لمحاربة جوهانيزا

٤٤١ – عزم البارونات حينذاك على الرحيل إلى القسطنطينية حيث يتوجون هنرى أخى الامبراطور بلدوين ويلبسونه التاج وينادون به امبراطورا عليهم ، واتفقوا على ان يتركوا فى هذه البلاد فيرناس وجميع إغريقها بالاضافة الى أربعين فارسا يخلّفهم هنرى وصى الامبراطورية مع فيرناس .

ومن ثم مضى هنرى وصى الامبراطورية مع بقية البارونات إلى القسطنطينية تخب بهم جيادهم يوما بعد يوم ، حتى جاؤها فاستقبلهم من بها أحسن استقبال ، وتوجوا هنرى امبراطورا فى فرح عظيم واحتفال فخم فى كنيسة القديسة صوفيا وذلك يوم الاحد(٢٥٣) التالى للاحتفال بعيد سيدتنا القديسة مارى فى شهر أغسطس ، وكان ذلك فى عام ألف ومائتين وستة من مولد سيدنا عيسى المسيح .

٤٤٢ – فلما سمع جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا بتتويج الامبراطور فى القسطنطينية ، وبقاء فيرناس فى منطقتى ادرنة وديموث جمع أكبر قوة استطاع جمعها ، ولم يكن فيرناس قد أعاد ترميم ماتهدَّم من أسوار ديموث التى دمرها جوهانيزا بما رمتها به مقاليعه ومناجيقه ، وكان قد أقام بها حامية صغيرة ، ومن ثم زحف جوهانيزا على ديموث واستولى عليها وخربها وسواها هى وأسوارها بالأرض فتلاشت كأن لم تَغْن الأمس ، ثم جاس فى أرجاء البلاد فسادا ، وعاث فيها تخريبا ، آخذ معه الرجال والنساء والأطفال ، مجريا عليهم الاسترقاق ، وحينذاك التمس من فى ادرنة من الامبراطور هنرى أن يهب لنجدتهم بعد أن رأوا ضياع ديموث على هذه الصورة الوحشية .

٤٤٣ – حينذاك استدعى الامبراطور هنرى كل من استطاع استدعاءه من الناس ، وخرج بهم وبكل ماتحت يده من العسكر من القسطنطينية زاحفا تجاه ادرنة التى كان بها إذ ذاك جوهانيزا ملك ولاشيا ، الذى ماكاد يسمع بزحف الامبراطور عليه حتى ارتد إلى بلاده ، ولكن الامبراطور هنرى تابع زحفه حتى وصل إلى أدرنة وعسكر فى سهل خارج المدينة .

٤٤٤ – حينذاك جاءه إغريق تلك المنطقة وأخبروه ان جوهانيزا ملك ولاشيا قد حمل معه الرجال والنساء ، واستولى على الماشية ، وأنه خرب ديموث وأفسد ماحولها من

---

(٢٥٣) أى يوم الأحد العشرين من اغسطس ١٢٠٦ م(ويواقعه الثانى من محرم سنة ٦٠٣هـ).

الأرض ، وانه لازال على مسافة مسيرة يوم ، فأنبأهم الامبراطور أنه ماض فى آثاره ، وأنه لابد محاربُهُ إن انتظر مقدمه ، وأخبرهم الامبراطور أيضا أنه عازم على تخليص النساء والرجال من أسره ، وأنه غير راجع حتى يطلق سراحهم جميعا ، ومن ثم أغذ السير خلف جوهانيزا الذى أخذ يرتد كلما تقدم الامبراطور الذى ظل يتعقبه مدة أربعة أيام ، حتى جاء ومن معه إلى مدينة اسمها فيروا Veroi .

٤٤٥ — فلما رأى من بالمدينة جيش الامبراطور هنرى آخذا فى الاقتراب منهم خلفوا البلد وراءهم وفروا إلى الجبال ، فقدم الامبراطور بكل جيشه وعسكر أمام المدينة ، ووجد فيها مالا مزيد معه من الحبوب واللحوم وغير ذلك من كل مايحتاج اليه ، لذلك أقام بها هو وجيشه مدة يومين ، وأذن لرجاله باجتياح الأرض التى حولها ، فحصلوا على غنيمة وفيرة جدا من الثيران والأبقار والجاموس وسواها من الماشية . ثم رحل الامبراطور من مدينة فيروا بكل مامعه من الغنيمة ميمما شطر مدينة اخرى على مسيرة يوم واحد منها اسمها بلسنون Blisnon التى هجرها أهلها كما هجر فيروا سكانها الأغريق ، فوجدها هنرى حافلة بكل مايحتاجه رجاله من ضروريات الحياة وضرب معسكره بها .

(١٠٣)
ظهور الامبراطور على جوهانيزا واسترداده الأسرى

٤٤٦ — ثم جاءت الأخبار إلى الامبراطور بأن كل الرجال والنساء الذين استرقّهم جوهانيزا موجودون فى واد يبعد عن مكانه هذا بثلاثة فراسخ فقط . وأنه وضع هناك أيضا ماكان قد استولى عليه من الغنائم والأسلاب والعربات والماشية والأغنام ، فقرر هنرى حينذاك أن ينهض من معه من اغريق ادرنة وديموث للذهاب إلى هذا الوادى واسترداد الأسرى والغنائم ، وأمر أن تصحبهم فى خروجهم هذا فرقتان من الفرسان ، فتم الأمر فى الغد وفق ماقرره الامبراطور ، وأسلمت قيادة احدى الفرقتين إلى استاش[٢٥٤] اخى هنرى إمبراطور القسطنطينية ، والأخرى الى ماكير دى سنت مينيهولد .

---

(٢٥٤) هو أستاش بن بلدوين الخامس وإن قيل انه ابن غير شرعى لـه ، ولم يكن مثل هذا عيبا للرجل فى الطبقات العليا بمجتمع العصور الوسطى ، هذا وقد شارك استاش فى الحرب الصليبية الرابعة وصارت لـه قيادة بعض كتائبها ، كما تزوج من ابنة ميخائيل صاحب « ابيروس ».

٤٤٧ – ركب الفرسان والاغريق حتى بلغوا الوادى الذى علموا بخبره فوجدوا الأسرى فيه ، فقاتل رجال جوهانيزا قوات الامبراطور هنرى ، وكثر القتل والاصابة فى رجال الجانبين وجيادهم ، ولكن رحمة الرب قضت أن يهيء الفلاح للفرنجة فاستنقذوا من كانوا فى يد العدو من الأسرى ، وعادوا بهم محررين فى صفوف طويلة يتقدمونهم فى الأوبة .

٤٤٨ – ولابد أن تعلم ان هذا كان خلاصا عظيما ، إذ كان عدد الأسرى عشرين الف رجل وامرأة وطفل ، وكان مااستولوا عليه من العربات المحملة بملابسهم ومتاعهم وغير ذلك من الغنيمة يقدر بثلاث آلاف عربة ، وكانت صفوف الأسرى – وهم فى عودتهم إلى المعسكر – تمتد مسافة فرسخين طولا ، ودخلوا المعسكر ليلا ، ففرح الامبراطور هنرى وبقية البارونات أشد الفرح ، وانزلوا الأسرى فى مكان على حدة لايختلطون بالجيش ، وأقاموا حراسة قوية عليهم وعلى مامعهم من الغنائم ثم أعادوا اليهم كل شيء كان لهم فلم يفقدوا شيئاً مما كانوا يملكون .

وفى اليوم التالى أخذ الامبراطور هنرى فى الاستجمام بعد كل الذى لاقاه من أجل الذين خلصهم من الاسر ، فلما كان بعد غد ترك هذه البلاد وظل ممعنا فى السير حتى بلغ أدرنة .

٤٤٩ – ثم أطلق سراح من انقذهم من الرجال والنساء ، فانطلق كل منهم الى مهبط رأسه أو الى البقعة التى أرادها .

أما الغنيمة الضخمة التى وقعت فى يده فقد راعى السوية فى توزيعها على رجال الجيش ، وبقى الامبراطور هنرى حيث هو خمسة أيام ركب بعدها إلى مدينة ديموث ليرى مدى الدمار الذى حل بها ، وعما إذا كان فى الامكان ترميمها من جديد ، فعسكر أمامها ، ورأى هو وباروناته أن لاجدوى من تحصينها من جراء الوضع الذى آلت إليه وصارت عليه إذ ذاك .

(١٠٤)

اقتراح زواج هنرى من ابنة المركيز وتخريب الصليبيين بلاد عدوهم

٤٥٠ – ثم وفد على المعسكر رسول من قبل ماركيز بونيفاس دى مونتفرات اسمه البارون أوتودى لاروش جاء ليتحدث فى شأن زواج ابنة[٢٥٥] بونيفاس مركيز دى مونتفرات من الامبراطور هنرى ، وهو زواج كان قد جرى الحديث بشأنه من قبل بين الاثنين ، وذكر البارون أيضا أن العروس جاءت من لمبارديا حيث كان أبوها قد بعث فى استدعائها من هناك ، وأنها موجودة الآن فى سالونيكا .

فأخذ الامبراطور فى استشارة رجاله فأجمعوا على وجوب مصادقة الطرفين على هذا الزواج ، وإذ ذاك عاد الرسول أوتودى لاروش إلى سالونيكا .

٤٥١ – جمع الامبراطور مرة ثانية رجاله الذين كانوا قد ذهبوا من قبل إلى فيرنوا واستولوا على مابها من الغنائم وخرج بهم من ادرنة حتى جاء إلى بلاد جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا ، فوصلوا إلى مدينة اسمها فيرم واستولوا عليها ودخلوها ، وأصابوا فيها غنيمة كبيرة أخذوها لأنفسهم ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام ، ثم اجتاحوا المنطقة واستولوا على أسلاب ضخمة وخربوا مدينة اسمها « أكويلو Aquilo » .

٤٥٢ – فلما كان اليوم الرابع رحلوا من فيرم وكانت مدينة رائعة لاتدرى أيهما يَبزّ الآخر : جمال منظرها ام حسن موقعها ، كما كان فيها عيون ماء حارة للاستحمام تعد أجمل حمامات حارَّة فى العالم ، فأمر الامبراطور بحرق المدينة وتخريبها ، وحمل رجاله منها معهم غنيمة كبيرة من الماشية والبضائع ، ثم ركبوا يوما بعد يوم حتى رجعوا الى مدينة ادرنة وبقوا فى تلك المنطقة حتى عيد جميع القديسين[٢٥٦] حيث لم يعد فى مقدورهم متابعة القتال بسبب حلول فصل الشتاء ، وحينذاك رجع هنرى هو وجميع باروناته الذين أجهدهم القتال كل الاجهاد ، ويمموا وجوههم شطر القسطنطينية ، واستخلف على الاغريق فى ادرنة رجلا من رجاله اسمه بطرس دى رادينجهام فى عشرة فرسان .

---

(٢٥٥) هى الاميرة اجنس دى مونتفرات ابنة المركيز بونيفاس ، وقد تم الزواج فى كنيسة ايا صوفيا بالقسطنطينية فى احتفال يليق بمقام زوجها وأبيها ، ولكنها لم تلبث طويلا حتى ماتت فتزوج الإمبراطور هنرى من ابنة بوريل ابن أخى جوهانيزا والذى تولى عرش البلغار من ١٢٠٧م حتى ١٢١٨م . أما اوتودى لا روش de la Roche فكان تابعا للمركيز بونيفاس صاحب سالونيكا فى بلاد اليونان ، كما كان فى الوقت ذاته يعرف بدوق اثينا ، انظر فيما بعد الفقرتين ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٢٥٦) وذلك يوم أول نوفمبر ١٢٠٦م (= ٢٥ ربيع الأول ٦٠٣هـ).

(١٠٥)
الامبراطور يعاود محاربة لاسكارس

٤٥٣ – في هذا الوقت كانت هناك هدنة بين تيودور لاسكاريس – حاكم ماوراء البسفور من أرض تركيا – وبين الامبراطور هنرى ، لكن تيودور لم يراع هذه الهدنة المراعاة الواجبة ، إذ طالما شجبها ، لذلك عقد الامبراطور مجلسا اذن له فى أن ينفذ من جانبه حملة لتأديبه ، فبعث بطرس دى براسيو إلى مدينة سبيجال على ذلك الجانب الآخر من المضيق ، وكان الامبراطور قد أَقْطَعه[٢٥٧] بعض النواحى فى تلك الجهات ، وأرسل معه ايضا بابين الارليانى ، وآنسو دى كايو ، واستاش[٢٥٨] أخا الامبراطور وجانبا كبيرا من أشجع محاربيه يقدر عددهم بمائة وأربعين فارسا ، أظهروا العنف والشدة فى قتال تيودور لاسكاريس ثم مالوا على أرضه فخربوها .

٤٥٤ – ثم زحفوا الى ولاية اسمها سكيزا .

وهى شبه جزيرة فى البحر الذى تطل عليه الا من ناحية واحدة ، وكان الطريق إلى دخولها قد حصن فى القديم بالأسوار والأبراج والخنادق المملوءة بالماء ، لكن ذلك كله تهدم .

هكذا دخلها جيش الفرنسيين ، وشرع بطرس دى براسيو فى إعادة تحصين تلك الناحية التى أقطعه الامبراطور اياها ، وبنى قلعتين ، وشق طريقين يؤديان إليها ، وحصنهما ، ثم مضى رجاله يجتاحون أرض لاسكاريس ، وأصابوا غنيمة كبرى وكثيراً من الماشية وأحضروا ذلك كله الى جزيرتهم .

حينذاك كر تيودور لاسكاريس على سكيزا ، ونشبت معارك ضارية ومناوشات جمة نجمت عنها خسائر اصابت الفريقين على السواء ، وحسبك أن تعلم أن القتال فى تلك النواحى كان وحشيا مميتا .

٤٥٥ – والآن دعنا من الكلام عمن كانوا فى سكيزا ، ولنأخذ فى الحديث عن تييرى دى لوس السنكال ، وكانت نيقوميديا تابعةً له وهى على مسيرة يوم واحد من نيقية الكبرى عاصمة بلاد لاسكاريس ، فذهب تييرى إلى هناك فى جمع كبير من رجال الامبراطور ووجد أن قلعتها قد دمرت ، ولذلك فقد سَوَّر كنيسة أيا صوفيا وحصنها وكانت كنيسة عظيمة الضخامة والكبر رائعة الجمال ، ونَقَل الحرب إلى هذا المكان .

---

(٢٥٧) الضمير هنا عائد على تيودور لاسكاريس .

(٢٥٨) راجع ما سبق ، حاشية رقم ٢٥٤ صفحة

(١٠٦)
مكاسب بونيفاس وزواج ابنته بالامبراطور

٤٥٦ – في هذا الوقت رحل مركيز بونيفاس دى مونتفرات من سالونيكا ومضى إلى لاسيرا التى كان جوهانيزا قد خرَّبها فأعاد بناءها ، كما أعاد بعد قليل بناء قلعة اسمها دراما Dragmes الواقعة فى وادى فيليبى ، واذ ذاك خضع له الاقليم الواقع حولها ودخل فى طاعته وأقر حكومته ، أما هو فقد أمضى الشتاء فى هذه الناحية .

٤٥٧ – وطال به الوقت هنا ، ومضى عيد الميلاد ، ثم وفدت بعدئذ إلى الامبراطور بالقسطنطينية سفارة من المركيز تقول له ان المركيز قد بعث ابنته فى سفينة حملتها إلى مدينة أبيدوس حيث هى بها الآن ، ومن ثم فقد بعث الامبراطور هنرى بجوفرى مارشال رومانيا وشمبانيا وميلز البرابانتى لاحضار السيدة ، فظل الاثنان راكبين يوما بعد يوم حتى بلغا ابيدوس ولقيا السيدة ابنة المركيز ، وكانت فتاة أثيلة المنبت صالحة ، رائعة المحاسن ، جمعت بين شرف الأصل وجمال الخلقة ، فقدما إليها التحية نيابة عن مولاهما الامبراطور هنرى وجاءا بها إلى القسطنطينية فى موكب زانه التوقير العظيم .

٤٥٨ – عقد عليها الامبراطور هنرى فى كنيسة القديسة صوفيا وذلك يوم الاحد[٢٥٩] التالى لعيد صوم سيدتنا القديسة مارى دى كاندلماس ، وتم العقد فى جو مَلأَتْه الغبطة والسرور ، وأشرق فى أبهة فخمة ولبس الاثنان التاج ، وأقيمت حفلات الزواج فى قصر بوكوليون كأعظم ماتكون الاحتفالات ، وأليق ماتكون بزواجٍ : أَحَدُ طرفيه الامبراطور ، وطرفه الآخر ابنة المركيز بونيفاس التى عرفت باسم الامبراطورة اجنس .

(١٠٧)
لاسكاريس يحالف جوهانيزا

٤٥٩ – أما تيودور لاسكاريس الذى كان يحارب الامبراطور هنرى فقد بعث فى اثناء ذلك رسلا من قبله إلى جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا ، يذكرون له على لسانه أن جميع قوات الامبراطور هنرى مشغولة بقتاله فى الجانب الآخر من المضيق المواجه لتركيا ، مماترتب عليه وجود الامبراطور فى القسطنطينية فى فئة قليلة من رجاله ، وأعلمه

---

(٢٥٩) وذلك يوم ٤ فبراير ١٢٠٧م(= الأحد رابع رجب ٦٠٣هـ).

أن الوقت قد آن لأخذ الثأر من الامبراطور ، وعرض عليه أن يقوم هو واياه فى وقت واحد بمهاجمة خصمهما : كل من ناحيته ، فيوقع إذ ذاك فى يد الامبراطور ، وتسد أمامه السبل ، ولايستطيع محاربتهما معا لقلة من تحت يده من المعسكر .

وكان جوهانيزا قد استخدم من قبل طائفة كبيرة من المحاربين الكومان حتى أصبحوا يؤلفون جيشا جرارا ، فدعاهم للانضمام إلى قواته ، فساروا إليه استجابة لدعوته ، ثم عمد الآن إلى جمع قوة ضخمة من الولاشيين والبلغاريين ، وقد استغرق ذلك كله فترة طويلة من الوقت حتى صرنا فى مستهل شهر الصوم(٢٦٠) .

٤٦٠ – شرع ماكير دى سنت مينيهولد فى بناء قلعة عند كراكاس الواقعة على خليج فى البحر يبعد ستة مراحل من نيقوميديا تجاه القسطنطينية ، كما أخذ وليم دى سين فى تحصين قلعة أخرى عند كيبوتوس المطلة على خليج نيقوميديا على الجانب الآخر والمشرفة على نيقية ، وشحنها بالمقاتلة والذخيرة .

ويجب أن تعلم أن الامبراطور هنرى لم يقصر فى تقوية ماتحت يده ، فبذل غاية مايستطيع بذله من جهد فيما حول القسطنطينية وفى مشارفها ، وجاراه فى عمله هذا البارونات الذين فى تلك المنطقة : كل فى ناحيته .

ويشهد جوفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا – وممل هذا الكتاب – أنه لم يمر على قوم قط مامر على هؤلاء من حيرة ، ولم تكابد طائفة ما كابدته هذه الطائفة من انزعاج بسبب الحرب ، وذلك لأن الجيش كان موزعا فى أماكن عدة متفرقة .

(١٠٨)
لاسكاريس وجوهانيزا يحاصران بعض المدن فى المملكة اللاتينية

٤٦١ – رحل جوهانيزا بعد ذلك بكل قواته عن ولاشيا واستصحب معه فى هذا الرحيل من انضم اليه من الكومان الذين كانوا يؤلفون فى الحق جيشا كثيفا وقوة ضخمة ، ودخل بهؤلاء وهؤلاء رمانيا . وانساح الكومان فى الاقليم واجتاحوه حتى بلغوا أبواب القسطنطينية .

أما هو نفسه فقد حاصر ادرنة ونصب ثلاثة وثلاثين مقلاعا أخذت تقذف الأسوار والأبراج بالحجارة ، ولم يكن داخل ادرنة سوى الاغريق وبطرس دى رادينجهام الذى

---

(٢٦٠) أى يوم ٧ مارس ١٢٠٧م (= الأربعاء ٥ شعبان ٦٠٣هـ).

كان الامبراطور قد تركه فيها مع عشرة من الفرسان[٢٦١] ، ثم تلقى الامبراطور هنرى جماعة أرسلها إغريق البلد ولاتينها من قبلهم ينبؤنه فيها بخبر محاصرتهم بقوات جوهانيزا ويلتمسون منه النجدة العاجلة .

٤٦٢ — حين طرق هذا النبأ سمع الامبراطور استبد به القلق وانزعج باله ، لأن قواته الموجودة فى الناحية الأخرى مماوراء البسفور كانت مبعثرة هنا وهناك ، وزاد الطين بلة والموقف سوءا أن تلك القوات كانت تعانى أشد صور الضيق ، لكثرة الجبهات التى تحارب فيها ، ولايستطاع تكليفها بأكثر مماهى قائمة به ، على حين أنه لم يكن معه فى القسطنطينية سوى طائفة صغيرة . لكنه على الرغم من هذا كله أجمع عزمه على النهوض للحرب خلال الخمسة عشر يوما التالية لعيد الفصح على رأس أكبر عدد يستطيع جمعه من الرجال ، وبعث رسالة إلى رجاله الموجودين فى سكيزا يطلب منهم المجىء اليه ، فشرعوا بفدون اليه عن طريق البحر . وكان ممن جاءه أخوه استاش ، وأنسو دى كايو فى أغلب رجالهما ، ولم يبق فى سكيزا سوى بطرس دى براسيو وبابين الأرلياني فى فئة قليلة من أتباعهما .

٤٦٣ — ووردت الأخبار إلى تيودور لاسكاريس بحصار أدرنة ، وأن الامبراطور هنرى اضطر تحت الحاجة الملحة إلى استدعاء رجاله ، وإنْ كان لايدرى أى الطرق يسلك : أيحارب فى هذا الجانب ام ذاك ؟ هذا بالاضافة إلى ماهو فيه من كرب مقيم وخوف عظيم من الحرب ، وحينذاك صفق الأمل فى فؤاد لاسكاريس ، وحملته الحماسة على أن يخرج بقواته كلها لم يترك خلفه أحدا منها ، وعسكر تجاه أبواب سكيزا ، ونشب أمامها كثير من المعارك بين اليونان والفرنجة ، تبادل فيها الجانبان الانتصارات والهزائم ، وتوالت عليهما الأرباح والخسائر .

ولما رأى لاسكاريس أن المدينة تكاد تكون خالية من الناس ألاّ من طائفة صغيرة ، فقد أخذ الجانبَ الاكبر من جيشه وسفنه ، وبعث بذلك كله إلى قلعة كيبوتوس التى تشرف على اليابسة من جهة والماء من جهة اخرى ، والتى كان وليم دى سين يعمل على تقويتها ماوسعه الجهد ، فحاصرها المغيرون برا وبحرا يوم السبت[٢٦٢] السابق للصوم الكبير .

---

(٢٦١) راجع ما سبق ، فقرة رقم ٤٥٢ .

(٢٦٢) أي يوم ٣١ مارس ١٢٠٧م (= السبت ٢٩ شعبان ٦٠٣هـ).

٤٦٤ — كان بداخل القلعة أربعون من أحسن الفرسان بقيادة ماكير دى سنت مينيهولد ، ولكن القلعة ذاتها لم تكن قد استكملت بعد تحصينها ، مما مكَّن العدو من محاربة من بها بالسيوف والحراب ، ووضاعف من شراسة هجماته الضارية برا وبحرا ، وظل يراوحها بالهجوم الذى استمر يوم السبت بأكمله .

والحق أن رجالنا أحسنوا الصمود أمامه والدفاع عن أنفسهم دفاع الأبطال ، ويشهد هذا الكتاب أن لم يحدث قط أن دافع خمسون فارسا عن أنفسهم دفاعا مجيدا مثلما دافعت هذه القلة ضد الكثرة الهائلة ، ويتجلى هذا فى الجراح التى أصابت جميع الفرسان سوى خمسة فقط منهم ، ولقى مصرعه فى هذا القتال واحد اسمه جيل هو ابن اخى ميلز البرابانتى .

(١٠٩)
بلدوين يهاجم اسطول لاسكاريس

٤٦٥ — قبل أن تبدأ هذه المعركة صباح السبت جاء الى القسطنطينية رسول على عجل فوجد الامبراطور هنرى فى قصر بلاشرناى جالسا إلى مائدة طعامه فقال له : « مولاى الامبراطور : اعلم ياسيدى أن العدو يهاجم رجالك الموجودين فى كيبوتوس ، وقد ضيق عليهم الخناق برا وبحرا ، فإن لم تنهض سريعا لتخليصهم وتسعفهم بالنجدة العاجلة ، فإنهم لامحالة مأسورون ، وسيهلكون عن بكرة أبيهم » .

٤٦٦ — كان مع الامبراطور كل من كونون دى بيثون وجوفرى فلهاردوان مارشال شمبانيا وميلز البرابانتى وفئة ضئيلة جدا من جماعته ، فعقدوا من بينهم مجلسا لم يطل بل سرعان ماانفضوا بعد ان تباحثوا الأمر ، وذهب بعده إلى الميناء وركب إحدى السفن الكبيرة ، أما الباقون الذين كانوا معه فقد اتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم السفينة التى يصادفها ، ثم نودى فى كافة أرجاء المدينة أن يمضى كل رجل من أهلها فيتبع الامبراطور فى هذه اللحظة التى يعانى فيها الشدة ويصاحبه الجميع لانقاذ رجاله الذين سيفنون عن بكرة أبيهم إن لم يَهُبُّوا إلى إسعافهم ، فكنت إذ ذاك ترى مدينة القسطنطينية بأجمعها كأنها خلية نحل ولكنها تعج بالبنادقة والبيازنة وغيرهم من الأقوام البحريين الذين كانوا فى عجلتهم يطأ بعضهم البعض الآخر عن غير قصد ، وينسلون سِراعا من كل حدب وصوب إلى مراكبهم وأغربتهم وشوانيهم ، وصاحبهم فى دخولهم السفن الفرسان الصليبيون وهم فى كامل سلاحهم وعدتهم ، وكان الفريق الذى يتم ذلك يبادر فى الابحار فى إثر الامبراطور .

٤٦٧ – دأب الملاحون على التجديف ماوسعهم الجهد والقوة طول الليل حتى تبلج فجر اليوم التالى ، ودأب الامبراطور هنرى على تشجيعهم بنفسه ، واستجابوا له حتى أصبحوا بعد قليل من شروق الشمس جد قريبين من كيبوتوس : يرونها رؤيا العين ، فحاصرها الجيش برا وبحرا ، ولم تغمض فى تلك الليلة عين أحد ممن كانوا داخل الحصن ، بل ظلوا عاكفين على الحراسة طول الليل لاينظرون إلى مابهم من مرض أو جراح ، وهو أمر ينتظر من قوم لايتوقعون شيئا سوى الموت .

٤٦٨ – رأى الامبراطور أن الاغريق قد اقتربوا من أسوار المدينة حتى كادوا أن يصاقبوها ، وأنهم على وشك مهاجمتها ، أما هو فلم يكن معه الا طائفة قليلة جدا ، من بينهم جوفرى مارشال شمبانيا فى سفينة أخرى مع شرذمة قليلين ، منهم ميلز البرابانتى وبعض البيازنة والفرسان ، وتلفَّت الامبراطور فإذا كل مامعه من السفن لايجاوز ست عشرة سفينة مابين صغيرة وكبيرة ، على حين كان لدى عدوه ستون واحدة ، ورغم عدم تكافىء القوتين فقد رأى رجالنا أنهم لو ظلوا كماهم فى انتظار وصول بقيتهم فإن الاغريق سيهاجمون كيبوتوس ، وإذ ذاك لن يكون مصير من بداخلها سوى الأسر أو القتل ، فلما عرفوا ذلك صمموا على الاشتباك بالعدو ومحاربته على ظهر الماء .

٤٦٩ – لذلك ضموا سفنهم بعضها إلى بعض وتقدموا بها صفا واحدا ، وكان الكل عليها فى كامل سلاحهم ودروعهم ، وقد زركشوا خوذاتهم ، فلما رآنا الاغريق قادمين عليهم وكانوا على وشك مهاجمة القلعة أدركوا ان النجدة قد واتت المحاصرين ، ومن ثم خَلّوا جانبا هجومهم على القلعة وانصرفوا لصدنا ، وانسحب جيشهم الضخم بأكمله – فارسه وراجله – الى الساحل .

ولما أدرك الاغريق الذين كانوا بالسفن أن الامبراطور ورجاله عازمون عزما أكيدا لارجعة فيه على قتالهم ، لايصرفهم عن ذاك أى أمر ، فانهم انسحبوا تجاه أولئك الموجودين على اليابسة عساهم ينجدونهم بالأقواس والسهام والمجانيق .

٤٧٠ – اقترب الامبراطور منهم كل الاقتراب بسفنه السبع عشر ودنى منهم دنوا شديدا حتى أخذت تطرق سمعه فى وضوح صيحات القادمين من القسطنطينية ، وماكاد الليل يرخى سدوله حتى كان كثير من هذه السفن قد جاء ، وأصبح معظم سطح البحر قد غشاه الفرنجة الذين صار لهم من القوة فيه مالاتدانيه قوة العدو ، وأمضوا ليلتهم هذه لم ينزعوا عنهم سلاحهم ولادروعهم ، وألقوا مراسيهم ، ثم اتفقوا على أن يباغتوا العدو

الموجود على الساحل بالهجوم قبل أن يتهيأ للحرب أيضا على سفنه وذلك حين ينشق الظلام عن أولى تباشير الصباح .

غير أنه ماكاد الليل يوشك على الانتصاف حتى سحب الاغريق سفنهم إلى الشاطىء وأصعدوها اليابسة ، وأضرموا فيها النيران فأتت عليها كلها ، لم تبق منها شيئا ولم تذر ، ثم قوضوا خيمهم وفروا هاربين .

٤٧١ – فرح الامبراطور هنرى وعسكره أشد الفرح بالنصر الذى أتاهم الله إياه ، وأثلج صدورهم أنه نصر يَسَّر لهم إنقاذ جماعتهم ، فلما كان الصباح قصد الامبراطور وصحبته باروناته إلى قلعة كيبوتوس ووجدوا رجالهم قد اوصبهم المرض ، وألحت عليهم الجراح المريرة والقروح الدامية ، وطالع الامبراطور ورجاله الحصن فرأوه أتفه من أن يحاربوا من أجله أو يبذلوا النفس فى التمسك به . ومن ثم جمعوا رجالاتهم كلهم وأركبوهم الشوانى ، وخلفوا القلعة وراءهم خالية خاوية .

وهكذا عاد الامبراطور هنرى إلى القسطنطينية .

(١١٠)
جوهانيزا يرفع الحصار عن أدرنة

٤٧٢ – أما جوهانيزا ملك ولاشيا الذى كان يحاصر أدرنة فلم يعط نفسه شيئا من الراحة إذا نصب مقاليعه – وكان لديه منها الكثير – فراحت ترمى حوائط المدينة وأبراجها بالحجارة ، لاتكف عن ذلك ليلا ولا نهارا حتى أحدثت بها كثيرا من الدمار ، ثم أمر جماعة المهندسين من رجاله أن ينهضوا للغمة الأسوار وتقويضها ، ومضى يراوحها بنفسه بالهجمات يشنها عليها واحدة اثر أخرى ، فدافع من بها من الاغريق واللاتين عن أنفسهم أحسن دفاع ، والتمسوا من الامبراطور هنرى أن يعينهم بنفسه ويساعدهم برجاله ، وحذروه أنهم هالكون إن هو قصَّر عن نجدتهم أو تراخى عن مد يده إليهم ، فانزعج خاطره جزعا ارفض له صبره ، وتساقطت نفسه حسرة حين ذهب لمساعدة رجاله فى ادرنة على الجانب الآخر ، فاغتنم تيودور لاسكاريس الفرصة وشدد من ضرباته العنيفة على تلك الناحية فحملت الضرورة الامبراطور على الانسحاب .

٤٧٣ – هكذا بقى جوهانيزا طوال شهر ابريل ١٢٠٧ امام أدرنة وأوشك على الاستيلاء عليها ، حتى إنه هدم أسوارها وأبراجها فى مكانين . واشتبك رجاله وتحاربوا

مع من كانوا بداخلها بالأيدى ، ونازل بعضهم بعضا بالسيوف والرماح ، وكانت هجماته عليها ضارية عنيفة ، واستبسل المُحَاصَرُون فى صدها أحسن استبسال ، ودافعوا عن أنفسهم خير دفاع ، واستمر القتل والجرح فى الطائفتين .

٤٧٤ — ثم تجلت مشيئة الرب ، وكان ماقدره وأراده حين أعلن الكومان عزمهم ألا يقيموا بعدئذ مع جوهانيزا ، وكانوا قد اجتاحوا البلاد ، وأصابوا غنيمة كبرى ، وعادوا إلى المعسكر أمام ادرنة بكل أسلابهم . ثم صارحوه أنهم راجعون إلى بلادهم ، وانصرفوا عنه ولم يكن فى استطاعة جوهانيزا ان يبقى بدون الكومان أمام مدينة ادرنة فرحل عنها وتركها .

٤٧٥ — واعلم أن هذا الأمر عُدَّ آية كبرى وأعنى به ان يرفع الحصار عن مدينة كانت قاب قوسين من الاستسلام ، وأى آية أبلغ من أن يرحل عنها رجل مثل جوهانيزا له مثل هذه القوة ، ولكن الأحداث تجرى وفق مشيئة الرب ، ذلك ان مَن بأدرنة كانوا دائمى الالحاح والتوسل الى الامبراطور والتوسل اليه ان ينجدهم ، واستطعفوه من أجل خاطر الرب أن ينهض إليهم على جناح السرعة ، فما وسعه ذلك ، وساد اليقين انهم لابد ملاقون نهايتهم اما قتلا أو أسرا لولا ان ارتد عنهم جوهانيزا ملك ولاشيا .

(١١١)
الامبراطور يرغم عدوه على رفع الحصار عن سكيزا

٤٧٦ — كان الامبراطور قد أعَدَّ عدته للرحيل بأكثر من لديه من القوات إلى ادرنة نجدة لمن فيها حين جاءه أشأم خبر وقع عليه وقوع الصاعقة مؤدّاهُ أن اسكيريون Escurion قائد بحرية تيودور لاسكاريس قد دخل مضيق أبيدوس فى بحر الدردنيل على رأس سبع عشرة سفينة ، وأنه صار أمام سكيزا حيث كان بطرس دى براسيو وبابين الأرليانى ، وأنه يحاصر المدينة بحرا ، ولاسكاريس يحاصرها برا ، وزاد من جزع الامبراطور ماسمعه من أن أهل منطقة سكيزا قد ثاروا ضد بطرس دى براسيو ، وحذا حذوهم أهل مرمرة وأنزلوا به ضررا كبيرا وقتلوا كثيرا من رجاله .

٤٧٧ — قلقت الخواطر واضطربت نفوس من فى القسطنطينية حينما بلغتهم هذه الأخبار ، وحينذاك جمع الامبراطور هنرى مجلسه ، وتشاور مع رجاله وباروناته ومع البنادقة ، فأجمعوا على أنهم إن لم ينجدوا فى الحال بطرس دى براسيو وبابين الارليانى

ورجالهم هلكوا عن آخرهم ، وضاعت البلاد من أيديهم ولم يستطيعوا لها استردادا ، ومن ثم بادروا إلى تسليح أربع عشرة سفينة ووضعوا بها أعظم البنادقة قدرا ، وكذلك جميع بارونات الامبراطور .

٤٧٨ – فكان فى إحدى السفن كونون دى بيثون ورجاله ، وفى الثانية جودفرى فلهاردوان المارشال ورجاله ، وفى الثالثة ماكير دى سنت مينيهولد ورجاله ، وفى الرابعة ميلز البربانتى ، وفى الخامسة انسو دى كايو ، وفى السادسة تييرى دى لوسى سنكال رومانيا ، وفى السابعة وليم دى برشوى ، وفى الثامنة أستاش أخو الامبراطور[٢٦٣] .

وهكذا وضع الامبراطور هنرى فى كل هذه السفن أحسن من لديه من الرجال ، فلما أقلعت المراكب من ميناء القسطنطينية قال الذين أبصروها إنه لم يبزها أى أسطول فى سلاحه أو كفاءة رجالاته .

٤٧٩ – أبحرت السفن بمن عليها فى مياه الدردنيل ميممة شطر سكيزا ، ولست أدرى كيف سمع بخبرها اسكيريون أميرال بحرية تيودور لاسكاريس ، ولكن الذى أعلمه أنه هب فغادر سكيزا وفر هاربا فى الدردنيل ، فخرجت سفننا الأخرى فى إثره تطارده ، وظلت هكذا مدة يومين وليلتين قطعت فيها أربعين ميلا فيما وراء مضيق آفى ، حتى إذا أيقنت أنها لن تستطيع إدراكه كرت عائدة إلى سكيزا ، ووجدت بها بطرس دى براسيو وبابين الأرلييانى .

أما تيودور لاسكاريس فقد انفصل عن المدينة وعاد إلى مملكته ، وبهذا سلمت سكيزا كما سمعت حالا ، وعاد من بالسفن إلى القسطنطينية وتأهّبوا للزحف من جديد على أدرنة .

(١١٢)
لاسكاريس يحاصر نيقوميديا والامبراطور يخلصها مرتين

٤٨٠ – بعث تيودور لاسكاريس بمعظم قواته إلى بلاد نيقوميدية ، وحينذاك التمس رجال تييرى دى لوس – الذين كانوا قد فرغوا من تحصين كنيسة القديسة صوفيا وأقاموا هناك – أقول إنهم التمسوا من سيدهم ومن الامبراطور أن يَهُبَّا لنجدتهم ، وإلا

---

(٢٦٣) يلاحظ من هذه القائمة أنه لم ينهض بالقتال سوى جماعات الفرنسيين ، أما البنادقة فلا توجد ثمة إشارة إليهم مما يدل على أن اللاتين وحدهم كانوا هم الذين يتحملون عبىء الحرب وكأنّ دور البندقية انتهى عند الفتح والتقسيم الذى خرجت منه بنصيب الأسد ، فكان لها كما يقال الغُنم ، ولم تشارك فى الغرم .

فإنهم لن يستطيعوا الصمود فى وجه العدو لاسيما وقد عدموا القوت ، فأوقع فى يد الامبراطور الذى أرغمته الحاجة الملحة والمصيبة الكبرى – هو ورجاله – على الانصراف مرة ثانية عن فكرة الذهاب إلى أدرنة وحملتهم على أن يعبروا مضيق الدردنيل إلى الجانب الاسيوى بأكثر من استطاعوا جمعه من نيقوميديا .

٤٨١ – فلما سمع قوم تيودور لاسكاريس بأن الامبراطور زاحف عليهم تركوا تلك الناحية التى هم فيها وارتدُّوا إلى نيقية الكبرى . فلما عرف الامبراطور ذلك تشاور هو ومن معه فاتفق الرأى على أن يقيم فى نيقوميديا تييرى دى لوس سنكال رومانيا ، وأن يقيم معه فرسانه وعامة سرجنديته لحراستها . وأن يكون ماكير دى سنت مينيهولد فى كراكس ، وأن يبقى وليم دى بيرشوى فى سكيزا ، على أن يوكل لكل منهم الدفاع عن الناحية التى هو فيها .

٤٨٢ – ثم عاد الامبراطور هنرى ومن بقى معه من رجاله إلى القسطنطينية ، واستعدوا مرة ثانية للزحف على ادرنة ، وبينما هو يتأهب لهذا الزحف حدث أن خرج ذات يوم السنكال تيير دى لوس المقيم فى نيقوميديا ، ووليم دى بيرشوى ورجالهما فى طلب الكلأ ، وعرف خبرهم رجال تيودور لاسكاريس – وكانوا كثرة – فأغاروا عليهم فجأة ، وكان رجالنا قلة مستضعفين ، وبدأ القتال واشتبكوا بالأيدى ، ومالبثت القلة أن عجزت عن الصمود أمام الكثرة .

٤٨٣ – لقد قاتل تييرى دى لوس فى ذلك اليوم هو ورجاله قتالا أظهروا فيه آيات البسالة ، وفنونا من الشجاعة ، حتى لقد سقط على الأرض مرتين من فوق جواده ولكن رجاله استطاعوا بعد لأى إركابه إياه ، وحدث نفس الامر لوليم دى برشوى فعاد إلى امتطاء جواده ونجا .

٤٨٤ – ولقد ضاعف العدو الضغط على الفرنجة وضايقهم مضايقة شديدة أعجزتهم حتى دارت عليهم الدائرة ، وأُخذ تييرى دى لوس مصابا بجرح عميق فى وجهه ، وقد أوشك أن يلفظ انفاسه حتى خيف عليه أن يموت فى لحظته ، ووقع فى الأسر مثله معظم رجاله ، لم ينج منهم(٢٦٤) الا طائفة قليلة وجدت الحياة فى الهرب . كذلك أصابت ضربة سيف وجه تييرى دى لوس فكان الى الموتى أقرب منه إلى الأحياء ، وأسره العدو ومعظم

(٢٦٤) من هنا حتى آخر الفقرة غير وارد فى نسخة « مز ».

رجاله ولم ينج منهم إلا القليل أيضا . أما وليم دى برشوى فقد جرح فى يده ، ولكنه فر من المعركة ممتطيا صهوة جواد صغير .

٤٨٥ — ولقد لجأ الذين قيضت لهم الحياة بعد الهزيمة إلى كنيسة سنت صوفيا . ويقول مملى هذا الكتاب إنه سمع من يلقى باللوم على مَنْ سبب هذه النكبة (دون ان يدرى أكان ذلك حقا أم كذبا) على فارس معين اسمه انسو دى ريمى الذى تخلى عن مولاه تيرى دى لوس وتركه فى ميدان القتال على الرغم من انه كان يقود رجاله وكان فى الوقت ذاته فَصَلاً له .

٤٨٦ — اما الذين تمكنوا من العودة الى كنيسة سنت صوفيا فى نيقوميديا ، لاسيما وليم دى برشوى وأنسو دى ريمى ، فقد أرسلوا على جناح السرعة رسولا إلى الامبراطور هنرى فى القسطنطينية يحمل اليه رسالة تفصل أخبار المعركة ، وأخبراه فيها بماكان من أمر دى تيرى فون لوس السنجال وكيف جرى عليه الاسر هو ورجاله ، وكيف أنهم هم أنفسهم حوصروا فى كنيسة ايا صوفيا فى نيقوميديا ، وأضافوا الى ذلك انه لم يكن معهم من الطعام الا مايكفيهم خمسة أيام فقط ، وأنه اذا لم ينهض سريعا لنجدتهم فليس من شك فى أنهم مقتولون أو مأسورون ، فكان رد الامبراطور على هذه الدعوة الحزينة أن عبر هو وجماعته البسفور لانقاذ اولئك الذين فى نيقوميديا .

وهكذا توقف الزحف الى أدرنة مرة أخرى .

٤٨٧ — حينما عبر الامبراطور البسفور صف قواته ورتب رجاله وأعدهم للحرب وسار بهم عدة أيام حتى بلغ نيقوميديا ، فلم يكد يسمع بخبر قدومه تيودور لاسكاريس الذى كان يحاصر البلد هو واخوته حتى انسحبوا وعبروا الجبل المشرف على الناحية الاخرى قاصدين نيقية .

أما الامبراطور فقد ضرب فسطاطه ونصب خيامه فى نيقوميديا وسط سهل خصيب زاخر بالطعام والميرة ، وأمر رجاله بالانطلاق فى تلك الأرجاء واكتساحها ، ذلك لأن سكانها كانوا قد ثاروا من قبل وتمردوا ، مغتنمين ماسمعوه من أسر القوم للصنجال تيير دى لوس ، وهكذا تمكن رجال الامبراطور من الاستيلاء على كثير من قطعان الماشية ، وأسروا كثيرا من الرجال .

(١١٣)
الهدنة مع لاسكاريس
الامبراطور يغزو مملكة عدوه

٤٨٨ – أقام الامبراطور بعد ذلك خمسة أيام فى السهل المجاور لنيقوميديا ، وفى أثناء إقامته هذه جاءته رسل تيودور لاسكاريس يعرضون عليه – باسم مولاهم – عقد هدنة أمدُها عامان ، مشترطا عليه تسليمه مدينة سكيزا وقلعة كنيسة سنت صوفيا فى نيقوميديا لهدمها ، على أن يقوم لاسكاريس – إزاء هذا – بأن يرد عليه كل من عنده من رجال الامبراطور الذين وقعوا فى أسره سواءفى هزيمته الأخيرة او فى غيرها من المعارك ، وكانوا كثرة كبيرة .

أخذ الامبراطور فى مشاورة رجاله الذين أخبروه أنهم لايستطيعون النهوض بحربين فى وقت واحد ، والخيرُ كلُّ الخير لهم أن يخسروا هذه الخسارة التى يفرضها عليهم لاسكاريس من أن يفقدوا ادرنة وجميع البلاد التى فى أيديهم .

وزادوا على ذلك فبينوا له أنهم بقبولهم هذه الهدنة يكونون قد بذروا الشقاق والمنازعة فى صفوف أعدائهم ، وحلوا عروة تحالفهم ، يعنون بذلك مابين جوهانيزا ملك ولاشيا وبلغاريا وبين تيودور لاسكاريس ، وكان كل منهما فى لحظتهما هذه صديقا للآخر ، وعوناً له فى قتال الفرنجة .

حسم الأمر على هذه الصورة ، وعقدت الهدنة بين الجانبين ، وإذ ذاك استدعى هنرى إليه بطرس دى براسيو من سكيزا فاستجاب له وجاءه ، وتمكن الامبراطور – بعد لأى – من حمله على أن يقبل وضع سكيزا فى يديه يدبر أمرها كيفما شاء ، ففعل ، فسلمها هنرى بنفسه – هى وكنيسة سنت صوفيا إلى تيودور لاسكاريس ليهدم مايريد .

هكذا تمت الهدنة وسُوِّىَ الحصنان بالارض وأطلق سراح تيير دى لوس وجميع الأسرى الآخرين .

٤٨٩ – انكفأ الامبراطور هنرى إلى القسطنطينية ، وماكاد يبلغها حتى أعلن عزمه على الذهاب إلى أدرنة على رأس أكبر عدد من الجند الذين تحت يده ، فحشد جيشه فى سلمبريا استعداد للزحف والقتال ، ولكن انقضى زمن طويل قبل نشوب المعركة التى جرت فى مستهل شهر يوليو سنة ١٢٠٧ ، أى بعد أسبوع أو مايقاربه من عيد القديس يوحنا المعمدان ، حيث خرج الامبراطور وظل يزحف بضعة أيام وصل بعدها الى أدرنة

حيث ضرب خيامه فى السهول الواقعة خارج البلد الذى انطلقت مواكب أهله للترحيب بالامبراطور وتحيته ، وكانوا فى لهفة كبيرة وشوق عارم لقدومه .

ولقد ظل الامبراطور وجيشه معسكرين خارج أدرنة مدة يوم واحد فقط ، يطالع فيه أعمال التخريب والدمار التى أنزلها جوهانيزا بأسوار البلد وأبراجه بواسطة مجانيقه وآلات رميه ، فكانت وبالا على المدينة ، ثم رحل فى الصباح ميمما وجهه شطر مملكة جوهانيزا ، وظل فى زحفه هذا أربعة أيام سويا ، حتى إذا أطل اليوم الخامس بلغ سفح جبل ولاشيا حيث ترقد فيه مدينة يسمونها يولوا كان جوهانيزا قد أسكنها من جديد اهلها الذين بها الآن ، فلما رأى سكانها جيش الفرنجة قادما عليهم ، جزعوا فتركوها وانطلقوا هاربين إلى الجبال .

(١١٤)
الامبراطور يتكبد الخسائر فى رجاله

٤٩٠ — عسكر الامبراطور هنرى وجنده أمام المدينة ، وانطلقت فى أرجائها جماعات تطلب الذخيرة فاستولت على كثير من الثيران والأبقار والجاموس وغيرها من الأنعام ، وكان مااستولوا عليه كثيرا جدا ، حتى إن القوم الذين صحبوا الجيش من ادرنة — وكانوا فقراء جوعى — عادوا إلى بلادهم بعرباتهم التى اسْتَصْحَبوها معهم مملوءةً بالغلال وغيرها من الحبوب ، ووجدوا أيضا وفرة غزيرة من المئونة ، فحملوا منها ماقدروا عليه ، كما أوسقوا من ذلك جميع العربات الأخرى التى استولوا عليها ، وبقى الجيش كله هناك ثلاثة أيام ، كان الباحثون عن المؤونة خلالها يخرجون كل يوم مفتشين عنها . غير أن المنطقة كانت جبلية ذات طرق وعرة خشنة ، فهلك الكثيرون ممن خرجوا يلتمسون الميرة ، إذ خاطروا فى جنون فماتوا ! .

٤٩١ — وأخيرا أرسل الامبراطور أنسودى كايو لحراسة الباحثين عن المئونة ، كما أرسل أخاه استاش وابن اخيه تيير دى فلاندرز ، وكذلك ولتر الذى هو من أسكورتارى ، وجون بليود ، وقد ذهب أربعتهم لحراسة من ذكرنا ، ودخَلُوا أرضا موحشة جبلية ، فلما أرادوا العودة بعد أن اكتسحوا مااكتسحوا وجدوا سكانها الولاشيين قد تجمعوا زمرا ، وأقاموا من بينهم حراسة شديدة على المسالك والدروب فسدوها على الفرنجة ، ثم زادوا فهاجموهم وفتكوا بالكثيرين منهم واستولوا على

جيادهم ، فلم تتيسر النجاة لمن بقى منهم الا بعد جهد جهيد وقتال عنيف اضطر فيه فرساننا إلى التخلى عن خيولهم والحرب رجالا ، ومع ذلك فقد استطاعوا بفضل الرب أن يعودوا الى معسكرهم ولكن بعد أن تكبدوا خسائر ضخمة .

٤٩٢ — وفى اليوم التالى غادر الامبراطور هنرى وعسكره مدينة يولوا وعادوا من نفس الطريق الذى جاءوا منه ، وظلوا سائرين بضعة أيام وصلوا بعدها الى أدرنة ، فجمعوا فيها الغلال والذخيرة التى عادوا بها ، وأمضى الامبراطور أسبوعين بعدئذ فى السهل الذى تشرف عليه المدينة .

(١١٥)
بونيفاس يعلن ولاءه للامبراطور وفلهاردوان يعلن تبعيته لبونيفاس

٤٩٣ — حدث فى هذه الأثناء أن المركيز دى مونتفرات (الذى كان فى لاسيرا بعد أن أعاد ترميمها وتحصينها) شن بعض الغارات على نواحى المنطقة المحيطة بها ، وأوغل حتى بلغ مدينة مسينو وأدخل كل البلاد فى طاعته واحدة بعد أخرى ، فلما تم له ذلك بعث برسل من لدنه إلى الامبراطور هنرى ينبؤونه على لسانه برغبته فى الاجتماع به والحديث إليه ، وأنه سوف يلقاه عند شاطىء النهر الذى يجرى أسفل ابسالا .

ولم تكن قد أتيحت لهما فرصة اللقاء والتحدث مع بعضهما منذ فتح الفرنجة للبلاد ، ذلك لأن رجال السوء مشوا بالشر بينهما ، وجعلوا لقاء أحدهما بالآخر أمرا مستحيلا ، ولكن حين علم الامبراطور ورجال مجلسه بوجود المركيز فى مدينة مسينو غمرتهم الفرحة ، ورَد الامبراطور عليه مع رسله بأنه سوف يمضى لمقابلته ومحادثته فى اليوم الذى عينه لذلك .

٤٩٤ — ومضى الامبراطور إلى هناك مع رجاله بعد أن ترك وراءه كونون دى بيثون مع مائة من الفرسان فى أدرنة لحفظ الناحية وماحولها ، ثم كان اللقاء فى اليوم المضروب وفى المكان المسمى بينهما ، وكان سهلا فسيحا رائعا قرب مدينة ابسالا ، ودخله الامبراطور من ناحية ، ودخله المركيز من الناحية الأخرى ، وكان اللقاءُ القاء لقاء بهجا يرفرف فى اجوائه السرور ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب ، لأن كلا منهما لم ير الآخر منذ أمد بعيد .

ثم سأل المركيز الامبراطور عن أخبار ابنته الامبراطورة أجنس ، فلما انبأه انها تنتظر وضع وليدهما غمرته الفرحة وثلج للخبر صدره .

واعلن المركيز تبعيته للامبراطور هنرى وأصبح فَصَلاً إقطاعيا له ، وصرح أن مايملكه من الأرض الآن يعتبر إقطاعا منه له ، كما كان أمْرُهُ مع اخيه الراحل الامبراطور بلدوين .

٤٩٥ – ثم خير المركيز بونيفاس جوفرى فلهاردوان مارشال رومانيا بين اثنين ، يختار منهما ماشاء فيقطعه مااختار : اما مدينة مسينو وكل مايتبعها أو مدينة لاسيرا .

وهكذا أصبح المارشال فَصَلا للمركيز دون أن يخدش ذلك من تبعيته الاقطاعية أو ولائه لامبراطور القسطنطينية هنرى .

وهكذا بقى الامبراطور والمركيز مدة يومين فى سعادة كبيرة فى ابسالا ، وقالا إنه مادام الرب قد أذن لهما باللقاء فَحَرِىٌّ بهما أن يكونا يدا واحدة فى محاربة العدو وهزيمته من جديد .

ثم اتفقا على أن يكون اللقاء التالى بينهما فى السهل المجاور لادرنة فى نهاية الصيف فى شهر اكتوبر ، ومعهما كل قواتهما ، ليزحفا معا على جوهانيزا ملك ولاشيا لحربه ، ومن ثم ودع كل منهما الآخر جذلان راضيا مطمئنا ، فمضى المركيز الى مسينو ، ويمم الامبراطور وجهه شطر القسطنطينية .

(١١٦)
مقتل بونيفاس فى المعركة على يد البلغار

٤٩٦ – حينما عاد المركيز إلى مسينو أقام خمسة أيام فقط ثم غادرها نزولا على نصيحة إغريق الناحية له بالخروج فى حملة إلى منطقة الجبال التى كانت تبعد عن المدينة مسيرة يوم واحد ، فركب وجاس خلال الديار ، حتى إذا كان عائدا إلى مدينته تجمع البلغار وأبصروه فى قوة صغيرة ، ومن ثم كروا من جميع الجهات وباغتوا مؤخرته ، فلما سمع المركيز صراخ رجاله وصيحات فزعهم بادر وليس معه غير رمحه فى يده ، وامتطى صهوة جواده دون أن يسرجه ، وانطلق ، حتى إذا جاء الى حيث البلغار يقاتلون مؤخرته بالأيدى كر عليهم كرة ردتهم إلى الوراء كثيرا .

٤٩٧ – على أنه ألَحَّ فى مطاردتهم ، فعاد أحدهم فطعنه فى ذراعه دون الكتف فجرحه جرحا نزف منه دمه ، وكانت طعنة مميتة ، فلما رأى رجاله ماحدث زايلتهم

شجاعتهم ، ونزل بهم من الخوف ماخلع قلوبهم ، فتخبطت بهم السبل فماعادوا يدرون مايفعلون .

فأما الذين كانوا بجواره من رجاله فقد حملوه بينهم وأسندوه ، ولكن ازداد النزف حتى أغمى عليه ، فلما فقدوا الأمل مِن حياته داخلهم اليأس فانفض أكثرهم من حوله ، وتخبطوا لايدرون مايفعلون ، فدارت عليهم الدائرة وحاقت بهم الهزيمة .

وأما الذين ظلوا مع المركيز – وكانوا عددا قليلا جدا – فقد قتلوا عن آخرهم .

ثم عمد البلغار الى رأسه فحزّوها وأرسلوها إلى جوهانيزا ، فكان ذلك أعظم غبطة اهتزت لها نفسه فى حياته .

فواحسرتاه .. !!

ماكان أشأم وقع هذا الخطب المحزن على نفس الامبراطور هنرى وجميع اللاتين الموجودين فى الامبراطورية : فرنجة كانوا أو بنادقة ، اذ فقدوا – فى هذا الحادث التعس – رجلا كان من أنبل الرجال ، وبارونا من أكبر البارونات قلبا ، وفارسا من اعظم الفرسان فى الدنيا كلها .. !!

ولقد وقع هذا الحادث المبكى فى سنة ألف ومائتين وسبع من مولد عيسى المسيح .

ـ ينصبّ اهتمام الاستاذ الدكتور حسن حبشى – مترجم هذا الكتاب – على وثائق العصور الوسطى بشقيها الاسلامى والغربى ، وقد ساهَمَ سعادته فى ميادين التأليف والترجمة وتحقيق المخطوطات ، ووضع فى ذلك حتى الآن تسعة عشر كتاباً .

وقد درس سعادته بمصر وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وحصل على دبلوم فى التربية وعلم النفس ، وعلى درجة البكالوريوس فى الآداب من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز ، والماجستير بنفس التقدير عن حركة الافاقة الاسلامية فى القرن السادس الهجرى .

واختارته جامعة عين شمس للتدريس بها ومبتعثا لها إلى بريطانيا فدرس للماجستير وحصل على درجة الدكتوراة فى التاريخ من جامعة لندن ، ثم اختير للتدريس فى كلية سوث ايلنج بلندن .

وتدرّج سعادته فى سلك التدريس الجامعى أستاذاً مساعداً فمشاركاً ، فأستاذ كرسى التاريخ بكلية الآداب كما اختير عضوا فى
التطوير الجامعى بمصر وعضوا باللجنة العليا للترقيات العلمية الجامعية بمصر ، وشغل مثل ذلك حينا فى جامعة الملك عبد العزيز بجد
وفى غير ذلك من لجان علمية وأدبية . كما اعيرت خدماته للخارجية مستشارا ثقافيا بباكستان وإلى جانب معرفته الانجليزية والفرن
فهو يعرف أيضا اللاتينية والفرنسية القديمة ، وترجم من كل هذه اللغات ، كما حقق كثيرا من المخطوطات التى نُشر بعضها والب
الآخر فى طريقه للظهور ان شاء الله .

وهو يشارك الآن فى التدريس بجامعة الملك عبد العزيز استاذا بقسم التاريخ فى كلية الآداب .

مطابع جامعة الملك عبدالعزيز بجدة